جزيرة الكنز

رواية

روبرت ستيفنسون

جزيرة الكنز

رواية

ترجمة

سمير عبده

اســـم الكتـــاب: جزيـــرة الكـــنز.

اســـم المـؤلــف: روبرت ستيفنسون.

اســـم المــترجم: ســمير عــبده.

الترقيــم الــدولي: ISBN:978-9933-567-09-5

النــاشـــــــــــر: دار عقل للنشر والدراسات والترجمة.

ســـة الطباعـــة: 2018.



يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار عقل للنشر والدراسات والترجمة

سوريا – دمشق – جرمانا – ص.ب: 249 جرمانا

هاتف: 00963115618956

هاتف: 00963115637060

فاكس: 00963115632860

aklpublishing@gmail.com

مقدمة وإهداء المترجم

نوع الأدب الذي كتبه روبرت ستيفنسون 1850-1894 (الذي كان يؤكد أنه اسكتلندي وليس إنكليزياً) نوع آخر من الأدب اشتهر به الكتّاب الأنكلو- ساكسونيون على مر العصور، حيث لم يضاهيهم فيه أحد، ولم يستطع أحد محاكاتهم.. أدب المغامرات الذي إذ يكتب أولاً للصغار فسرعان ما يجد طريقه إلى الكبار وهو الأدب الذي كتبه واشتهر به دانيال ديفو وجوزيف كونراد، ويبدو أنه مرتبط باللغة الإنكليزية لا يعرف عنها فكاكاً.

ويبقى ستيفنسون الأبرز شهرة من هؤلاء بعد أن ارتبط اسمه أساساً برواية الرعب المعروفة (الدكتور جيكل والسيد هايد) وعمادها فصام الشخصية. غير أن العمل الأول له الذي يتبادر إلى الأذهان ما إن يذكر هو بالطبع (جزيرة الكنز) والحال أن هذه الرواية تكاد تكون العمل الأدبي الذي قرئ أكثر من أي عمل آخر على مدى القرون وفي أي لغة من اللغات. وهي بالطبع الرواية التي ترجمت إلى 38 لغة وبلغ عدد طبعاتها في اللغة الإنكليزية بغضون السنوات 2000- 2015 (18 طبعة). وحولت سينمائياً وتلفازياً أكثر من مرة.

كانت (جزيرة الكنز) التي كتبت عام 1882 الرواية المفضلة لدى الكبار والصغار، وتكاد شخصياتها تعيش في خيال كل قارئ.. بعضها يدفعه إلى التماهي معه، والبعض الآخر يجعله كأنه مجابه

للشر المطلق، ذلك أن هذه الرواية هي مثل كل عمل فني من هذا النوع، رواية تنتمي إلى ملكوت الأبيض والأسود، حيث الشخصيات مقسومة بين طيبين وأشرار، فتأتي الأحداث لتؤكد هذا الانقسام، كما تأتي لتمهد دائماً لانتصار الخير على الشر، ولكن بعض لحظات عصيبة وتوتر ورعب تصيب القارئ، كما تصيب أصحاب العلاقة داخل النص نفسه. إنه العمل الذي على مدى الصفحات، يحبس على القارئ أنفاسه، باعثاً إياه إلى عالم الحلم البعيد، موفراً له فرصة ليعيش ألف حياة وألف رعب وألف ترقب، ثم ألف انتصار وتنفس للصعداء في نهاية الأمر.

بدأ ستيفنسون نشر روايته هذه على حلقات في مجلة للفتيان مستوحياً فيها حكاية كنز مدفون رسم أول خيالاتها في ذهنه وهو يخطط لجزيرة خيالية يداعب بها ابن زوجه في يوم عطلة. وكان اسم روايته في البدء (طاهي البحر) فلم تقابل بما كان يأمل أن تنال من نجاح، وقد أعاد طبعها بعد أن استبدل اسمها بـ (جزيرة الكنز) وذلك في مجلد كامل.

ومن روائع ستيفنسون الأخرى (الدكتور جيكل والسيد هايد) و(السهم الأسود) و(السيد بلانتري) و(كتربونا) و(ليالي ألف ليلة وليلة الجديدة) و(مغامرات دافيد بلفور) و(المخطوفة) وأعمال أخرى كثيرة. وحين وفاته كان منهمكاً في كتابة (سد هيرستون) الذي لم يكمله إذ توفي وهو في الرابعة والأربعين من العمر. ولولا موته المبكر لكان أتحفنا بنتاج أكثر، ولكنه مات وهو في قمة نضوجه تاركاً سيرة وأعمالاً جعلته واحداً من كبار الأدباء في التاريخ.

وهنا علينا أن نتذكر ما قاله النقاد دائماً من أن سر نجاح (جزيرة الكنز)، وربما بقية أعمال هذا الكاتب، يكمن في ذلك التوازن المدهش الذي عرف ستيفنسون كيف يقيمه دائماً بين ما هو واقعي أو شديد القرب من الواقع وما هو خيالي، ما جعل هذه الرواية وغيرها، أعمالاً تداعب مخيلة كانت بدأت مع استشراء الرومانسية، تكتشف في الواقعي داخل الخيالي والعكس بالعكس. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن ستيفنسون استعمل الكثير من المصطلحات الخاصة بالبحر في روايته التي قمنا بترجمتها، ومنها القديم وغير المتداول حالياً.

أهدي ترجمة هذا العمل إلى كل قارئ يتشوق أن يقرأ رواية تأسره بأحداثها، كما أهديها إلى حفيديّ سرجون ويارا.

سمير عبده

القسم الأول

لصّ البَحْر القَديم

الفصل الأول

القرصان الهرم

في نزل «أمير البحر بنبو»[1]

عهد إليّ السيد ترلوني Trelawney والدكتور ليفسي Livesey، وبقية هؤلاء السادة؛ أن أدون كل ما كان من غرائب جزيرة الكنز، من البداية إلى النهاية باستثناء موقعها، وذلك لأن للكنز بقية لم تستخرج بعد، ولذا فإني أمسك يراعي في سنة 17 للميلاد راجعاً بذهني إلى الوقت الذي كان يشغل فيه أبي نُزل «أمير البحر بنبو»؛ يوم شايعنا ذلك الملاح الأسمر الذي بإحدى وجنتيه أثر قطع حسام.

وكأنما كان بالأمس ساعة يمم ذلك الملاح باب الفندق متثاقلاً في مشيته وعلى أثره عربة يد تحمل صندوقه البحري، والرجل طويل القامة، قوي البنية، ثقيل الخطى، جوزي اللون، تتساقط على كتفي عطفيه الأزرق الملوث جدائل من شعر قطراني ويداه خشنتان ممتلئتان بآثار الجروح، ذات أظافر سود مكسرة، وفي عرض أحد صدغيه أثر قطع سيف ملتحم بلون أبيض قذر داكن. وما زلت أتمثل الرجل يقلّب

1- تكنية لمير البحر بنبو Admiral Benbow المتوفي سنة 1702 والذي كان في أول أمره ربان سفينة ثم خاض حروباً بحرية وتوفي في جاميكا. - (المترجم).

بصره حول الملجأ Cave[2] وهو يصفر، ثم يرفع عقيرته فجأة فيغني أغنيته البحرية القديمة.

«خمسة عشر رجلاً على صدر الميت».

«يوهوهو وزجاجة روم!».

التي طالما شنف بها آذاننا فيما بعد بصوته العالي المتهدج الذي كان يرخمه ثم يكسره كعادته في الغناء على دورة الملواة[3].

وقد قرع الباب بعصا كالعتلة كان يحملها، وما إن رأى أبي حتى طلب بخشونة كأساً من الروم، فلما قُدِّم إليه شربه متمهلاً كالخبير الذي يتأنى ليتلذذ بمذاق الشيء. ولم تفتر عيناه وهو يشربه عن النظر إلى الجروف والتحديق في اللوحة التي عليها اسم النزل.

ثم فاه أخيراً وقال: «مكان مناسب، وخان حسن الموقع» وسأل أبي ما إذا كان في النزل كثيرون. فأجابه آسفاً: « قليل هم» فقال: «حسن»، وصاح بالرجل الذي يدفع العربة: «إن هذا مثواي يا صاح فاقترب وارفع الصندوق، ثم إني مقيم هنا قليلاً، وإني رجل ساذج اجتزئ بالروم ولحم الخنزير والبيض وبذلك أرقب منه السفن المارة، وإذا دعوتموني عليكم أن تلقبوني "بالكابتن"»، إلى أن قال: «عرفت فيما تتآمرون هنالك»، ثم إنه ألقى على عتبة الباب ثلاث أو أربع قطع ذهبية وقال بصوت الأمر: «خبروني عند نفادها».

والحق يقال إنه على الرغم من رثاثة ثياب الرجل، وخشونة حديثه لم يكن عليه شيء من سيماء البحارة مطلقاً؛ ولكنه على العكس

2- الملجأ Cave أو الجون أو الموضع الظليل، وقد استعملنا في الترجمة كلمة الملجأ لأنها أنسب تعبيراً من غيرها. - (المترجم).
3- جهاز تلف عليه أمراس السفن وخاصة الشراعية منها. - (المترجم).

من ذلك كان أقرب إلى أن يكون صاحب سفينة، أو رباناً اعتاد أن يطاع أو يبطش.

وأفادنا حامل صندوقه أن العربة التي تنقل البريد قذفت به صباح الأمس عند محطة رويال جورج، فسأل عن النزل القريب من الشاطئ، والظاهر أنه سمع ثناء «على فندقنا»، وعرف كذلك بما كان من انفراده، فاختاره من دون غيره مكاناً لإقامته، وكان ذلك كل ما عرفناه من نبأ نزيلنا.

كان الرجل طويل الصمت بطبعه، وكان يقضي طول يومه حائماً حول الملجأ، أو متسلقاً فوق الجروف، ومعه مرقب نحاسي. أما لياليه فكان يسلخها في أحد أركان حجرة الاستقبال على مقربة من النار يحسو الروم المشوب بالماء بشراهة زائدة، ويغلب عليه ألا يجيب إذا طلب إليه السؤال، إلا أنه كان يرفع بصره بشراسة مأخوذاً، ويزأر من أنفه بشدة كمن ينفخ في بوق، على أننا وجماعة القوم الذين يمرون بدارنا لم نلبث أن اعتدنا على تركه وشأنه.

وكان يسأل في كل يوم عقب عودته من تجواله ما إذا كان قد مر على مقربة منا أحد من رجال البحر. ولقد ذهب بنا الظن بادئ ذي بدئ إلى أن قلة الصحب من خلانه هي التي تحدو به إلى مثل هذا السؤال، على أننا لم نلبث أن أدركنا أخيراً بأنه كان نزوعنا لاجتنابهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

فإذا نزل بفندقنا بحار، (كما كان يحدث من آن إلى آخر حين ينزل بعضهم في طريقهم على الشاطئ إلى برستول Bristol) كان لا يجسر على دخول الحجرة قبل أن ينظر إليه من خلال سجف الباب؛

وكان يلزم نفسه الصمت والسكون كالجرذ في مثل هذه الأحوال. أما أنا فلم تكن لتخفى عليّ من الأمر خافية حيث كنت شريكه في خوفه إلى حد ما. فقد جذبني يوماً على انفراد ووعدني بقطعة من الفضة ذات الأربعة بنسات ينفحنيها في أول كل هلال إذا راقبته بعين لا تغفل بحاراً ذا ساق واحدة، وأن أعلمه بشأنه لحظة ظهوره. ومع أن الرجل كان يزبد ويحملق في وجهي إذا التمست منه في أول الشهر أن ينقدني أجرتي؛ على أن الأسبوع الأول من الشهر ما كان ينصرم قبل أن يتدبر صاحبنا الأمر، وينفحني القطعة معيداً على مسمعي أوامره الأولى أن «أرقب البحار ذا الساق الواحدة».

ولا حاجة بي لأن أذكر ما كان من أمر ملازمة ذلك البحار لأحلامي فلطالما كنت أتمثله في الليالي العاصفة عندما تهز الريح جوانب الدار الأربعة، وتعج الأمواج المتلاطمة على امتداد الملجأ ضاربة في أكناف الجروف، كنت أتمثله في هاتيك الليالي في ألف شكل، وأراه على ألف صورة شيطانية مرعبة. فتارة أتخيل ساقه وقد بترت عند الركبة، وطوراً عند أعلى الفخذ، وآونة أتمثله ضرباً من الوحش خلق بساق واحدة قد ثبتت في منتصف جسمه. وكان شر كابوس يدهمني ليلة أراه يجري ويثب ليطاردني، وقد جرى في إثري فوق الأسوار وفي الأخاديد والحفر؛ ومجمل القول فقد كنت أدفع ثمناً غالياً لتلك القطعة التي كنت أظفر بها في نهاية كل شهر بفضل ما كان يرهقني من تلك الخيالات المرعبة؛ على أن قرفي من البحار ذي الساق الواحدة كان بالغاً حد الغاية، إلا أنني كنت أقل خشية للقبطان من كل عارفيه.

وكان إذا اختل ميزان رأسه، في بعض الليالي التي يفرط فيها من شرب الروم، يرفع عقيرته مغنياً أغنيته الوحشية القديمة غير مكترث لأحد، ثم يطلب الأقداح لمن حوله ويرغم جماعة الحاضرين الذين ينتفضون خوفاً منه على الإنصات لقصصه، أو ترديد كلمات أغانيه، ولطالما شهدت جوانب الدار تهتز وهو يجأر «يوهو هو وزجاجة روم» وقد ضم سائر الموجودين أصواتهم إليه وقد علتهم صفرة الموت، وكل يرفع صوته على صوت صاحبه مخافة أن يلحظه القبطان، حيث كان في أمثال هذه النوبات يتفرد بالفظاظة والغلظة والاستبداد، حتى إنه لا يطاق، فقد كان يضرب بكفيه النضد آونة ليخيم السكون، ويشمل الصمت، وآناً يثور مغتاظاً متنمراً إذا وُجه سؤال إليه، فإذا لم يُسأل استنتج أن السامعين غير متتبعين حكايته. وما كان ليسمح لأحد بمغادرة النزل قبل أن يحسو كفايته، حتى يحس بدبيب الكرى فينقلب مترنحاً ليأخذ مكانه في مرقده.

وما كان القوم يهلعون من شيء هلعهم من قصصه المرعبة التي تدور حول الشنق وبيان ما كان يمثله لصوص البحر بأسراهم من ربط عيونهم وأيديهم، وحملهم على السير على مرقاة كالصراط معلقة في عرض القاموس المحيط فلا يكادون يتحركون عليها حتى تزل بهم القدم فيغدون طعمة للأسماك، ووصف زوابع البحر وأنوائه، فقد كان يكرر الوصف الوحشي للحوادث وبيان الأماكن التي على البحر الإسباني الطام، ولترى مما يرويه فقد كان سالخ رداء حياته بين ظهراني قوم من أفجر من أوجد الله على سطح اليم. وكانت الألفاظ التي يتخذها للتعبير عن معانيه أشد وقعاً على القرويين البسطاء من

تلك الجرائم وهاتيك المنكرات التي كان يصفها. وكان أبي دائم التوقع لخراب الفندق، حيث كان يتوقع أن يُمسك الناس عن غشيانه مخافة أن يُستبد بهم ثم هم ينقلبون إلى فراشهم هلعين. على أنني كنت أعتقد عكس ذلك، فقد أفادنا وجوده، حيث كان خوف القوم وقتياً، بيد أنهم إذا ذكروا أحاديثه بعد ذلك لذت لهم. إذ كانت مثيرات ممتعة تلذ للقروي في حياته الهادئة، وقد تظاهر عدا ذلك نفر من الشباب بأنهم مُعجبون به أيّما إعجاب فكانوا تارة يدعونه «قرصاناً حقيقياً» وطوراً «ابن نكته عتيق» إلى غير ذلك من أشباه هذه النعوت، ثم هم يقولون على مثل هذا شيدت عظمة إنكلترا في البحار.

والظاهر أنه عزم من وجهة ما على أن يُحل بنا الدمار حيث ظل يقيم في النزل أسبوعاً بعد أسبوع، ثم شهراً بعد شهر، حتى فرغ منذ أمد بعيد كل ما أعطانا من ذهبه. ومع ذلك فما كان أبي ليجسر على الإلحاف في طلب المزيد، وإذا اتفق أن بدرت منه إشارة إلى ذلك زأر القبطان من أنفه بصوت عال تكاد تخاله زئيراً، وأطال التحديق بالمسكين حتى يرغمه على مغادرة الحجرة. ولطالما رأيت أبي يضرب يداً بيد عقب أمثال هاتيك الردود، ولست أشك في أن الضيق والخوف الشديدين اللذين لازماه قد عجلا أيّما تعجيل بميتته الباكرة التعسة. وما كان القبطان طول مدة إقامته عندنا ليبدل من ملابسه شيئاً، اللهم إلا ما كان يشتريه من الباعة المتجولين من جوارب. وقد تدلى أحد أركان قبعته يوماً فتركه على حاله، إلا أن الريح كانت تضايقه إذا هبت حيث تعبث بذلك الطرف المتدلي. وما زلت أذكر منظر معطفه الذي كان يرتأه بنفسه في غرفته في الطابق العلوي، حتى استحال قبيل

المنتهى إلى مجرد رقع. وما كان رجلنا ليكاتب أحداً، ولا كان أحد ليكاتبه، ولا كان ليحدث مع أحد ذكراً، اللهم إلا مع الجيران؛ ومع ذلك فقد كان يغلب عليه إلا يحدث أولئك إلا إذا ثمل من الروم، وأما صندوق البحر الكبير فلم تره عين يُفتح.

وما جرأ أحد على التعرض لإغضابه إلا مرة واحدة، وكان ذلك في آخر الأمر عندما اشتدت بأبي المسكين وطأة المرض الذي أودى بحياته. وذلك أن الطبيب ليفزي جاء متأخراً في أصيل يوم لعيادة أبي، ثم ناولته أمي مضغة من الطعام، وبعد ذلك قصد إلى حجرة الاستقبال ليدخن غليونه ريثما يتحدر جواده من الدسكرة Hamlet – القرية الصغيرة – حيث لم يكن لدينا حظيرة للخيل في البنبو القديمة (النزل).

وقد تبعته إلى الحجرة وهنالك لاحظت الفرق بين هذا الدكتور الأنيق الجميل الرشيق ذي الشعر المستعار المزين الناصع البياض، والعينين السوداويتين اللامعتين، وبين القرويين الساذجين، وهالني على الخصوص البون الشاسع بينه وبين ذلك القرصان النجس الثقيل المظلم البعد المجدار، وقد أخذ الروم بلبه، وهو معتمد بذراعه على النضد. وإني لكذلك وإذا بالقبطان قد قذف من حلقه أغنيته التي لا تتغير:

«خمسة عشر رجلاً على صدر الميت
يوهو هو وزجاجة روم!
اشرب وإبليس قتل الباقي
يوهو هو وزجاجة روم».

وكان قد ذهب بي الظن في أول الأمر إلى أن حقيبة ذلك

الميت إنما هي الصندوق البحري الكبير الموضوع في الطابق العلوي في الحجرة التي في الصدر، وقد اختلط ذلك الفكر بأحلامي المزعجة، متحداً مع خيالاتي عن البحّار الأحادي الساق. على أننا كنا إذ ذاك قد أمسكنا عن إعارة هذه الأغنية أي اهتمام، فلم تكُن في تلك الليلة جديدة على أحد غير الدكتور الذي لاحظت بأنها تركت عنده أثراً غير مقبول؛ حيث رفع بصره مستاء قبل أن يمضي في حديثه مع تايلر Taylor البستاني الهرم. وقد كان يحدثه بعلاج جديد لداء مفاصله. أما القبطان فارتفعت نغمة غنائه، وعلا صوته ثم ضرب بيده نضداً أمامه بشكل نعرف جميعاً أنه يعني به إسكات الحاضرين، فانقطعت الأصوات لساعتها ولم يبق إلا صوت الدكتور، الذي مضى في حديثه كما كان بصوته الرائق اللطيف، ساحباً الدخان من غليونه بكل خفة بين كلمة وأخرى، فحملق القبطان به لحظة ثم ضرب بيده ثانية، وزاد به تحديقاً ثم أفلت قسماً دنيئاً وصاح: «امسكوا ألسنتكم يا هؤلاء».

فسأله الدكتور: «هل كان سيدي يحدثني» ولما أكد له بقسم آخر أن إياه يعني، أجابه الدكتور: «ليس عندي لك يا سيدي غير أن الوجود سوف يرتاح من وغد لئيم قذر إذا استطردت في شرب الروم».

فهب الرجل العتيق على قدميه وهو يكاد ينشق غيظاً ويقطر غضباً، وأخرج مدية ثم هزها ممسكاً إياها براحة يده، وهدد الدكتور بأن يلصقه إلى الحائط بها.

فلم يحرك الدكتور ساكناً، على أنه حدثه بمثل ما كان يحدثه به من قبل من عدم الاكتراث، وبنفس النغمة السابقة بحيث يتسنى لسائر الحاضرين سماعه ولكن بغاية السكون والتؤدة قال: «إذا لم تأخذ

مديتك مكانها من جيبك فإني مقسم بشرفي أنك غير ناج من الشنق في أول محكمة جنايات تعقد».

ثم إن كلا حدج صاحبه بنظرات من الحقد والكراهية، على أن طرف القبطان لم يلبث أن ارتد إليه كليلاً مقهوراً، فطوى مديته وأخذ مكانه من مقعده وجعل يدمدم كالكلب إذا ضرب.

ثم استأنف الدكتور حديثه قائلاً: «أما وقد علمت أن في دائرتي رجلاً مثلك فلتوقن بأني غير مفتر عن مراقبتك صباح مساء. فما أنا بالدكتور فقط على أنني من رجال القضاء أيضاً. فإذا تنسمت رائحة من الشكوى ضدك، ولو بسبب قليل سفاهة من مثل ما حدث الليلة، فلأتخذن من التدابير أشدها لمطاردتك واجتثاث دوحتك من هذا المكان وحسبك هذا وكفى».

وللوقت أحضر الخادم جواد الدكتور إلى باب النزل فامتطاه وسار به. أما القبطان فقد ظل ساكناً في تلك الليلة وما بعدها.

الفصل الثاني

ظهور الكلب الأسود واختفاؤه

لم يطل بنا الوقت عقب ذلك حتى حدثت أولى الحوادث الخفية الغريبة التي خلصتنا من القبطان، ولو أنها لم تنجنا من شؤونه كما سنرى. كان الشتاء شديد القر، دائم الصقيع، قوي العواصف فعرفنا من أول الأمر أن حياة أبي قلما تطول حتى الربيع؛ فكلما مرَّ به يوم زاده ضعفاً وخوراً. وكنت وأمي نقوم منفردين بكل شؤون النزل، التي ملكت علينا مشاعرنا، وحالت بيننا وبين التفكير في ضيفنا الثقيل الظل.

فإذا كان من فجر يوم شديد القر من كانون الثاني وقد علا الملجأ شبهة من الجليد الصاقع، والأمواج تهدر هادئة على الصخور، والشمس ما برحت تحت الأفق، وقد مست خيوط أشعتها قمم التلال، ودبَّ دبيب ضوئها حول مكان بزوغها من البحر، بكر القبطان تبكير الغراب، واستفاق قبيل المعتاد؛ ثم انطلق نحو الشاطئ. يتذبذب سيفه القصير تحت أردان معطفه الأزرق الخَلِق، وقد تأبط مرقبه النحاسي، واستقرت قبعته مائلة على مؤخر رأسه، وانتشرت أنفاسه كالدخان في أثره فوق الطريق الذي اجتازه بخطى واسعة، ثم إنه زنجر زنجرة عالية

السخط والاحتقار، وقد تجاوز الصخرة الضخمة، وكأنما كانت رحى ذهنه ما فتئت دائرة على حديث الدكتور ليفزي، فكانت هذه آخر ما سمعته منه.

هذا وقد كانت أمي في الطريق العلوي مع أبي؛ وبينما أنا أحضّر مائدة الإفطار استعداداً لرجوع القبطان، إذ فُتح باب حجرة الاستقبال وانساب منه رجل مكفأ الوجه سمين، وهو لا عهد لي بطلعته من قبل، وكانت يسراه ينقصها أصبعان، ولو أنه يحمل حساماً، بيد أن مظهره ما كان لينم على أنه من أهل القتال. ولما كنت لا أريم لحظة عن مراقبة البحارة سواء على أحادي الساق منهم وثنائييها، على أن ذلك الرجل غادرني في ليل من الشك في أمره؛ فعلى أنه كان بعيد الشبه عن البحارة: إلا أن مسحة البحر كانت عليه.

سألت الرجل عما يريد شربه، فأجاب: «جرعة من الروم»، وإني ماض لإنفاذ أمر، وإذ به قد جلس إلى نضد وطلب إليّ أن أدنو منه، فجمدت في موضعي وكانت بيدي الفوطة.

فقال: «اقترب إليّ يا بني». ولما طلب أن أدنو منه أيضاً، خطوت نحوه خُطوة، فسألني وقد حدجني بنظرة خبث ودهاء ما إذا كان ذلك النضد الذي جلس عليه هو نفس نضد صاحبه بل Bill.

فأجبته أن لا علم لي بصاحبك بل، على أن هذا النضد إنما هو لامرئ يقيم في النزل اعتدنا أن نسميه القبطان.

فقال: «حسناً يمكنك أن تسمي صاحبي بلاًّ بالقبطان، ويمكنك أن لا تسميه كذلك، والمهم أن بأحد وجنتيه قطعاً، وهو رجل موفور القوة خفيف الروح ولاسيما إذا شرب، فإذا سلمنا جدلاً بأن في وجنة

صاحبك القبطان قطعاً، لنفرض ذلك القطع في صدغه الأيمن، فهل صاحبي بل يقطن هذا النزل؟ فها أنا أفضيت إليك بجملة خبره».

فأجبته بأن صاحبه يتريض خارجاً؛ فسألني بلهفة: «وأي سبيل سلك يا بني؟» ولما أشرت إليه إلى الصخرة، وأفهمته كيف ومتى يغلب أن يرجع صاحبه، وأجبته على بضع أسئلة وجهها إليّ قال: «إن مقابلتي مع صاحبي "بل" سوف تكون أحب إليه من الروم».

ولم تكن أسارير وجهه لتنم عن شيء طيب وهو يقول ذلك، فذهب بي الظن إلى أن الرجل قد أخطأ ولو كان يعني ما يقول. على أن ذلك لم يكن من شأني في شيء على ما اعتقدت، أضف إلى ذلك أنه كان من الصعب عليّ معرفة ماذا يجب أن أفعل. ظل النزيل رابضاً في الحجرة أقرب ما يكون من الباب وهو يتلفت حوله كالقط إذا كمن للجرذ، ولقد حاولت الخروج مرة فصاح بي أن أرجع، ولما وَهِمَ بأني لم أنزل عند طاعته بالسرعة المطلوبة، تمعر وجهه الرهو، وبدت عليه مظاهر الخشونة، وأمرني بالدخول مهدداً، فوثبت من موضعي من غير تردد، ولما دخلت عاد إلى سابق عهده من المداهنة والملق المشوبين بشيء من التهكم، وضربني بلطف على كتفي قائلاً بأني صبي طيب، وبأنه أحبني حباً جماً، وبأن له ابناً يغمر به الصبية أمثالك. ولو أنك أبحرت يوماً تحت إمرة «بل»، لما تريثت حتى يكرر عليك كما فعلت فما كان ذلك ليرضي بلاًّ، أو يرضي أحداً ممن أبحروا معه ثم أردف قائلاً: «ها قد جاء صاحبي «بل» بشر الله صدره لا ريب فيه ولا لُبس يخفيه، وهو يتأبط مرقبه، إلا فلندخل إلى داخل الحجرة ونختبئ خلف الباب حتى نباغت بلا بشر الله صدره إذا هو دخل الحجرة». قال ذلك

ورجع بي القهقرى إلى الحجرة، وجعلني خلفه في الركن بحيث يحجبنا الباب المفتوح. ولقد برح بي الخوف وملكني الرعب كما لا يخفي، وانخلعت شعبة من مهجتي لما تبينته من خوف الرجل نفسه، فقد رفع مقبض حسامه مجرداً نصله من غمده، وظل يزدرد لعابه طول المدة التي احتجبناها، كمن أحس في حلقه بما نسميه علقه في خلقه.

وأخيراً انحدر القبطان إلى داخل الحجرة مقفلاً الباب خلفه بكل عنف، من غير أن يلتفت يمنة ولا يسرة، وقد ولى وجهه شطر المائدة التي عليها طعام إفطاره.

فصاح به الرجل: «يا بل» وقد تصنّع في صوته الشجاعة والشدة. فدار القبطان على عقبيه حتى واجهنا، وغادرته الحمرة وعلت وجهه زرقة سرت حتى إلى أنفه، ولبث في مكانه لحظة أعوزه فيها النطق، وافترس طائر حلمه الدهش والذهول كمن يرى روحاً، أو كمن يقف في حضرة إبليس، أو من هو شر من إبليس إن كان هنالك شر منه.

وإني مقسم بشرفي أنني أسفت جد الأسف، لما رأيته وقد نزل به السقم، وتولاه الهرم في لحظة.

فصاح به صاحبه: «تقدم يا "بل" فإنك تعرفني، ولا شبهة في أنك لا تجهل صديقك القديم».

فقال القبطان متنهداً: «الكلب الأسود».

فرفه عن صاحبنا شيء وقال: «ومن أكون سواه، أجل أنا الكلب الأسود بلا ريب، جئت لأتفقد صاحبي القديم "بل" في نزل أمير البحر بنبو، آه يا بل لقد نزلت بكلينا نائبات الدهر مذ فقدت أصبعي»، قال ذلك ماداً كفه مبتورة الأصبعين.

فصاح به القبطان: «التفت إليّ، ها أنت قد استكشفت مخبأي، وها أنا أمامك فتشجع وارفع صوتك وحدثني بما تريد».

فأجاب الكلب الأسود بقوله: «ها قد عثرت بك يا بل وانك لمحق في طلبك يا صديقي، فاذا حسُن لديك فاني شارب كأس روم من يد هذا الصبي الذي أميل إليه، ثم فلنجلس ونتحدث بصفاء، شأن الأصدقاء القدماء».

وما رجعت بالروم حتى كان قد استقر بكليهما المقام على جانبي مائدة إفطار القبطان، وقد جلس «الكلب الأسود» مراقباً للباب وكان جلوسه بانحراف بحيث تستقر إحدى عينيه على صاحبه وعينه الأخرى على الباب ليحفظ لنفسه خط الرجعة.

وقد أمرني الرجل بالخروج وترك الباب مفتوحاً على مصراعيه وأردف بقوله: «لست يا بني ممن يسترق عليهم من ثقوب الأبواب» فتركتهما سوياً ورجعت إلى المكان الذي تحضر فيه المشروبات.

ولو أني أرهفت السمع طويلاً لألمّ بشيء من جانب الحديث، إلا أنني لم أستطع سماع شيء غير دمدمة خافتة، على أن الأصوات علت في النهاية، فأمكنني استراق لفظ أو لفظين جلها تهديدات من القبطان.

وقد صاح القبطان مرة: «لا لا لا لا نهائياً!» وقال في مرة ثانية: «إذا مست الحاجة لشنقهم فإني أرى شنقهم جميعاً».

ثم أعقب ذلك على حين غرة، انفجار بركان هائل من الأقسام والتهديد ومختلف الأصوات، ثم انقلب الكرسي والنضد مرة واحدة، وسمعت صلصلة أعقبتها صيحة ألم، وللحال لمحت «الكلب الأسود» مولياً الأدبار وقد أطلق لساقيه الريح، والقبطان جاد في أثره، وقد جرد

كلاهما نصل حسامه وتدفق الدم من يسرى كتفي أولهما. ولو لم يكن من اعتراض اللوحة الكبيرة التي عليها اسم النزل، لوصلت الطعنة الأخيرة القاتلة التي حاول القبطان أن يودع بها خصمه المدبر إلى عموده الفقري، حتى إنك لترى أمر تلك الضربة بادياً في أدنى إطار اللوحة إلى يومنا.

وكانت هذه الضربة خاتمة الموقعة. وما إن ظفر «الكلب الأسود» بالوصول إلى الطريق، حتى مرق مروق السهم الراشق، بالرغم من جروحه الدامية، ثم اختفى في بضع ثوان فوق حرف التل.

أما القبطان فقد وقف يقلب الطرف في اللوحة كمن به مس من الجنون، ثم مر بيده فوق عينيه عدة مرات، وانقلب أخيراً إلى داخل النزل، ثم صاح بي: «إليّ بالروم يا جم Jim» وإنه إذ يقول ذلك ترنح قليلاً، ثم أسند نفسه بيده إلى الحائط.

فصحت به: هل مسك سوء؟

فأجاب: «إليّ بالروم، فهذا المكان مزعج، إليّ بالروم!».

فهرعت لإحضار طلبه، على أنني كنت قلق الخاطر مزعوج الجانب من هول ما حدث، فكسرت قدحاً، ولوثت الصنوبر، وإني ماض في سبيلي إذ نزل بسمعي سقوط بصوت شيء بصوت عال على الأرض، ولما انقلبت راجعاً شهدت القبطان ممدداً على أرض الحجرة، وفي الوقت ذاته ذعرت أمي من الصيحات وصوت القتال فانحدرت مسرعة بالنزول لنجدتي، ثم تعاونا فيما بيننا على رفع رأس الرجل، وكان يتنفس بصعوبة زائدة، وصوت عال، كما كانت عيناه مقفلتين، ولون وجهه مخيفاً.

فقالت أمي: «ويلاه! ياالهول هذا العار على النزول، وأبوك المسكين طريح الفراش».

وتملكنا الاعتقاد ساعتئذٍ بأن القبطان لقي حتفه في قتاله مع الرجل المجهول، فلم نفكر مطلقاً في إسعافه، وقد أحضرت الروم فعلاً وحاولت أن أدفع به إلى حلقه، على أن أسنانه كانت محكمة الاتصال، كما أن فكيه كانتا كالحديد، بيد أنه رفه علينا عندما فتح الباب ودخل الدكتور ليفزي ليعود أبي. فصحنا به: «ما العمل، وأين جرح الرجل؟».

فأجاب الدكتور مستغرباً: «تقولان جرح؟ حديث خرافة، لم يصب الرجل بسوء إلا بقدر ما أصيب أحدنا، إن هذه هي النزلة التي حذرته منها».

والآن ارجعي إلى زوجك يا سيدتي، وتجنبي ما استطعت أن تحدثيه بشيء مما حدث. «أما أنا فسأجتهد في إنقاذ حياة هذا الرجل التافه التي لا تساوي قمامة، "جيم" إلي بإناء».

ولما رجعت بالإناء كان الطبيب قد شق ردن القبطان وكشف عن ذراعه القوي، وكان موشوماً في عدة أماكن بعبارات مثل «هنا الحظ»، «هواء موافق»، «بلي بونز حبيبي» وكلها موشومة وشماً دقيقاً ظاهراً على ساعده، وإلى جوار الكتف رسم مشنقة علق منها رجل وقد رسم هذا الوشم على ما أعتقد بمهارة فائقة وتناسب عجيب.

فقال الطبيب وقد مس الصورة بيده: «يا لها من نبوة، والآن يا عم «بلي بونز» إذا كان هذا اسمك سنرى ماذا يكون من لون دمك»، ثم سألني ما إذا كنت أخاف من الدم فأجبته سلباً، فقال: «حسن إذاً

امسك الحوض»؛ ثم شق بمشرطه وريداً، فتدفق منه دم كثير قبل أن يفتح القبطان عينيه، وينظر حوله مرتاباً. فوقع بصره على الطبيب أولاً، فحوّله عابساً، ثم وقع بصره علي فرُفه عنه، على أن لونه تغيّر فجأة ثم حاول النهوض وهو يقول: «أين الكلب الأسود؟».

فأجابه الطبيب: «إن لا كلاب سوداء عندنا غيرك، لقد أفرطت يا هذا من شرب الروم فأصابتك نوبة كما أفهمتك تماماً، ولقد انتشلتك على كُره مني من بين براثن الهلاك، والآن ما قولك يا مستر بونز».

فقاطعه بقوله: «ليس هذا اسمي».

«لا بأس، إنه اسم قرصان أعرفه وإني مسميك به على سبيل الاختصار، وكل ما أقوله لك إن كأساً من الروم لا يقتلك إلا إذا جرعت كأساً أردفته بثان وثالث، وإني مراهنك بأنك إن لم تضع للمسالة حداً، فإنك لا محالة هالك، هل فهمت ما أقول؟ إنك تموت وتذهب إلى مثواك الأبدي كالرجل الذي جاء ذكره في التوراة. وإني مساعدك هذه المرة فقط على الوصول إلى فراشك».

ولقد أمكننا بصعوبة أن نصمد به فيما بيننا، ونطرحه على فراشه حيث سقطت رأسه على الوسادة كأنه ما زال غائباً عن رشده.

وهنا صاح به الدكتور قائلاً: «إني مريح ضميري من جهتك فتأكد بأن الروم فيه هلاكك». قال ذلك وذهب لعيادة أبي وقد جذبني من ذراعي بصحبته.

ولما أقفل الباب قال إن المسألة ليست بذات خطر، وإنه قد سحب من دمه ما يكفي لحبسه مدة أسبوع في الفراش حيث هو، وهذا خير الأمور لكليكما، على أن نوبة ثانية لا بد مودية بحياته.

الفصل الثالث

الرقعة السوداء

وقفت بباب القبطان ساعة الظهر أحمل إليه بعض المرطبات والعقاقير، وقد كان مسجى كما تركناه مع تحسن قليل في حالته الصحية، وقد ظهرت عليه علائم الضعف والغضب.

ثم خاطبني بقوله: «أنت خير أهل هذا المكان يا جيم، ولا أحسبك تنسى ما كان من دوام عطفي عليك، فما انسلخ هلال لم انفحك فيه بقطعتك الفضية، أما وقد أصبحت يا صاح سيئ الحال، منقطعاً عن الإخوان، فإني متوسل إليك يا جيم أن توافيني بجرعة من الروم، ولا أخالك ممسكاً عني ما طلبت».

فأجبته: «إن ذلك مناقض لأمر الدكتور؟».

إلا أنه قاطعني لاعناً الدكتور بصوت خافت ولكن من صميم فؤاده قائلاً: «إن الأطباء جميعاً لأغرار، ثم ماذا يدري ذلك الطيب الذميم من شان رجال البحر؟».

«لقد هبطت دياراً حرها كالزفت الحارق، حيث كان يتساقط من حولي المرضى تصرعهم الحمى الصفراء، والأرض المباركة تخفق تحت قدمي كالبحر الزاخر، فكان الروم في وسط هذه الأهوال طعامي وشرابي، وزوجي وولدي، فماذا يدري طبيبك من أخبار أمثال هذه الديار؟».

«ألا ثق يا جيم بأني لا أحظى الآن بنصيبي من الروم، فإني

ممسي كالمركب المهشم الذي لا صاري لـه علـى الشاطئ المستهدف للريح، وسيكون دمي على رأسك وعلى رأس طبيبك اللعين»، وقذف ما فيه من اللعنات كما فعل بالسابق، ثم مضى في توسله قائلاً: «ألا ترى يا جيم كيف ترتعش أصابعي، فقد أصبحت من العجز بحيث لم أعد أستطيع منعها من الحركة، إذ لم أذق قطرة واحدة في هذا اليوم المبارك».

«وإنـي مؤكد لك بأن طبيبك هذا لا يفقه حديثاً، فإذا لم أظفر بجرعة من الروم يا جيم فستعود إلـيّ المخاوف التـي شهدت بعضها الآن؛ فقد تخيلت فلنتا الهرم خلفك فـي ذلك الـركن، ورأيته واضحاً كالشمس، وإني رجل تقلبتُ في أحضان الخشونة، فلا آمن إذا نزل بي الروع أن أصبح مؤذياً شديد الخطر».

«ومع ذلك فقد قال طبيبك بفمه إن لا حرج علـيّ إذا شربت كأساً واحدة، بيد إنني معطيك ليرة ذهبية ثمناً لجرعة واحدة يا جيم».

وقد كان يزداد هياجاً كلما زاد حديثاً، فأشفقت أن يلم من جراء ذلك، ولاسيما وقد كان متأخراً جداً في ذلك اليوم وكان أشد ما يكون حاجة إلى السكون الشامل؛ أضف إلى ذلك ما كان من اقتناعي بما استشهد به الرجل من حديث الطبيب «إن كأساً واحدة لا تقتله» واستيائي من تجرئه على جرح إحساسي بعرضه الرشوة علـيّ.

فأجبته: «إن لا حاجة بي إلى شيء من نقودك، اللهم إلا ما أنت مدين به لأبي، وإني موافيك بكأس لا أثنيه».

وما إن قدمته إليه حتى تلقفه مني بلهفة زائدة ثم دفع به إلى حلقه وقال: «بلى، بلى لا شك إني الآن خير من قبل والآن يا صاح، هل حدثك الطبيب بما يكون من مدة رقادي على هذا الفراش الرث؟».

فأجبته: «أسبوع على الأقل».

فقال: «يا للهول أسبوع! لن أقدر على ذلك فإنهم لا محالة باعثون إليّ برقعة التهديد السوداء إذا أنا مكثت هذا القدر، فإن الكلاب يقطعون المراحل ويسابقون المسافات لتتسم رائحتي».

«لقد أعجز اللئام صيانة ما ظفروا به فهم يبغون التهام مال غيرهم. فهل يجدر هذا الخلق برجال البحر؟ أجبني بربك».

«أما أنا فرجل مقتصد، ما كنت لأعبث بمالي الحلال، أو أضيعه في غير وجوهه، ولسوف أضللهم مرة ثانية فمثلي لا يهاب مثلها، ولأقلعن على جناح السرعة، وانجونّ من شباكهم مرة أخرى».

ثم هبّ من فراشه بكل صعوبة وهو ماض في حديثه وقد قبض على كتفي قبضة كدت أصرخ من شدتها وكان يحرك قدميه كأنهما حمل ثقيل. وكانت ألفاظه مملوءة شجاعة وحماسةً كأنه يعنيها. وقد أكسبها ضعف صوته شيئاً من رنة الحزن.

ثم جلس عندما استقر به مكانه على حافة الفراش وقال: «اقتتلني ذلك الدكتور قاتله الله، فإن أذنيّ تطنان، ساعدني لأرقد» وقبل أن أتم مساعدته كان قد انقلب إلى مكانه الأول حيث استلقى ساكناً برهة من الزمن.

ثم فتح فاه أخيراً وقال: «هل رأيت ذلك البحار اليوم يا جيم؟».

فسألته ما إذا كان يعني الكلب الأسود.

فقال: «إياه أعني يا بني، إنه لرجل شرير، ولكن اليد التي تحركه هي أشر منه».

«والآن إذا صعبت عليّ الحركة بأي حال، ثم أعطوني الرقعة

السوداء فاعلم إنهم إنما ينشدون خزنة البحر العتيقة، فلا أحسبك تعجز عن نقلها على جواد؟ احملها على جواد واذهب بها..أجل لا بأس اذهب بها إلى شخص ذلك الدكتور الذي لا يفتر عن ملازمتنا، ثم التمس إليه أن يدعو كل القضاة والحكام ويجمعهم في نزل أمير البحر بنبو حيث يظفر بكل الباقين من أتباع القرصان فلنت Flint كبيرهم وصغيرهم».

«لقد كنت الأول بعد فلنت، وإني الرجل الوحيد الذي يعرف مكان الكنز.. أعطاني إياها في النزع الأخير وهو يحتضر كما أنا الآن. ولكن حذار من أن تفضي إلى الدكتور بالأمر قبل أن يسلموني الرقعة السوداء، أو قبل أن ترى الكلب الأسود مرة أخرى، أو البحار الأحادي الساق، وهذا الأخير يا جيم هو شر الجميع».

فسألته: «وما تكون الرقعة السوداء يا كابتن؟».

فقال: «إنها إقرار رسمي بطلبي، وسأخبرك إذا أحضروها ولكن كن دائم الالتفات والحذر يا جيم، وإني مقسم لك بشرفي إني مشاطرك كنزي مناصفة». ثم جعل يهرف قليلاً، وقد أخذ صوته في الخفوت. على أنني ما كدت أناوله الدواء حتى شربه كالطفل وهو يقول: «لئن صح أن يحتاج أحد رجال البحر إلى العقاقير فلأكون أنا ذلك الرجل» ثم تركته وقد استغرق في نوم عميق شبيه بالإغماء.

ووقعت في حيرة من أمري ولم أعد أدري كيف أتابع المشوار.

وقد تملكني الخوف القاتل خشية أن يندم الرجل على ما أفضى به إليّ من سره، فيعمد إلى التفريق بيني وبين الحياة، ولذلك فربما كان من الواجب أن أبوح للدكتور بكل ما جرى. على أن ما دهمنا من الصدمة لوفاة أبي فجأة في ذلك المساء، ملك علينا مشاعرنا وحال

بيننا وبين كل مشاغلنا. فقد غادرني كربنا الحالي، وزيارات الجيران، ومهمات الدفن، والقيام بأعمال النزل في وقت واحد، بمنزلة من الارتباك بحيث لا أجد متسعاً من الوقت لأن أفكر في القبطان فضلاً عن خوفي من بطشه.

ولقد نزل وتناول طعام إفطاره في صباح اليوم التالي، إلا أنه أكل قليلاً وشرب فوق حاجته من الروم، حيث كان يجهزه بنفسه من المستودع وهو مقطب الوجه غضوب، ينفخ من أنفه من غير أن يجسر أحد على اعتراض سبيله. وقد كان أشد ما يكون سكراً في الليلة السابقة للدفن، فكان سماعه وهو يغني أغنيته البحرية القبيحة مجلبة للاستنكار والاستهجان في هذا البيت الحزين. على أن ضعف الرجل الشديد جعلنا نشفق عليه من أن يلقى حتفه، لاسيما وقد كان الدكتور يعود مريضاً على مسافة بعيدة، ولم يمر على مقربة من منزلنا مذ توفي أبي.

قلت إن القبطان كان ضعيفاً، والواقع أنه كان يزداد في كل يوم خوراً، بدلاً من أن يستعيد من صحته شيئاً. وقد كان يصعد الدرج وينزلها بصعوبة، ثم يذهب من حجرة الاستقبال إلى البار ثم ينقلب راجعاً، كما كان يستند إلى الجدران ابتغاء الوقوف بالباب لحظة لاستنشاق هواء البحر، على أنه كان إذ ذاك يتنفس بسرعة وصعوبة كالواقف فوق قمة جبل سحيق.

وإني لأعتقد بأنه قد نسي ما كان من ثقته بي، على أنه كان طائش الغضب سريعه، حتى إننا إذا اعتبرنا ضعفه الجسماني، الفيناه أشد خطراً من قبل.

وكان إذا ثمل جرد سيفه من غمده ووضعه على النضد عاري

النصل، ولكنه ما كان رغماً عن ذلك كله ليلتفت لأحد، والظاهر أنه كان دائم التفكير شارد العقل. وقد تملكتنا الدهشة ساعة سمعناه مرة يغير نغمته المعهودة مغنياً أغنية حب قروية يظهر أنه تعلمها قبيل أن يغدو من رجال البحر.

وقد جرت الأمور في سيرها الطبيعي حتى كان من أصيل اليوم الذي أعقب الدفن حوالي الساعة الثالثة. وكان يوم شديد القر، كثير الضباب، جم الصقيع. وكنت قد وقفت بالباب لحظة وقد ساورتني هواجس من الهم لفقداني أبي، وإذا لمحت كائناً واضح العشى يدرج في الطريق متئداً على مقربة مني وهو يتلمس السبيل أمامه بهراوة كان يحملها، وقد اكتنف عينيه وأنفه ظل أزرق كبير، وتقوس ظهره لِهرم أو ضعف، وقدر ائتزر بمعطف بحري بال ذي غطاء للرأس جعله بادي القبح، ظاهر التشويه، إذ لم أجبه في حياتي بمثل هذا الوجه الفظيع.

وقف الرجل على كثب من النزل رافعاً عقيرته بنغمة غريبة كأنه يخاطب الهواء أمامه قائلاً: «هل من رجل رحيم يرشد بائساً كفيفاً فقد بصره في الذود عن حياض وطنه إنجلترا، وليحيا الملك جورج، في أي مكان من هذه القرية هو؟» فأجبته: «إنك يا سيدي عند نزل أمير البحر بنبو على ملجأ من التل الأسود».

فقال: «أسمع صوتاً غضاً، فهل لك أن تمد يدك إليّ أيها الصديق الصغير الشفوق لتقودني إلى داخل النزل؟».

وما إن مددت يدي لذلك الكفيف المراوغ الفظيع حتى ضغطها في قبضته كأنها مشد لولبي.

فتملكني من الهول ما التمست معه الفكاك من قبضته، ولكن

الأعمى جذبني إليه بحركة من ذراعه وقال: «الآن يا حبيبي لا مندوحة لك عن أن تقودني إلى القبطان».

فأجبته: «إني مقسم لك يا سيدي بأني لا أجسر».

فقال متهكماً: «هل هذا كل ما في الأمر؟ ألا تأخذني إليه إلا إذا كسرت ذراعك». ثم ثنى ذراعي ثنية جعلتني أصرخ عالياً.

فقلت: «إنما أشفق عليك يا سيدي، فإن القبطان قد تغير كلُ التغيير، فهو يجلس مجرد الحسام، حيث اتفق أن شخصاً قبلك..».

فقاطعني مشوشاً، ولم أسمع صوتاً أقسى ولا أبرد ولا أقبح من صوت ذلك الأعمى، فكان ما حل بي من الرعب لسماع ذلك الصوت شراً مما نزل بي من الألم. فبدأت أصدع من أمره، وقدته لساعتي داخل النزل واجتزت به حجرة الاستقبال إلى حيث جلس القرصان المريض الهرم، فاقد الحواس من كثرة ما شرب من الروم، ولقد التصق بي ذلك الأعمى الذميم وأمسكني بقبضته الحديدية، وحمَّلني من ثقل جسمه فوق ما أطيق أن أحمل. ثم أمرني قائلاً: «قدني تواً إلى القبطان فإذا أصبحت على مرأى منه فصح به إني أحد أصدقائك يا بل؛ فإذا لم تصح فإني فاعل هكذا»، قال ذلك وجذب ذراعي بقوة كادت تصرعني فاقد الرشد، فأصبحت بمنزلة من الهول والألم بحيث أنساني خوف ذلك الأعمى ما كنت أخشاه من بأس القبطان، فما إن فتحت باب الحجرة حتى رددت الكلمات التي لقنني إياها الأعمى بصوت متهدج.

رفع القبطان المسكين بصره، وما هي إلا نظرة واحدة حتى زال عن رأسه ما عساه أن يكون قد علق به من أثر الروم. فرجع إليه كامل عقله وظل يحدق بصاحبه، ولم تكن علائم وجهه لتنم عن

خوفه، بقدر ما كانت تنطق بتأثير مرضه القاتل. فحاول النهوض على أنني ارتبت في أن يكون له من القوة ما يسمح له بذلك.

فصاح به السائل الكفيف: «مكانك يا بل، فإني وإن كنت لا أبصر على إنني أسمع أصبعاً يتحرك. الواجب هو الواجب، فأمدد يدك اليمنى يا صاح، وأنت يا صبي أمسك معصم يمناه وقربها إلى يمناي» فصدع كلانا بأمره حرفياً وعندئذٍ شهدته يمرِّر شيئاً من راحة يده التي تحمل هراوته إلى راحة القبطان، ثم قال: «الآن قد انتهى» وانقلب من الحجرة إلى الطريق مسرعاً بفراسة يكاد يدفعها العقل، وقد كنت أسمع طرقات هراوته على بعد وأنا جامد في موضعي. وقد مضت مدة قبل أن يقوى أحدنا على ملك حواسه، وما إن هممت أخيراً بترك معصم القبطان حتى جذب هو أيضاً ذراعه وجعل يحدق في راحة يده.

ثم صاح قائلاً: «الساعة العاشرة! في الوقت بعد متسع للنجاة». قال ذلك وهب على قدميه.

وقد ترنح عندئذٍ ووضع يده على حلقه، ثم تمايل دقيقة وعند ذلك سقط من طوله على وجهه بصوت غريب.

فعدوت نحوه لساعتي وصحت بأمي، على أن كل إسراعنا لنجدته لم يسعفه بشيء، فقد أصيب بسكتة شديدة. وما كدت أرى الرجل ميتاً أمامي حتى انهمرت مقلتاي بالدموع، ولقد أعجزني إدراك مأتى تلك العاطفة، حيث كنت لا أحب الرجل مطلقاً، ولو أنني رثيت لحالته في المدة الأخيرة؛ ولكن أثر وفاة أبي كان لا يزال جديداً في صدري فكانت هذه ثاني ميتة عرفتها.

الفصل الرابع

خزنة البحر

وبالطبع لم أتردد في إخبار أمي ما عرفت، وقد كان خليقاً بي أن أخبرها بذلك من قبل، بيد أننا عرفنا لساعتنا ما كان من فرط حرج مأزقنا، فقد كانت بعض نقود الرجل – إن كان يملك شيئاً – هي ملك لنا، ولكنا لم نكن لنتوقع أن يمسك أصحاب القبطان عن الظفر بغنيمتهم في سبيل وفاء ديون صاحبهم، وقد رأينا من نماذجهم الكلب الأسود والسائل الكفيف. فإذا نفذت وصية القبطان بأن اتجهت تواً إلى الطبيب، تحتم عليّ أن أدع أمي وحيدة، وبالطبع ما كنت لأفكر في ذلك. ولا مشاحنة في أنه كان من المتعذر على كلينا أن نطيل البقاء في النزل، ذلك لأن الخوف كان قد حفز أحشاءنا حفزاً، فكانت لا تسقط قطعة فحم في موقد المطبخ إلا سقطت معها قطعة من مهجنا، ولا تدق ساعة الحائط إلا دقت لها حبات قلوبنا، وكأنما قد امتلأت الجهات من حولنا بوقع الأقدام. وكنت بين جثة القبطان الميت، وبين تزاحم أفكاري باقتراب ذلك السائل الكفيف الشنيع، أقضي دقائق من الهول والرعب كنت فيها على ما جاء في سائر الأمثال أقفز في جلدي.

وكان لا بد لنا من الإسراع بالبت في مصيرنا، فرأينا أخيراً أن نولي وجوهنا شطر الدسكرة المجاورة لنلتمس لأنفسنا النجدة من أهلها، وما إن حلت بنا تلك الفكرة حتى ألقينا فيها عصا التيسير، فمضينا

لساعتنا نحو القرية عراة الرؤوس وسط الضباب البارد، وكان الظلام قد بدأ يمد على الأرض رواقاً يقصر فيه قاب العين.

ولم تكن الدسكرة لتبعد بضع مئات من الأقدام، على أنها كانت محجوبة عن بصرنا على الجانب الآخر من الملجأ المصاقب. وكان أكبر مشجع لي على استئناف الإسراع في الخطى ظهور الأعمى واختفاؤه في وجهة مضادة للتي ذهبنا فيها، ولم نمض في سبيلنا بضع دقائق حتى كنا نجمد في مواضعنا لحظة، ممسكين ببعضنا لننصت، على أنه لم يكن هنالك صوت غير عادي، ولم يكن ثمة شيء خلا خرير الأمواج ونعيب الغربان في مكتظ الغابة.

وقد خيم الغسق ساعة هبطنا القرية، ولا تسل عن فرط جذلي عندما شهدت الأضواء الخافتة داخل الأبواب والنوافذ، على أن مرأى تلك الأنوار كان كل ما أفدنا من ذلك الربع. ذلك أنه لم يكن ثمة رجل بين القوم تدفعه مروءته للعودة معنا إلى النزل، فحق لهم أن يُخجلهم من أنفسهم ذلك الجبن وهذا الخوف. وكانوا كلما زدناهم بياناً لبؤس حالنا، زادوا استمساكاً بظلال دورهم، سواء في ذلك رجالهم والنساء والأطفال. فكانت فرائصهم ترتعد لمجرد ذكر اسم الكابتن فلنت(*) الذي وإن كنت لا أدري من شأنه شيئاً، على أنه كان معروفاً لديهم حق المعرفة. ولقد ذهب بعض المزارعين الذين رجعوا من فلاحة حقولهم، إلى أنهم رأوا غرباء في الطريق فظنوهم يهربون بضائع من الجمرك، وقد رأى واحد أو أكثر مركباً صغيراً ذا ثلاث صواري، عند المكان الذي نسميه كتس هول Kitts Hole. ولذلك فقد كان القوم لا يخافون

---

* اشتهر الكابتن كونه من أكبر قراصنة البحر الإنكليز. - (المترجم).

من شيء خوفهم من ذكر كل ما يَمُتُ لذلك الكابتن بسبب. وقصارى القول إننا ما كدنا نظفر ببعض أفراد ممن رضوا بالانطلاق للاستنجاد بالدكتور، حتى لم نجد فرداً واحداً يرضى بمرافقتنا للدفاع عن النزل.

وكما يقال إن الجبن معد، فإن الجدال والمناقشة يورثان الإنسان شجاعة وإقداماً من الجهة الأخرى، وبيان ذلك أنه لما تحدث كل بما عنده من الأراجيف والمثبطات خطبت أمي في القوم قائلة: «إني لن أترخص في ترك نقود مال ابني اليتيم فإذا لم يجسر أحد منكم على مواجهة ذلك الخطر فأنا وجيم سنواجهه ولسوف نرجع من حيث أتينا، فشكراً يسيراً لكم أيها الرجال ذوو القلوب التي تحاكي قلوب صغار الدجاج، وأصحاب الأجسام الكبيرة والجثث الضخمة الجامدة. أما نحن فلسوف نفتح خزنة الرجل ولو كان في ذلك تلاف أرواحنا».

«ولأكون شاكرة إذا تكرمت يا سيدة كرسلي Crossley بأن تعيرينني هذه الحقيبة لأضع فيها النقود التي هي إرثنا الشرعي».

ولا مشاحة في أني قلت إني ذاهب برفقة أمي، وبالضرورة استنكر القوم طيشنا وحمقنا. على أنه حتى في تلك اللحظة لم ينشط من الرجال أحد للرجوع معنا. وكان كل ما استطاعوا عمله أن أمدونا بمسدسين محشوين مخافة أن نُهاجم في الطريق، واعدين بأن يعدوا جياداً مسرجة، إذا طوردنا ونحن راجعون، بينما ركب صبي وذهب إلى الدكتور يلتمس قوة مسلحة.

وقد جعل قلبي يدق بهدوء عندما سار كلانا تحت ستار ذلك الليل البارد في سبيلنا إلى تلك المجازفة الخطرة. وكان البدر قد بدأ في الظهور مطلاً من بين أطراف الضباب العالية بلون مشرب بالحمرة،

فضاعفنا من سرعتنا حيث كان من الواضح أنا لا نكاد ننقلب راجعين حتى تكون كتائب الليل قد انهزمت أمام ضوء القمر المتزايد، فنغدو هدفاً لأبصار مراقبينا. فانسللنا بجانب الأسوار مسرعين، وقد أخرسنا أصوات أقدامنا على أنه لم يطرق سمعنا صوت يزيد مخاوفنا، حتى إذا بلغنا نزل أمير البحر بنبو سُري عنا عندما دخلنا وأوصدنا الباب خلفنا.

وما استقرت بنا الأقدام في فناء الدار حتى زلفت مصراع الباب، فوقفنا لحظة نلهث في الظلام منفردين مع جثة القبطان، ثم أحضرت أمي مصباحاً من البار.

وبعد ذلك دخلنا حجرة الاستقبال وقد أمسك كل منا بيد الآخر، فوجدنا القبطان حيث تركناه، وهو مسجى على ظهره مفتوح العينين ماداً إحدى ذراعيه.

وقد همست بي أمي أن «أسدل الستار فقد يرقبوننا من الخارج» ولما فاهت بأمرها قالت: «بقي علينا أن نظفر بالمفتاح، وإني أريد أن أعرف من ذا الذي يجرؤ على منازعتنا فيه» قالت ذلك واختنق صوتها بالبكاء.

جثمت على ركبتي لساعتي، فالفيت على أرض الحجرة إلى جواريد القبطان، ورقة مستديرة، سُوّد أحد وجهيها، فلم يداخلني ريب في أنها الرقعة السوداء، ولما التقطتها وجدت على أحد وجهيها، كتابة جميلة واضحة تضمنت الرسالة التالية:

«أمامك حتى العاشرة من مساء الليلة».

فقلت لقد أمهل القوم صاحبهم حتى العاشرة من هذه الليلة يا أماه؛ وإني أقول ذلك إذ دقت ساعتنا القديمة، وبالرغم من أن هذه

الحركة غير المنتظرة قد أفزعتنا أيما فزع، إلا أنها أفضت إلينا بنبأ سار وذلك أنها كانت بعد السادسة.

فقالت أمي: «والآن يا جيم إليّ بذلك المفتاح».

ففتشت جيوب الرجل تباعاً، فوجدت بعض نقود ضئيلة القيمة وكشتبان للخياطة وبعض خيوط، وإبر كبيرة، وقطعة من دخان المضغ وقد قضم طرفها ومدية ذات مقبض مقوس، وبيت إبرة للجيب وعلبة صوفان؛ وكان ذلك كل ما فيها حتى إنني كدت أحس بدبيب اليأس يتطرق إلى نفسي، فارتأت أمي أنه «قد يكون مربوطاً إلى عنقه».

فغالبت ما أصابني من الاشمئزاز، ثم فتحت صدر قميصه حول عنقه وهنالك وجدته معلقاً بحبل مطلي بالقطران، فقطعته، بمديته، وبذلك ظفرت بالمفتاح. ولقد ملأنا هذا النصر أملاً ورجاءً، فهرعنا على عجل إلى الدور الأعلى ويممنا شطر الغرفة التي كان يأوي إليها مدة وجوده في النزل، والتي ظل صندوقه فيها مذ هبط الدار.

وكان كغيره من حقائب البحارة، قد وُسم على ظاهره بالحديد المحمي الحرف الأول من اسم صاحبه «ب» وكانت زواياه مهشمة من خشونة الاستعمال وكثرته على ما أظن.

فصاحت بي أمي: «أعطني المفتاح» وما إن أخذته حتى فتحت غطاءه في طرفة عين بالرغم من أن القفل كان شديداً عاصياً، فانبعثت من داخله رائحة نفاذة من الطباق والقطران، على أننا لم نشهد في ظاهره غير بذلة من أجود الأقمشة قد اعتنى بطيها وبتنظيفها. فقالت أمي: «لم تُلبس هذه البدلة قط» وما إن رفعناها حتى ظهرت تحتها أخلاط متباينة الأنواع؛ فمن مذولة إلى طاس

صغير من الزنك إلى عدة أعواد من الطباق، إلى زوجين من أبدع أنواع المسدسات، ثم قطعة من الفضة، لساعة إسبانية قديمة، وطائفة من الحلي ضئيلة القيمة وجلها من صنع الخارج، وبيتا إبرة مركبتان على نحاس أصفر، وخمس أو ست صدفات عجيبة من جزائر الهند؛ ولطالما فكرت داهشاً عن سبب حمله لهذه الصدفات في حياته الدائمة الوحشة المملوءة بالجرائم.

ولم نجد في غضون ذلك شيئاً ذا قيمة باستثناء الفضة وقطع الحلي والطاسات، وما ابتغينا من ذلك شيئاً. وكانت تحت هذه عباءة مركب قديم بيَّضه ما تراكم عليه من الملح في حانات المرافئ المختلفة. فجذبت أمي تلك العباءة بصبر ذاهب، وهنالك رأينا حزمة مصرورة في قطعة من المشمع يظهر أنها بعض أوراق، وحقيبة من الخيش لم نكد نلمسها حتى سمعنا ما بداخلها من رنين الذهب.

فقالت أمي: «إني مبرهنة لأولئك النصابين أني سيدة أمينة فسآخذ حقي من غير أن أطمع في شيء ما» ثم أمرتني أن أرفع حقيبة السيدة كرسلي، وبدأت تعد من حقيبة القبطان مقدار مالنا عليه من النقود وتضعها في الحقيبة التي بيدي. ولقد كان العمل طويلاً شاقاً، حيث كانت النقود مشكلة الأحجام مختلفة الأوطان، فمن جنيهات إسبانيولية قديمة إلى قطع فرنسية من ذات العشرين فرنكاً إلى جنيهات إنكليزية إلى قطع من العملة الإسبانية، إلى غير ما هنالك مما لم أوفق لمعرفته وكلها مختلطة مع بعضها البعض. أضف إلى ذلك أن الجنيهات الإنكليزية كانت أقل تلك الأنواع، وكانت أمي لا تعرف أن تحسب إلا بها.

ونحن في منتصف عملنا، وضعت يدي على ذراعها فجأة،

وذلك لأني سمعت في الهواء الساكن البارد، صوتاً انخلعت له شعبة من مهجتي، وما ذلك إلا صوت دقات عصا الأعمى وهو يتلمس طريقه الذي غمره الجليد. وكان الصوت يزداد اقتراباً وقد جلسنا ممسكين أنفاسنا، ثم سمعنا طرقات عنيفة فوق باب النزل، وطرق سمعنا صوت إدارة مقبض الباب، وجلجلة المزلاج، بينما اللعين يحاول الدخول؛ ثم أعقب ذلك فترة طويلة من السكون خارجاً وداخلاً، وبعدئذ عدنا إلى سماع طرقات عصا الأعمى، وقد كانت تخفت شيئاً فشيئاً حتى أصبحنا لا نسمعها، فكان فرحنا وشكراننا لا يوصفان.

فصحت بها: «أماه دعيني بربك آخذ كل النقود، ثم فلنمض ونترك هذا المكان»، حيث كنت موقناً بأن الكفيف لا بد أن تكون قد داخلته خلجات من الشك في أمر الباب الموصد، وأنه لا ينفك أن يحمل علينا سائر رفاقه. فيوقعون بنا شر إيقاع. ومع ذلك فقد كان شكري بسبب إيصادي الباب لا يكاد يدرك كنهه إلا من شهد ذلك الكفيف الفظيع.

على أن أمي ما كانت لترضى بأخذ درهم واحد أكثر من حقها، رغماً من شدة ما نزل بها من الروع والجزع، كما أصرت كل الاصرار ألا تنثني أو تظفر بذلك الحق كاملاً من غير نقص. ثم قالت إن الساعة لم تشرف بعد على السابعة، بيد أنها عرفت حقوقها بعد زمن طويل وأخذتها. وبينما كانت لا تزال تناقشني، إذ سمعنا صفيراً خافتاً على كثب منا فوق التل، كان فيه الكفاية لكلينا.

فقالت: «سآخذ ما عندي» وانتصبت قائمة على قدميها.

وأعقبتها بقولي: «سآخذ أنا أيضاً هذه اللفافة من المشمع لضبط الحساب».

وفي لحظة كنا نتلمس طريقنا على الدرج تاركين المصباح إلى جوار الصندوق الفارغ، وفي اللحظة التالية كنا قد فتحنا الباب لائذين بالفرار. فكان خروجنا في اللحظة الأخيرة، وكان الضباب ينقشع بسرعة، وما إن أطل القمر على جانبي الأرض العالية، لم يكن ثمة ظل في غير دائرة باب النزل حيث كان لا يزال ستار صفيق لم يشق بعد لينم عن أول خطوات فرارنا، كان لا بد لنا من أن ندخل تحت ضوء القمر قبيل منتصف الطريق إلى الدسكرة بكثير، خلف سفح التل، ولم يكن هذا كل ما في الأمر، على أنه طرق سمعنا صوت وقع أقدام مسرعة، ولما التفتنا خلفنا شهدنا ضوءاً متذبذباً يتقدم نحونا بسرعة، فعرفنا بأن أحد القادمين يحمل مصباحاً.

فصاحت بي أمي: «خذ النقود يا بني وأسرع بالعدو، فإني مشرفة على الإغماء». وكانت هذه بالضرورة آخرة كلينا. ولكم لعنت جبن الجيران، وكم أنحيت باللائمة على أمي المسكينة من أجل أمانتها وجشعها، وماضي مجازفتها وقهورها، وحاضر ضعفها وخورها. وكنا لحسن الحظ قد أشرفنا على أول الجسر الصغير، فساعدتها بالرغم من هلعها على العبور إلى الشاطئ الثاني حيث لم تلبث أن تنهدت وخرت على كتفي فاقدة الرشد. فحاولت أن أسحبها إلى أدنى الساحل على مسافة من القوس. ولست أدري كيف أوتيت القدرة على ذلك، وإني مشفق أن أكون ما ترفقت فيما عملت، بيد أني لم أستطع بعد ذلك أن أحركها قيد أنملة. حيث كان الجسر واطئاً جداً بحيث لم أتمكن إلا أن أزحف تحته، وكان لا بد لنا من البقاء حيث نحن، فكانت أمي تكاد تكون مكشوفة للنظر تماماً، وكان كلانا على مدى السمع من النزل.

الفصل الخامس

مصرع الكفيف

كانت رغبتي في استطلاع خبر القادمين أقوى من خوفي منهم، فلم أستطع صبراً على البقاء حيث كنت بل زحفت إلى الشاطئ ثانيةً والتمست لنفسي كنف شجرة كثيرة الفروع فلذت بظلها بحيث يمكنني أن أرقب الطريق أمام باب النزل.

وما كاد المكان يحتويني حتى تقاطر سبعة أو ثمانية من أعدائنا وهم يركضون في الطريق سراعاً؛ يتقدمهم ببضع خطوات من يحمل المشعل. وكان ثلاثة من القوم يركضون وقد أمسك كل بيد صاحبه فأمكنني أن أميز أوسطهم برغم الضباب، وقد كان ذلك السائل الكفيف، وما إن سمعت صوته حتى أيقنت بصحة حدثي، حيث صاح بهم: «اكسروا الباب». فأجابه اثنان أو ثلاثة: «أمرك سيدي» ثم هاجموا باب النزل يتبعهم حامل الضوء، بيد أنني رأيتهم يتريثون هنيهة وقد خفتت أصواتهم شيئاً، وكأنما أدهشتهم أن يجدوا باب النزل مفتوحاً. على أن أمد ذلك لم يطل لأن الكفيف لم يلبث أن عاد إلى إصدار أوامره، فرن صوته عالياً كأنما قد أكل الحماس والغيظ حبات نفسه، وصاح بهم وهو يشتمهم على توانيهم:

«ادخلوا ادخلوا ادخلوا!».

وانصاع لأمره أربعة أو خمسة لفورهم، وظل اثنان من الرجال في الطريق مع ذلك الكفيف الرهيب، ثم أعقب ذلك صمت قصير، تلته صيحة استغراب رن على أثرها صوت من النزل يقول:

«مات بل».

على أن الأعمى عاد إلى تهديدهم من أجل تباطئهم وصرخ فيهم: «فتشوه أيها المراوغون البلداء، وليصعد باقيكم لتفتيش خزنته».

وقد أمكنني سماع وقع أقدمهم وهم يصعدون الدرج فكانت أسس النزل تميد تحتهم ميداً. وما هي إلا لحظة حتى عادت صيحات الاستغراب، ثم دفعت شرفة حجرة القبطان بقوة أحدثت صيحة أعقبها صوت انكسار زجاج وأطل منها رجل برأسه وكتفيه في ضوء القمر، فخاطب الكفيف الواقف تحته وهو يقول: «لقد سبقنا سابق يا بيو Pew إلى فتح الصندوق وقلبه رأساً على عقب».

فصاح به الكفيف: «هل عثرت على الرزمة».

فأجابه: «لقد عثرت على النقود».

فشتم الكفيف النقود وقال: «إنما أريد لفافة فلنت».

فأجابه الرجل: «لم نوفق في العثور عليها في أي مكان».

ثم خاطب الذين يفتشون القبطان بقوله: «وأنتم ألم تجدوها مع بل؟».

فخرج إلى الباب رجل أحسبه الذي ظل في الدور الأول ليفحص جثة القبطان.

وقال: «لقد سبقنا من أغار على بل فلم يبق شيئاً ولم يَذَر».

فولول الكفيف قائلاً: «لم يفعل شيئاً من ذلك سوى أولئك القوم

أربـاب النـزل، ولا أحسـبه إلا ذلـك الصـبي الـذي وددت لـو أننـي أفقـأ عينيـه. لقد كـانوا هنـا مـذ هنيهـة وقـد الفيـت البـاب مغلقاً ثـم عالجـت فتحه، ألا تفرقوا يا قوم وابحثوا عنهم».

فقـال الرجـل المطـل مـن النافـذة: «لا ريـب فـي ذلـك فقـد تركـوا مصابهم مسرجاً هنا».

فرجع بيو إلى ترديد أوامره قائلاً: «تفرقوا وابحثوا عنهم ولا تتركوا في النزل شيئاً إلا قلبتموه، وأخذ يضرب الطريق بهراوته».

ثم أعقب ذلك حركة عظيمة وضجة هائلة داخل النزل القديم، فمن أقدام ثقال تضرب في كل ناحية إلى أثاث يقلب، وأبواب تدفع، حتى رددت الأحجار صدى تلك الأصوات. ثم خرج الرجال متعاقبين وهم يقولـون: «لا أثـر لهـم». وهنـا اخترق حجب الليـل صـوت صـفير يشابه تماماً الصوت الذي خلع قلبينا ونحن منكبين على جثة القبطـان، على أن الصـوت رُدد فـي هذه المرة دفعتين. فحسبته أول الأمر بـوق الأعمى، وكأنه كان يحث صحبه على الهجوم، على أننـي ما لبثت أن عرفت بأنها إشارة من جانب التل القريب من القرية لتحذير القرصـان من الخطر المحدق.

فقال أحدهم: «لقد عـاد ديرك Dirk إلـى إنذاره، فلنسرع بالفـرار يا إخوان».

فصـاح بـه الكفيف مستنكراً وقال: «أتفر يا جبان! إن ديرك لفر كثير الخوف مذ عرفنـاه، فـلا تعنوا بإنذاره. ولا بد أن يكون أهل النزل قريبين من هنا، حيث لا يمكن أن يكونوا بعيدين، والمسألة عند متنـاول أيديكم لو تعلمون».

«ألا تفرقوا وابحثوا عنهم يا كلاب! لعنة الله عليكم آه لو أنني أبصر !!».

ولكأني بندائه قد استنهض عزائمهم شيئاً، حيث بدأ اثنان منهم في البحث هنا وهناك بين الأقذار، على أن ذلك كان بغير اهتمام على ما رأيت، وكأني بالخطر المحيق بهم قد استرعى جل التفاتهم، بيد أن الباقين وقفوا في الطريق وقفة المتردد الحائر.

ثم رجع الكفيف إلى الضرب على نغمته السابقة قائلاً: «أفتحجمون يا أغرار، وأمامكم أخلاف الثروة أدنى إليكم من حبل الوريد، فما إن تجدوها حتى تصبحوا أغنياء كالملوك، وأنتم تعلمون علم اليقين أنها هنا، ثم بعد ذلك تقفون هنالك مترددين. لم يكن بينكم من يجسر على مواجهة بل ومع ذلك فقد واجهته أنا الأعمى! وها أنتم تريدون أن تضيعوا عني فرصتي السانحة فأظل فقيراً معدماً، تشابكي يا أكف فقطرات الروم تعوزني، ولو أن لكم من الشجاعة بقدر ما لسوسة منخر كعكة لظفرتم بالقوم، ولأصابني من الثراء والنعمة ما يجعلني أخطر في العربات مُرفهاً».

فصاح أحدهم قائلاً: «ألا قاتلك الله يا بيو فلقد ظفرنا بالذهب».

وقال آخر: «لا بد أنهم خبأوا الرزمة المبروكة في مكان حريز فحسبك الجنيهات الذهبية يا بيو ولا تطل الوقوف هنا مولولاً صائحاً».

فانفجر مرجل غضب الرجل، وكاد ينشق غيظاً، ثم أخذ يضرب بهراوته ذات اليمين وذات اليسار على غير هدى، ورن صوت عصاته عالياً وقد أصابت أكثر من واحد منهم.

بيد أن أولئك شتموا بدورهم الكفيف الخبيث، وهددوه شر تهديد،

محاولين عبثاً أن يفرقوا بين يده والعصاة، فكانت نجاتنا بسبب هذه المشاجرة التي ظلت رحاها دائرة، حتى سمعنا صوتاً آتياً من قمة التل على جانب القرية، ما لبثنا أن استوثقنا من أنه وقع حوافر خيل مسرعة.

ثم رأينا للوقت وسمعنا كلاً من بريق وصدى طلق ناري من جانب السياج، وكان بالضرورة آخر الإشارات المؤذنة بدنو الخطر، فما كاد يسمعها القراصنة حتى تفرقوا طرائق في كل ناحية، فركض أحدهم جهة البحر على مقربة من الملجأ، وانحدر آخر على جانب التل وهكذا حتى اختفت معالمهم في لحظة، ولم يبق ثمة من أثر لهم خلا بيو، فقد خلفوا المسكين فريداً. ولست أدري سواء أكان ذلك بسبب ما داهمهم من الرعب القاتل، أم لمجرد الانتقام والاقتصاص منه على سوء لفظه، وما بدر من تعديه بضربهم؛ على أنني أعرف أنه تخلف عنهم وأخذ يتلمس الطريق وقد تولاه الخبل وألم به الرعب وجعل يعسُّ صائحاً بأصحابه، وأخيراً ضل سبيله وعميت عليه مذاهبه، فانثنى على قيد بضع خطوات مني، وقد ولى وجهه شطر الدسكرة وجعل يستنجد:

«جوني، الكلب الأسود، ديرك وغيرهم» وهو يقول: «لا تتركوا يا إخوان بيو العجوز، لا تتركوه بربكم!».

وهنا كانت حوافر الجياد تسحق قمة المرتفع، ثم ظهر أربعة أو خمسة فرسان في ضوء القمر، وانحدروا وهم يركضون خيولهم بسرعتها القصوى على جانب التل.

وعند ذاك عرف بيو ما كان من خطئه، فانثنى صائحاً فساقته قدماه إلى حفرة لم يلبث أن ارتطم بها، على أنه استوى على قدميه

بأسرع من ارتداد الطرف، ولكن الرعب كان قد تملكه إذ ذاك، فطوح بنفسه تحت حوافر أول الجياد القادمة، وقد حاول الراكب عبثاً ألا يؤذيه ولكن حوافر الجياد الأربعة كانت أسرع من رجع الصدى في وطئه ورفسه، فصاح صيحة شقت حجب الليل الهادئ، ثم انبطح على وجهه فكانت هذه آخر حركاته إلى يوم البعث.

فانتصبتُ واقفاً، وناديت الفرسان الذين كانوا قد بدؤوا بالوقوف من تلقاء أنفسهم وقد هالتهم حادثة قتل الرجل، ولم ألبث أن عرفتهم. وقد رأيت على أثرهم صبياً كان قد أرسله أهل الدسكرة إلى قرية الدكتور ليفزي، وكان الباقون من ضباط الجمرك ظفر بهم الصبي في الطريق، فدلته فطنته أن يرجع بهم في الحال. وكان خبر المركب الراسي في كتس هول قد نمى إلى أذن المراقب دانس Dance فشخص إلى جهتنا. وإن والدتي وإياي لننسب لهذه الظروف إفلاتنا من براثن التهلكة.

أما بيو فقد مات، ولم تبق فيه جارحة تنبعث. وقد حملنا أمي إلى الدسكرة، وما إن دلكناها بقليل من الماء البارد الممزوج بالملح حتى استفاقت، وكان الخوف قد حفز أحشاءها حفزاً، بيد أنها ظلت تظهر مزيد أسفها على ما لم تظفر به من حقها في النقود. وفي أثناء ذلك ركب المراقب بسرعة إلى كتس هول بيد أن رجاله اضطروا إلى الترجل لتلمس طريقهم في تلك الوهدة، ومن خلفهم جيادهم يسحبونها آونة وآونة يسندونها، وهم في خوف دائم من أن يكون قد كمن لهم أحد في مخبأ على جانب الطريق. ولذلك لم يدهشوا عندما وصلوا كتس هول ووجدوا المركب قد رحلت ولو أنها لم تبتعد كثيراً. ثم نادى

المراقـب ملاحيهـا، فصـاح بـه صـائح: «ثـوار مـن ضـوء القمـر أو استهدفت للرصـاص». وللحـال مـر طلـق جـوار ذراعـه، وفـي الحـال ضـاعفت المركـب سـرعتها واختفـت. فوقـف السـيد دانـس كمـا يقـول كالسمكة حيل بينها وبين الماء، وكان كل ما استطاع عمله أن أرسل رجـلاً إلـى ب – – ليجهـز قـارب الحكومـة السـريع ذا الصـاري الواحـد حيـث كنـت إذ ذاك قـد فضـت إليـه بجملـة الخبـر، فقـال: «إن تجهيـز قـارب الحكومـة لا يجـدي فتـيلاً، فقـد لاذوا بـالفرار سـالمين وانتهـى الأمر» على أنه عبر عن سروره لأنه داس على قدم عم بيو.

ثم رجعت بصحبته إلى نزل أمير البحر بنبو، وليتعذر عليك أن تتصـور داراً فـي مثل حالتـه مـن العبث والـدمار. حيث لـم يترك القوم شيئاً في غضبهم لم يقلبوه في سبيل البحث عنا حتى ساعة الحائط لم تسلم منهم، ولـو أنهم لـم يحملـوا معهم من الـدار شيئاً إلا حقيبـة نقود القبطان وبعض قطع الفضة من صندوق النقود، على أنني ما شككت لأول وهلة في أن الدمار قد نزل بنا. ولم يستطع السيد دانس أن يفهم شيئاً مما رأى.

فسألني قائلاً: «تزعم يا هوكنز أنهم ظفروا بالنقود فماذا تراهم كانوا ينشدون بعد ذلك. ألعلهم كانوا يطلبون مزيداً؟».

«نعم سيدي، لم يكن القوم ينشدون نقوداً، ولكنهم كانوا يفتشون عن شيء آخر أحسبني قد سبقتهم إلى الظفر به، وقد خبأته في جيب جاكيتتي، والحق أقول لك إني أريد أن أحفظه في مكان حريز».

فقال: «أصبت يا بني كبد الحقيقة لو تعلم، فإذا أردت فإني حاملهُ عنك».

فقلت: «إنما أريد أن أودعه الدكتور ليفزي».

فقاطعني محبذاً مستحسناً وقال: «إن هذا لعين الصواب فالدكتور رجل حسيب، وهو عدا ذلك من رجال القضاء. والآن قد تذكرت، فلا بد لي من الركوب بنفسي إلى هناك عند انتهائي من عملي هنا لأخبر الدكتور أو السيد ترلوني بما كان من موت سيدنا بيو، فالرجل قضى حتفه كما ترى. وقد يعلل القوم ذلك ضد أحد ضباط جلالة الملك، إذا أمكنهم فهم الموضوع؛ فإذا أردت يا هوكنز Hawkins مصطحبك إلى هناك».

فشكرته كثيراً ثم سرنا إلى القرية حيث كانت الجياد، ولما أخبرت أمي على ما عزمت عليه كانت الخيول قد أعدت.

فصاح السيد دانس بأحد أتباعه المدعو دوغر Dogger: «هذا هو الصبي يا دوغر فإن جوادك قوي».

وما كدت استقر على صهوة الجواد وأمسك بمنطقة دوغر حتى أذن المراقب بالرحيل، فاندفعنا مسرعين نقفز قفزاً إلى منزل الدكتور ليفزي.

الفصل السادس

أوراق القبطان

أسرعنا في المسير طول الطريق إلى أن وصلنا إلى باب الدكتور ليفزي. فأوقفت الجياد، وكان الظلام مخيماً على داره فلم نشهد في فنائه بصيصاً من النور.

فطلب إليّ السيد دانس أن أترجل وأقرع الباب، فقدم إليّ دوغر أحد ركابي السرج لأستعين به على النزول. ففتحت الخادم الباب لساعتها. فسألتها ما إذا كان الدكتور هنالك فأجابت سلباً، وأردفت بأن الدكتور جاء إلى المنزل في الأصيل، على أنه ذهب إلى سراي القاعة ليتناول طعام العشاء على مائدة السيد ترلوني ويقضي معه شطراً من الليل.

فقال السيد دانس: «إذاً فلنذهب إلى هناك يا صبي».

ولم أركب في هذه المرة لأن المسافة كانت قصيرة، ولكنني ركضت متعلقاً بركاب دوغر إلى باب البناء، وسلكنا ممراً طويلاً غرست على جانبيه أشجار، سقطت كل أوراقها وقد سكب عليها القمر ليقته الفضية البيضاء؛ حتى ظهر لنا الخط الأبيض المحيط بسراي القاعة وقد انبسطت من حوله حدائق قديمة متسعة.

وهنا ترجل السيد دانس واستصحبني معه. فدخلنا المنزل من غير منع. وتقدمنا الخادم في دهليز مفروش، وأدخلنا مكتبة كبيرة عند

نهايتـه، قـد اسـتترت جـدرانها خلـف خزانـات الكتـب المزدانـة أعاليهـا بتماثيـل نصـفية لكبـار العلمـاء، حيـث جلـس السـيد ترلـوني والـدكتور ليفزي على جانبي نار موقودة وقد أمسك كل بغليونه في يده. بيد أنني لم أشهد السيد ترلوني على مسافة قريبة مثل ما شهدته في تلك الليلة، فكـان رجـلاً يزيـد طـول قامتـه عـن سـتة أقـدام، ويتناسـب عرضـه مـع طولـه، وقـد انتفخـت أوداجـه، واحمـر وجهـه وخشـنت بشـرته وتجعـدت أسـاريره مـن كثـرة مـا شـهد مـن الأهـوال فـي أسـفاره ورحلاتـه الطويلـة. وكـان سـواد حاجبيـه فاحمـاً وحركتهمـا دائمـة، بحيـث يُخيل إليك أنـه ذو مزاج حاد، ليس بالخبيث ولكنه سريع الغضب مقدام جريء.

فقال بعظمة مشوبة بشيء من التنازل: «ادخل يا سيد دانس».

ثم قال الدكتور وقد هز رأسه: «أسعدت مساء يا دانس وأسعدت مساء يا صاحبي جيم، ما الذي طوح بك إلى هنا؟».

فوقف المراقب معتدلاً. وسرد الحكاية كأنه يتلو درساً وقد ملكت روايتـه علـى الرجلين مشـاعرهما فنسيا التـدخين، وانحنيا مرهفـي السـمع وحملـق كـل منهمـا بصـاحبه، وقـد تملكتـه الدهشـة والاسـتغراب، ولمـا وصـل الـراوي مـن حديثـه إلـى رجـوع أمـي إلـى النـزل، ضـرب الطبيـب فخذه جذلاً طروباً. وصاح السيد ترلوني قائلاً: «مرحى! مرحى! » ثم كسـر غليونـه الطويـل علـى النضـد. وقبـل أن ينتهـي الرجـل مـن سـرد حكايتـه بكثيـر، تـرك السـيد مكانـه مـن مجلسـه وجعـل يضـرب فـي طـول الحجـرة وعرضـها بخطـى واسـعة. بينمـا خلـع الطبيـب عنـه شـعره المسـتعار المـزين كأنمـا يريـد أن يتفـرغ للإنصـات فبـدت غرابـة سـحنته عندما ظهر قفاه الأسمر الرفيع الكثير الشعر.

وأخيراً فرغ السيد دانس من سرد قصته.

فقال السيد ترلوني: «إنك يا سيد دانس لرجل نبيل شهم، وأما عن قتل ذلك الرجل النجس الشرير الملعون وموته تحت سنابك جوادك، فأمر أعده لك حسنة، وليس هو في نظري بأكثر خطراً من وطئك لخنفساء قذرة».

أما هذا الصبي هوكنز فهو فتى نادر الذكاء. وهنا طلب إليّ أن أدق الجرس، ليأمر الخادم بأن يحضر كوباً من الجعة للسيد دانس.

ثم قال الدكتور بعدئذٍ: «هل ظفرت على ذلك، بما كانوا ينشدون يا جيم؟».

فأجبته من فوري أن هذه هي يا سيدي، ومددت يدي إليه بالرزمة الملفوفة في المشمع.

ففحصها الدكتور مسرعاً. وكأنما كانت أصابعه تتلهف لفتحها ولكنه بدلاً من أن يطيع هواه، أسرع بوضعها بهدوء في جيب معطفه.

ثم قال مخاطباً السيد ترلوني: «إذا انتهى السيد دانس من شرب الجعة المقدمة إليه فعجله ليؤدي مهام مركزه، ولكنني أريد أن يبقى جيم هوكنز هنا لينام في منزلي. وإني أستميحك عذراً في أن تأمر برفع هذه الفطيرة الباردة وأن تأمر له بعشاء».

فأجابه السيد ترلوني: «كما تريد يا ليفزي، فلقد أصاب هوكنز ما يجعله يستحق ما هو أحسن من الفطير البارد».

وعلى ذلك فقد أحضر طبق كبير ووضع على نضد صغير، فأكلت بشهية زائدة. لأني كنت خائراً من الجوع، وإني كذلك شكر السيدان دانس وأثنيا عليه ثم صرفاه.

فقال الدكتور: «ما قولك يا ترلوني؟».

فأجاب ترلوني: «ما قولك يا ليفزي؟» فخرج السؤالان في لحظة واحدة.

فضحك الدكتور وقال: «مهلاً مهلاً فلا أحسبك إلا سمعت بـ"فلنت؟"».

فصاح به ترلوني متعجباً مستنكراً وقال: «سمعت عنه! وكيف لا أسمع بأفتك قرصان شهده البلاك بيرد Black Beard لا يكاد يقاس به شيء. لقد كان الإسبان يرهبونه رهبة الموت حتى إنني كنت كثيراً ما أفخر بأنه إنكليزي ولقد شهدت أطراف قلوعه بعيني رأسي، على مسافة من ترايني‌داد Trinidad فلم يسع الجبان الذي أبحرت معه إلا أن عاد كالجرذ إلى حجره في مرفأ إسبانيا».

فقال الدكتور: «حسن، لقد سمعت بخبره في إنكلترا، ولكن المهم هل عنده نقود؟».

فصاح به السيد ترلوني: «تقول نقوداً! ألم تسمع بالقضية، ماذا كان ينشد أولئك الأوغاد غير النقود؟ وبأي شيء يهتمون سواها؟ وما الذي يحدو بهم إلى التغرير بنفوسهم النجسة إلا النقود؟».

فأجاب الدكتور: «سنعرف ذلك حالاً. ولكن انفعالك وسرعة استطرادك في حديثك لما يجعلني بمنزلة من العجز عن إفهامك شيئاً، إنما أريد رداً على هذا السؤال. إذا كان عندي هنا في جيبي مرشد للمكان الذي أودعه فلنت ذخيرته فبكم تقدر قيمة ذلك الكنز؟».

فأجاب السيد ترلوني متعجباً: «تقول بكم أقدره يا سيدي، إني أقدره بذلك. إذا كان حقاً لدينا بيان مكان الكنز، فإني مُجهز سفينة في

حوض برستول، ومستصحبك وهوكنز فلا يمضي عام قبيل أن أكون قد ظفرت بالكنز».

فقال الدكتور: «حسن، فإذا أحب جيم فإني فاتح الرزمة. ثم وضعها أمامه على النضد».

كانت اللفافة مخيطة فاضطر الدكتور لأن يخرج صندوق آلاته ليقص بمقصه الطبي خيوط الغلاف. وكانت اللفافة مؤلفة من جزئي كتاب، وورق مختوم.

فارتأى الدكتور أن يبدأ بفحص الكتاب.

وكان السيد ترلوني وإياي مطلين من فوق كتفي الدكتور وهو يفتحه – لأن الطبيب ليفزي كان قد أومأ إليّ متلطفاً بأن أقترب منه لأشاطرهما لذة الاستكشاف، فتركت مكاني الذي كنت آكل فيه ولبيت النداء. فرأينا في الصفحة الأولى بعض قطع من الكتابة غير ظاهرة المعنى كالتي يخططها الإنسان بقصد التسلية أو على سبيل التجربة. وكانت إحدى هذه القطع مشابهة تماماً لما وجدناه موشوماً على ذراع القبطان «بلي بونز حبيبي» ثم «السيد بلي بونز ربان»، «لأشرب اليوم» ووجدت على مسافة «بالم كي Balm Key» إلى غير ذلك من الجمل الصغيرة ومعظمها ألفاظ غير ظاهرة المعنى. ولم يسعني إلا أن أتساءل عمن حصل عليها؟ وما هي تلك التي ظفر بها؟ ولعلها طعنة خنجر في ظهره.

فقال الدكتور وهو ماض في بحثه: «لا معلومات تذكر هنا».

وقد غصت سطور الصفحات العشر أو الاثنتي عشرة التي تليها بمجموعة غريبة من المذكرات والملحوظات. فكنت ترى في أول

السطر تاريخاً وفي آخره قدراً من النقود كالتي نشهدها في كراسات الحسابات. ولكن بدلاً من بيان تلك الأعداد بجمل توضيح ماهيتها، كنت ترى عدداً متغيراً من الخطوط المتقاطعة بين المبلغ والتاريخ. فمثلاً في الثاني عشر من حزيران سنة 1745 كان من الواضح استحقاق دفع مبلغ سبعين جنيهاً لشخص ما. ولكن لم يكن هناك غير ستة خطوط متقاطعة لبيان السبب وفي بعض حالات نادرة لزيادة التأكد، كان يضاف اسم مكان مثل «قرب كركاس – عاصمة فنزويلا الآن» أو مجرد ملحوظة تبين خط الطول والعرض مثل الدرجة 62 الدقيقة 17 الثانية 20، الدرجة 19 الدقيقة 2 الثانية 40.

ولقد ظلت تتابع تواريخ هذه الأعداد حوالي عشرين حولاً. وجعلت مقادير الأعداد المفردة تأخذ في الزيادة على مر الزمن، حتى إذا كانت النهاية رأيت مجموعاً عمومياً لسائر هذه الأعداد بعد خمس أو ست عمليات غير صحيحة، ثم عُلق عليها بهذه العبارة: «نصيب بونز».

فقال الدكتور: «لست اعرف لهذا أولاً من آخر».

فأجابه ترلوني: «المسألة أوضح من شمس الظهيرة فهذه كراسة حساب ذلك الكلب الشرس الخبيث النفس، وهذه الخطوط المتقاطعة رموز بأسماء السفن التي أغرقوها أو البلدان التي نهبوها. وأما المبالغ المرصودة فهي نصيب اللعين من الغنيمة، وحيثما كان يخاف اللبس رأيته يضيف شيئاً لزيادة الإيضاح فمثلاً عبارة "قرب كركاس" تفيد أن سفينة سيئة الحظ أقلعت من ذلك الشاطئ – رحم الله رجالاً كانوا فيها – فلا ريب في أن جثثهم قد تحجرت في قاع البحر وتحولت إلى مرجان من أمد بعيد!».

فقال الدكتور: «صدقت، فانظر ما أصعب السياحات، لا شك عندي في أن المبالغ كانت تزيد كلما علت درجته».

ولم يحو المجلد عدا ذلك إلا قليلاً من مواقع بعض الأماكن. مدونة في الصحف الأخيرة الخالية من الكتابة مع بيان بتحويل العملة الإنكليزية والفرنسية والإسبانية إلى القيم المعروفة.

وقال الدكتور: «يا له من رجل مقتصد لا يخدع».

فأجابه السيد ترلوني: «دعنا الآن نعرف ماذا يكون من شان الورقة الباقية».

كانت الورقة مخيطة من عدة نواحي على سبيل ختمها. وأحسب أنها خيطت بنفس الإبرة التي استكشفتها في جيب القبطان عندما فتشنا ملابسه عقب وفاته. فجعل الدكتور يبالغ في الترفق بفتح الورق فظهر لنا رسم جزيرة، موضحة بها خطوط الطول والعرض، وأغوار المياه وأسماء التلال والخلجان والمداخل إلى غير ذلك من التفاصيل التي يحتاج إليها في قيادة السفينة إلى مرفأ أمين على الشاطئ. وكان طول الجزيرة حوالي تسعة أميال وعرضها نحو خمسة، ويمكنك أن تقول إن شكلها يماثل جرم الوحش الضخم الواقف على قدميه. وفيها مرفآن داخلان في أرضها محجوبان عن تأثير الرياح بعيدان عن مناوئة الأمواج، وفي وسطها تل اسمه المنظار The Spyglass وكان هنالك بعض زيادات كتبت فيما بعد وأهم ما فيها ثلاثة خطوط متقاطعة بالمداد الأحمر. اثنان منها في شمال الجزيرة، وواحد في جنوبها الغربي، وقد كُتب إلى جوار الأخير بنفس المداد الأحمر وبخط صغير دقيق يخالف كل المخالفة حروف القبطان المرتجفة هذه العبارة «هنا معظم الكنز».

وقد كتبت نفس اليد على ظهر الورقة هذه الارشادات.

«الشجرة طويلة بجانب المنظار على درجة من شمال الشمال الشرقي».

«جزيرة الهيكل شرق الجنوب الشرقي إلى جوار الشرق».

«عشرة أقدام».

«قضيب الفضة في المخبأ الشمالي تجدها إلى جوار سفح التل الشرقي. على ستين قدماً من الصخرة السوداء التي عليها الوجه».

«الأسلحة يسهل العثور عليها في التل الرملي. شمال المرفأ الشمالي جهة الشرق بميل الربع نحو الشمال».

جيمس فلنت

وكان هذا كل ما كتب، على أنه رغماً من قصره واعتقادي بتعذر فهمه، فقد طرب له السيد ترلوني والدكتور أيما طرب. فقال السيد ترلوني للدكتور: «أمسك حالاً عن ممارسة مهنتك الثقيلة فإني شاخص غداً إلى برستول وفي ثلاثة أسابيع – ثلاثة أسابيع! – لا بل أسبوعين – وهذا كثير – في عشرة أيام – أكون قد ظفرت بأحسن سفينة، وأعددت لها نخبة بحارة إنكلترة. وسنأخذ معنا جيم هوكنز بصفة صبي السفينة، وأغلب ظني أنك ستكون صبي سفينة ذا أثر خالد يا هوكنز. أما أنت يا ليفزي فستكون طبيب السفينة وأنا أمير البحر. وسآخذ ردرث Redruth وجويس Joyce وهنتر Hunter وسنصادف بإذن الله ريحاً موافقة، وسوف لا نجد أي صعوبة في استكشاف مكان الكنز، ثم بعد ذلك نأكل النقود بدل الخبز، ونملك

الدهر فنمتطي لياليه أداهم ونُقلد أيامه صوارم ونفني شموسه وأقماره في الهبات».

فقال الدكتور: «يا ترلوني سأذهب معك وأنا واثق من المشروع. وسيذهب أيضاً جيم ويكون ضماناً للمشروع. وليس هنالك ثمة إلا رجل واحد أخشاه».

فصاح السيد ترلوني: «ومن يكون ذلك؟ ما اسم هذا الكلب يا سيدي؟».

فأجاب الدكتور: «إياك أعني. فأنت لا تستطيع أن تمسك لسانك، فما نحن المتفردون بمعرفة خبر هذه الورقة. كلا فإن أولئك الرجال الأشداء الذين هاجموا النزل الليلة بكل جرأة واقتحام، ليعرفون من شأنها هم وأصحابهم الذين تخلفوا في المركب أكثر مما نعرف نحن. ولا أغلوا إذا قلت بأن غيرهم أيضاً على مقربة منا قد تعاقدوا فيما بينهم أفراداً وجماعة أن يظفروا بالذهب رغم المثبطات والعقبات. وعلى ذلك فخليق بنا أن نظل متلاصقين لا نفترق حتى نركب البحر. وإني ملازم جيم أثناء ذلك، أما أنت فاستصحب جويس وهنتر في مسيرك إلى برستول. ويجب ألا يحرك منا أحد شفة بكلمة عما وجدناه حتى المنتهى».

فأجاب السيد ترلوني: «عودتني على الصمت يا ليفزي. وسوف أكون أصمت من قبر».

القسم الثاني

طاهي البَحر

الفصل السابع

ذهابي إلى برستول

مضى الزمن الذي قضيناه قبيل كامل استعدادنا لركوب البحر أطول مما تصوره السيد ترلوني. ولم يتم تنفيذ خطة واحدة من خططنا الأولى طبقاً لرغبتنا. حتى ما كان من اعتزام الدكتور على دوام ملازمتي، حيث كان لا بد له من الشخوص إلى لندن ليتفق مع طبيب آخر على أن يخلفه في عمله ويتعهد حالاته. وكان السيد ترلوني أشد ما يكون اشتغالاً في برستول، وعلى ذلك فقد بقيت في القاعة تحت رعاية ردرث حارس الصيد الهرم. وكنت أشبه ما يكون بالمعتقل على أنني كنت دائم الحلم بالبحر، وكانت تتسابق في ذهني الأفكار الجميلة لسوانح الخيالات الممتعة عن الجزر العجيبة والحوادث الغريبة. وكم من ساعة قضيتها متأملاً في رسم الجزيرة التي كنت أذكر معظم تفاصيلها. فكنت إذا جلست إلى النار أصطليها في حجرة حارس الصيد، حلَّقت بي الأفكار في سموات الخيال، فكنت أصل الجزيرة من كل ناحية وسبيل ممكنين. فأستكشف كل فدان من أرضها، وأتسلق ألف مرة على ذلك التل المرتفع الذي يسمونه المنظار وأحظى وأنا على قمته بأعجب المرائي وأكثرها اختلافاً. وآونة كنت أتمثلها غاصة بجماهير المتوحشين الذين نقاتلهم. وآونة أتخيلها مملوءة بالحيوانات الخطرة التي كانت تطاردنا. على أنه لم يذهب بي

الفكر مطلقاً لأن أشاهد في خيالي مثل الذي أصابنا حقيقة من الحادثات العجيبة الهائلة في تلك الرحلة.

وقد مرت الأسابيع على هذه الحال. حتى إذا كان من يوم هبت شمائل صفوه. جاء كتاب معنون للدكتور ليفزي (مع الإذن لتوم ردرث أو الشاب هوكنز بفتح الخطاب في حالة ما إذا كان الطبيب غائباً). فلما فتحنا الخطاب وجدنا، وإن شئت قل وجدت – لأن حارس الصيد لم يكن ليحسن مطالعة شيء غير مطبوع – هذه الأخبار المهمة.

المرساة القديمة، برستول في الأول من آذار عام ـ ـ17.

عزيزي ليفزي...

لما كنت لا أدري ما إذا كنت في القاعة أم أنت لا تزال باقياً في لندن London، فقد حررت من رسالتي هذه نسختين بعثت بواحدة منها لكل من المكانين.

أما السفينة فقد تم شراؤها وإعدادها. ولا أحسبك شهدت في حياتك سفينة في مثل رشاقتها. حتى إن الطفل ليستطيع أن يسيِّرها، وحمولتها مئتا طن واسمها الهسبنيولا Hispaniola.

لقد كان مساعدي في العثور عليها صديقي القديم بلاندلي Blandly الذي برهن بعمله على أنه الصديق الوفي النادر الوجود. والحق أقول لك إن الرجل الشهم قد تفانى في سبيل مرضاتي ومسرتي كما فعل كل واحد في برستول. وما إن تهب الريح على المرفأ حتى نسافر إلى الكنز.

وما وصلت من مطالعة الخطاب إلى هذا الحد حتى أقبلت بوجهي على ردرث قائلاً:

«لست أحتسب بأن هذا يرضي الدكتور وأغلب ظني بأن السيد ترلوني لم يتحفظ بعد طول هذا التشديد».

فهمهم حارس الصيد قائلاً: «عجباً وأيهما المحق؟ إنها لتكون غريبة إذا لزم السيد ترلوني جانب الصمت إطاعة لأمر ذلك الطبيب».

وهنا أمسكت عن محاولة أي انتقاد ومضيت في المطالعة من غير وقوف.

وجد بلاندلي الهسبنيولا بنفسه وأمكنه بحسن حيلته ورفقه أن يحصل عليها بأبخس ثمن.

وهناك طائفة من الناس في برستول، بلغ من فظاعة تحزبهم ضد بلاندلي وحقدهم عليه أن ذهب بهم سوء الظن إلى حد زعموا معه بأن ذلك الرجل الأمين عبد المال، لا يكاد يضن بشيء في سبيله. وبأنه هو صاحب الهسبنيولا وقد غبنني في ثمنها غبناً فاحشاً – افتراء مبين وكذب ظاهر – على أنه ما من أحد منهم يجسر على إنكار مزايا السفينة.

وإلى هنا لم أصادف أي صعوبة. بيد أن العمال الذين يربطون أمراس السفينة ويثبتون صواريها وغيرهم كانوا متكاسلين جد التكاسل لدرجة جعلتني أتحفظ. ولكن الزمن كان كفيلاً بإصلاح هذا النقص. فلم يكن ثمة من شيء يقلقني خلا اختيار البحارة.

فإني أريد نحو عشرين رجلاً، خوفاً من فتك أهالي الجزيرة أو القرصان أو الفرنسيين الأشرار. ولكني ما كدت أوفق إلى الظفر بستة منهم حتى أرهقت من أمري عسراً، ثم أقبلت دنياي وناهيك بما أقبلت، فوافاني طالع سعدي وتوفيق جدي بالرجل الذي كنت أنشده.

وذلك أنني كنت واقفاً على الحوض يوماً، فحدثته مصادفةً، وعرفت منه بأنه كان بحاراً قديماً، وأنه رب حانة ويعرف كل ملاحي برستول، وقد ألمّ به انحراف من عيش المدن. وهو يبغي الرجوع إلى البحر، على أن يعمل عملاً قليل المؤونة كأن يكون طاهياً. وقد ذهب إلى أنه تعمد أن يتمشور اليوم على الشاطئ ابتغاء تنسم رائحة البحر.

وقد أدركتني شفقة كبيرة عليه – ولا أحسبك إلا شاعراً بمثل ما شعرت لو أنك كنت في موقفي – ولفرط رثائي لحالته لم أتردد في أن أعينه طاهي السفينة.

أما اسم الرجل فجون سلفر الطويل Long John Silver وقد بُترت إحدى ساقيه، فزادني ذلك توصية بالرجل وعطفاً عليه، حيث إنه لم يفقدها إلا في خدمة بلاده. وكان يحارب تحت إمرة هوك Hoke (*) الخالد الذكر. وليس للرجل معاش يا ليفزي. فتأمل فظاعة عصر نعيش فيه بيد أنني وَهِمت بأني لم أجد إلا طاهياً، والحقيقة أني عثرت على بحار حقيقي. فقد تعاونا فيما بيننا على البحث، فما هي إلا بضعة أيام حتى اجتمع لدينا نفر من أقوى البحارة الذين يمكنك تصورهم. ولو أن منظرهم لا يسر الرائي. إلا أن وجوههم تؤذن بأنهم قوم ذوو طبائع لا تقهر. وإني مؤكد لك بأن في وسعنا أن نقابل بارجة حربية.

وقد أعفى جون الطويل اثنين من الستة أو السبعة الذين سبقت وعينتهم، بعد أن برهن لي في لحظة أنهم جماعة قليلو الخبرة بسفر البحار مما يجدر بنا أن نتخلص منهم في مثل هذه الرحلة المهمة.

---

* من أمراء البحر الإنكليز، وكان قائد الأسطول الذي حارب فرنسا في القرن 18. - (المترجم).

وإنـي الآن بكامـل صـحتي، آكـل كـالثور، وأنـام كالدوحـة. ومـع ذلـك فلـن يطمـئن لـي خـاطر حتـى أسـمع (بحـارتي يتقـاطرون علـى الملـواة) ويقـول قـائلهم: «إلـى البحـر»، «احملـوا الكنـز». وإن جـلال البحـر ليملأنــي عجبـاً وزهـواً. والآن أحضــر يــا ليفـزي علــى جنــاح السرعة. وحذار من أن تضيع ساعة إذا كنت تحترمني.

اسمح لهوكنز الصغير بالذهاب تواً لرؤية أمه على أن يصحبه ردرث لحراسته. ثم فليرجع كلاهما بسرعة إلى برستول.

جون ترلونـي

ملاحظة: فاتني أن أخبرك بأن بلاندلي سيرسل بعثة للبحث عنا إذا لم نرجع قبل نهاية آب – وقد عثر على رجل عظيم ليكون قبطان السفينة، على أنني أكره فيه صلابته، لكننا إذا استثنينا ذلك فهو جوهرة نفيسة. ولقد كشف لنا جون الطويل عن رجل قادر ذي كفاءة ليكون ربانـاً واسـمه آررو Arrow. وعنـدي رئـيس بحـارة لملاحظـة القـوارب والأمراس عنده بوق لاستعماله في دعوة الملاحين. وعلى ذلك فستكون الهسبنيولا ذات صبغة شبيهة بالنظام الحربي.

وفـاتني أيضـاً ان أخبـرك بـأن سـلفر رجـل ذو مـال، فقد عرفت بنفسي بأن له حساباً في المصرف لم يأخذ عليه سلفة مطلقاً، وقد ترك زوجه للقيام بمهام الحان، ولما كانت زوجة زنجية، فإن عازبين عتيقين مثلنا ليُعذران إذا ذهب بهما الظن إلى أن سبب رجوعه إلى البحر إنما هو الاستراحة من وجه تلك الزوجة، عدا العمل على تحسين صحته.

جـ . ت

ملاحظة ثانية: يؤذن لهوكنز بالبقاء ليلة مع أمه.

جـ . ت

وليسهل عليك أن تتصور مبلغ ما أصابني من التأثر لتلاوة ذلك الخطاب. فقد أخرجني فرط السرور إلى حد الذهول. ولم أكن لأحتقر أحداً احتقاري لتوم ردرث الذي كان لا يعمل شيئاً خلا التذمر وندب سوء حظه. ولا ريب في أن بين حارسي الصيد الذين هم دونه منزلة من يسر جد السرور بمبادلته، على أن تلك إرادة السيد ترلوني، وإرادته كالشريعة في نظرهم جميعاً.

فما كان ليجسر منهم أحد حتى على التذمر إلا ردرث الهرم.

ولقد ركبنا نعالنا في صبيحة اليوم التالي وشخصنا إلى نزل أمير البحر بنبو، حيث ألفيت أمي في صحة جيدة وحالة مرضية، فقد وري التراب القبطان الذي نالنا بسببه كل ذلك العناء. ولقد أمر السيد ترلوني بكل شيء. فأصلح وأعاد نقش اللوحة التي عليها اسم النزل، والغرف التي يجلس فيها الزائرون، وزاد بعض الأثاث وأحسن ما فيه كرسي جميل ذو مساند لليدين، تجلس عليه أمي في البار. وقد وافاها بصبي لمساعدتها حتى لا ينقصها شيء مدة غيابي.

وما عرفت حقيقة الظروف التي تحفني حتى أبصرت بذلك الصبي؛ حيث كانت رحى فكري لا تنفك دائرة حتى الساعة حول الرحلة التي أمامي. ولكني ما فكرت مطلقاً في فراق أمي والمنزل. فانهمرت مقلتاي بالدموع لدى رؤيتي ذلك الغريب القبيح الجاهل الذي كان منوطاً به أن يشغل مكاني إلى جوار أمي. وإني مشفق أن أكون قد أغلظت معاملة ذلك الصبي. حيث كانت تسنح لي مئات الفرص لتخطيئه وإذلاله. وكنت لا أفوت هذه الفرص من غير أن أنتفع بها.

انصرم أجل المساء وفي زوال اليوم التالي عقب الغداء ودعت

أمي. واقرأت الملجأ السلام وقد عشت في كنفه مذ ولدت، كما ودعت النزل الذي أعزه، ولو أن حداثة نقشه قد قللت من معزته عندي. ثم سرت وردرث في الطريق راجعين. وكان آخر ما حل برأسي من الأفكار عن ذكرى القبطان الذي طالما كان يسير على الشاطئ بقبعته المدببة، ووجنته التي بها أثر قطع الحسام ومرقبه النحاسي القديم، وللوقت انحرفنا في زاوية فاختفت دارنا عن بصري.

وقد ركبنا عربة البريد في الغسق عند نزل «الرويال جورج Royal George» على المرج، وكنت محصوراً بين ردرث ورجل آخر بدين. وبالرغم من سرعة حركة العربة وبرودة هواء الليل، فلا بد أنني أغفيت طويلاً منذ ركبت العربة، ثم بعد ذلك نمت كالجثة. والعربة تصعد التلال وتنحدر في الأودية من محطة إلى محطة، ولولا لكزة في ضلوعي لما أفقت من غيبوبة ذلك النوم الطويل، ففتحت عيني، فإذا بالعربة واقفة أمام بناء فخم في أحد شوارع مدينة كبيرة، وكان اليوم قد مر على طلوع الفجر.

فسألت: «أين نكون؟».

فأجاب توم: «نحن الآن في برستول، انزل».

ولقد اتخذ السيد ترلوني لنفسه مكاناً في نزل على مسافة منا على المرفأ ليشرف على العمل في السفينة. فكان لا بد لنا من الشخوص إلى هناك سعياً على الأقدام، ولفرط جذلي كان طريقنا على الرصيف إلى جوار ذلك العدد المكتظ من السفن المختلفة الأحجام المتباينة الأجهزة، المتعددة الجنسيات. فكنت ترى في إحدى تلك السفن البحارة يغنون وهم مقبلون على عملهم. وفي سفينة ثانية كنت تشهد

ملاحيها وقد ذهبوا في السماء متعلقين بخيوط تحسبها أوهى من نسيج العناكب. على أنني سلخت حياتي إلى جوار الشاطئ، إلا أنه خيل إليّ بأني ما قربت البحر إلا تلك الساعة. فكنت حديث العهد برائحة القطران والملح. ولقد شهدت أعجب التماثيل النصفية التي يعلقها أصحاب السفن عادة تحت الصاري. والتي طافت أكناف القاموس المحيط. كما رأيت عدا ذلك بحارة كبار السن في آذانهم حلقات، شواربهم مفتولة تنتهي بدوائر صغيرة، وعلى رؤوسهم شعور مستعارة قطرانية اللون، وهم يختالون في مشيتهم البحرية المستهجنة. ولو أنني شهدت مثل هذا العدد من الملوك ورؤساء الأساقفة لما سررت أكثر من ذلك.

وقد كنت أنا نفسي على أهبة السفر إلى جزيرة مجهولة في سبيل البحث عن كنوز مدفونة على سفينة فيها رئيس بحارة من ذوي الأبواق. وعليها ملاحون ذوو شعور مستعارة لا ينفكون يغنون أغانيهم البحرية، وإني غارق في لذة ذلك الحلم الجميل، إذ واجهنا فجأة نُزُلاً كبيراً. وقابلنا السيد ترلوني خارجاً من باب النزل، وقد علت محياه ابتسامة. وهو يقلد مشية أهل البحر تقليداً متقناً، وقد ارتدى ملابس زرقاء اللون تماثل تماماً ملابس الضباط البحريين.

فقال: «أهلاً! أهلاً! لقد كَمُل رجال السفينة، فقد جاء الدكتور بالأمس من لندن وها أنتم قد جئتم أيضاً».

فسألته: «ومتى نبحر يا سيدي؟».

فأجاب: «نبحر! إنما نبحر غداً!».

الفصل الثامن

عند شارة «المنظار»

حين فرغت من تناول طعام الإفطار، أعطاني السيد ترلوني بطاقة بعنوان جون سلفر عند نزل «المنظار». وأفهمني بأنه يسهل عليّ تعرف المكان إذا تتبعت خط الحاجز على رصيف المرفأ وأمعنت النظر بمشاهدة حان صغير عليها مرقب Telescope نحاسي ضخم رمزاً باسمها، فانطلقت لساعتي جذلاً بهذه الفرصة حيث أتمكن من الأخذ بنصيب وافر من مشاهدة السفن والملاحين، ولقد اخترت سبيلاً سلكته محترساً من جموع البحارة المكتظين وعجلات النقل، وحزم البضائع. حيث كان المرفأ أشد ما يكون نشاطاً. حتى وصلت الحانة التي كنت أقصدها. وكان مكانها صغيراً طلقاً مناسباً للهو، وقد نقشت شارتها حديثاً. وغشيت شرفاتها بسجف أنيقة حمراء ونثر الرمل النظيف في أرضها. وللحان بابان مفتوحان يشرفان على طريقين مختلفين، بحيث كان يسهل تمييز ما بداخل الحجرة الكبيرة السفلى برغم دخان الطباق المتكاثف في سمائها.

وكان جل الزائرين من البحارة. وقد جعلوا يتحدثون بصوت عال.

فأدركتني رهبة أشفقت معها من الدخول وجمدت في موضعي على الباب. وإني لكذلك إذ انحدر رجل من حجرة لم أتردد إذ رأيته من

الحكم عليه بأنه جون الطويل. وكانت يسرى فخذيه مقطوعة عند الرقفة (مفصل الفخذ)، وهو يحمل تحت كتفه اليسرى عكازاً كان يحركه بلباقة زائدة، حتى لتخاله بعض العصافير وهو يدرج عليه. والرجل عظيم الطول قوي البنية ذو رأس كأنه في ضخامته فخذ خنزير. ومحياه متوسط الجمال وبشرة وجهه مائلة إلى البياض. وهو باسم الثغر، ظاهر النجابة. والواقع أنه كان أشد ما يكون جذلاً. فكان يصفر وهو يدرج بين المناضد ويحيي أحب زائريه إليه بكلمة ظريفة أو بلكمة على الكتف.

والحق يقال إنه ما كاد يقع بصري على ذكر جون سلفر الطويل في خطاب السيد ترلوني حتى أشفقت أن يكون نفس ذلك البحار ذي الساق الواحدة الذي طالما رقبته في نزل أمير البحر بنبو. على أن نظرة واحدة في وجه الرجل الذي أمامي كانت كافية لتبديد شكوكي. فقد بَصُرت بالقبطان والكلب والأعمى بيو وأظنني بعد كل ذلك قادر على تميز القرصان. ولكنني أحسب البون شاسعاً بين صاحب هذا الحان الرضي الخلق النظيف وبين لصوص البحر.

فتجلدت لساعتي واجتزت عتبة الباب ووليت وجهي بغير تردد شطر المكان الذي وقف فيه الرجل معتمداً على عكازه، وهو يحدث أحد زائريه.

ثم مددت يدي نحوه بالرسالة وسألته ما إذا كان هو السيد سلفر.

فأجاب: «أجل يا بني هذا اسمي بلا شك. ومن تكون أنت؟» على أنه ما كاد يرى كتاب السيد ترلوني حتى خُيل إليّ أنه وجم.

ثم صاح بصوت عال وهو يقدم يده إليّ: «أوه عرفت فانت صبي السفينة الجديد. وإنه ليسرني أن أراك». قال ذلك وأمسك يدي في قبضته الكبيرة القوية.

وهنا فزع أحد الحاضرين من مكانه وانزعج شاخصاً نحو الباب، وقد كان منه قريباً. وما هي إلا لحظة حتى كان في الطريق. على أن سرعة خروج الرجل استرعت مني الالتفات، وما هي إلا نظرة واحدة حتى تحققت بأنه شخص ذلك الرجل، ذو الوجه الأصفر السمين الرهو، وصاحب الإصبعين الناقصين الذي كان أول من أتى إلى نزل أمير البحر بنبو.

فصحت: «أمسكوه أنه الكلب الأسود».

فأجاب سلفر: «ليس يعنيني شخصه مثقال ذرة والذي يهمني من أمره أنه لم يدفع حسابه، فأسرع بالقبض عليه يا هاري».

فهب أقرب الموجودين إلى الباب ووثب مجداً في أثره.

وأردف سلفر بقوله: «لا بد للرجل من دفع قيمة ما طلب ولو كان هو أمير البحر هوك». ثم ترك يدي وسألني: «تقول ما اسم الرجل؟ الأسود ماذا؟».

فأجبته: «الكلب يا سيدي، ألم يخبرك السيد ترلوني عن القرصان؟ لقد كان أحدهم».

فصاح سلفر: «هكذا هكذا. وهل يجسر مثل هذا الوغد على غشيان داري؟ ألا هب يا بن Ben لمساعدة هاريHarry. أحقاً أنه أحد أولئك الأنذال؟ وهل أنت يا مورغان Morgan الذي كنت تشاربه؟ تقدم إلى هنا».

وكان مورغان هذا ملاحاً أشهب الشعر أسمر الوجه محمره. فصدع بالأمر وأقبل إليه يدرج الهوينا بجبن وفرق. وهو يقلب في فمه قطعة من الدخان المضغ.

فسأله سلفر وقد تجعدت أسارير وجهه وعبس.

«طبعاً لم تر عيناك قبل اليوم ذلك الكلب الأسود، أليس كذلك؟ تكلم».

فأجابه مورغان وهو يحييه: «لا يا سيدي لست أنا».

«وأنت لا تعرف اسمه؟ أليس كذلك».

«لا يا سيدي».

فأجابه رب النزل بقوله: «بالله يا توم مورغان إن هذا لخير لك وأبقى. فلو أنك اختلطت بمثل هذا فلتكونن على ثقة بأني ما كنت لأسمح لك بأن تطأ بنعليك ثرى منزلي. ثم بم كان يحدثك؟».

فأجاب مورغان: «لست أدري تماماً».

فأردف سلفر بقوله: «وهل يصح لك أن تعتبر هذا الجرم الذي على كتفيك رأساً عاقلة مفكرة. أم بكرة ذات ثقوب ثلاثة؟ طبعاً لا تدري تماماً من كان يحدثك أليس كذلك؟» و«الآن حدثني بما كان يتمتم؟ فلقد سمعته يتشدق بعدة كلمات مثل سفرات وربان وسفن، ارفع صوتك ما إذا كان ذلك؟».

فأجابه مورغان: «كنا نتكلم عن معاقبة الملاحين بربطهم بحبل وسحبهم تحت هراب السفينة».

«أعن هذا كنت تتحدث؟ يا له من موضوع خطير مناسب ولعلك تميل إليه. عُد إلى مكانك يا بليد».

وقد همس سلفر في أذني عقب انقلاب مورغان إلى مكانه من مقعده، وهو يسارّرني مسارّة الصديق الواثق – ولست أحسب حديثه إلا محض نفاق ومداهنة – قال:

«إن مورغان لرجل أمين مخلص على أنه جامد الفهم غير حديد الذهن» وهنا عاد إلى رفع صوته قائلاً:

«دعنا نرى ماذا يكون من شأن الكلب الأسود؟ أجل لست أعرف هذا الاسم من قبل مطلقاً. على أنني أتوهم كأنما رأيت ذلك الوغد قبل اليوم. فقد كان يتردد إلى هنا بصحبة سائل كفيف».

فصحت به أن لا ريبة في صحة ما تقول. وإني أعرف ذلك الكفيف من قبل واسمه بيو.

فأجاب سلفر وقد تملكته الدهشة: «لقد نطقت بالصدق، وإني لعلى يقين من أن اسمه بيو وأغلب ظني أنه سارق محتال. فلو أننا ظفرنا بذلك الكلب الأسود فلنكون قد أصبنا أخباراً خليقة بأن تزف إلى السيد ترلوني، ولا أحسبنا إلا ظافرين به. فإن بن Ben يحسن الركض وقلما يعلق له ممار بغبار، أو يجري معه مبار في مضمار. فبالله ليدركنه، ويرجعن به إلينا مكتوف اليدين». لقد كان يتحدث عن شد الملاحين بحبل إلى هراب السفين. وإني ممثل به ما ذكره في حديثه.

وكان طول المدة التي جعل يهرف فيها مسرعاً بهذه الجملة، وهو يدرج في طول الحانة وعرضها مستنداً إلى عكازه. ضارباً الموائد بيده، ومظهراً من دلائل الدهشة والعجب ما يكاد يخدع قاض محاذر، أو أحد رجال الشرطة، ولقد عاودتني شبهاتي عندما شهدت الكلب الأسود في حانة المنظار فأمعنت في ملاحظة الطاهي. على أنه كان

أبعد غوراً، وأشد حرصاً، وأكثر حذقاً، من أن يعجن عوده فتى مثلي. وما إن رجع الرجلان وقد بلغ منهما اللغب وأضناهما العدو حتى قررا أنهما فقدا أثر طريدتهم في زحمة الناس وقد بالغ القوم في تقريعهما كأنهما لصان. فاقتنعت اقتناعاً لا تشوبه شائبة شك بأن جون الطويل بريء طاهر الذيل، حتى كنت مستعداً لأن أضمنه وأشهد في جانبه إذا هو أتهم بإهمال مطاردة ذلك الافَّاك.

ثم إنه قال: «التفت إليّ يا هوكنز. ألا ترى أن هذه المسألة عويصة على رجل مثلي؟ أليس كذلك. فماذا عساه يظن بي الكابتن ترلوني؟ فقد كان ذلك الرجل الملعون الفظ الثقيل الظل في قبضتي وهو جالس في داري يشرب من خمري! وقد أخبرتني أنت بجلية أمره. ومع ذلك أتركه يفر من بين أيدينا جميعاً على مرأى مني! ولا أحسبك يا هوكنز إلا منصفي أمام الكابتن ترلوني فأنت رغم حداثتك، رشيق حاذق ذكي. ولقد عرفت ذلك منك ساعة دخولك عليّ. والآن المسألة أمامك، فخبرني بربك ماذا تراني كنت وفاعله وأنا أحجل على هذه الخشبة العتيقة؟ فلو أنني كما أنا يوم كنت ربان سفينة قوي الجسم لأدركته بسهولة وقبضت عليه بكل جرأة. وأوسعته ضرباً ثم أوثقته في لحظة، ولكنني الآن...».

وهنا أمسك عن الحديث فجأة. وقد تدلى فكه كأنما ذكر شيئاً ذا بال.

وصاح بقوله: «الحساب! لقد شرب اللعين ثلاثة من الروم، آه لعنة الله عليّ إذا كنت قد افتكرت بالحساب».

ثم إنه سقط على مقعد وظل يقهقه حتى انحدرت الدموع على

وجنتيه. فلم أتمالك من متابعته في ضحكه متأثراً بقوة العدوى. ثم ظللنا نقهقه قهقهة متتابعة حتى رددت الحانة صدى صوته مرة ثانية.

قال وهو يمسح دموعه: «يا لي من عجل بحر سخيف! إننا زميلان يا هوكنز فإني مراهنك ومقسم لك بأنه قمين بي أن أعيَّن صبي سفينة مثلك، ولكن استعد يا هوكنز للمسير، فهذا لا ينفع، لأن الواجب هو الواجب يا إخوان، فإني لابس قبعتي العتيقة مثلثة الجوانب، وذاهب معك يا هوكنز إلى الكابتن ترلوني لأخبره بواقعة اليوم. فلا يذهبن عن بالك يا بني أن المسألة ذات بال، ولم يخرج منا نحن الاثنين أحد بما أتجاسر أن اسميه شرفاً، حتى ولا أنت لم تظهر ذكاء فيمكنك أن تقول إن ليس أحد منا ذكياً، فيا للعجب! ولكن لا بأس فهذا جزاء لي على ترك الحساب».

ثم عاد إلى الإغراق في الضحك حتى بدت نواجذه، ورغماً من أنني لم أفطن إلى كنه الملحة مثل ما فطن هو. بيد أنني اضطررت لمشاركته في قصصه مرة ثانية. وقد ظل يسامرني ويلاطفني ما سرنا على رصيف المرفأ وجعل يحدثني بخبر مختلف السفن التي كنا نمر بها. ويصف لي أجهزتها، ويعرفني مقدار زنة ما تحمله، ويعين الدول التي تتبعها، وأنشأ يشرح ما هو جار فيها، ويوضح كيف أن بعضها كانت تشحن والبعض تفرغ حمولتها، والبعض الآخر تستعد للإبحار، وهو لا يفتر يطرفني في كل مرة بنادرة عن السفن أو البحارة. ولا ينفك مردداً بعض أساليب الملاحين، ولا يتركه إلا إذا استظهرته، حتى ظهر لي بأنه أحسن من يعاشر من رجال السفينة.

ولما ولجنا باب النزل، كان السيد ترلوني جالساً إلى جوار

الدكتور ليفزي وهما يشربان الجرعة الأخيرة من مكيل – ربع غالون – من الجعة. وكانا يأكلان معها خبزاً قديداً؛ على أن يذهبا إذا فرغا من شربه لتفقد ما هو جار على سطح السفينة.

ولقد سرد جون الطويل الحادثة بكل حماسة وصدق وكان لا يفتر يستشهد بي من آونة إلى أخرى. فكنت أؤيده في كل مرة. فأسف السيدان جد الأسف على إفلات الكلب الأسود إلا أنهما اقتنعا بأنه لم يكن في الإمكان أحسن مما كان، وبعد أن شكرا جون الطويل، اعتمد على عكازه وانصرف.

فصاح به السيد ترلوني: «يجب أن يكون سائر الملاحين على ظهر السفينة قبل الساعة الرابعة من عصر اليوم».

فأجاب الطاهي وهو يجتاز الدهليز: «أمرك سيدي».

ثم قال الدكتور للسيد ترلوني: «رغماً من ضعف ثقتي بما تختاره على العموم، إلا أنني أقول إن هذا الرجل سلفر يوافقني».

فأجابه السيد ترلوني بقوله: «إنه لرجل جدير بالثقة».

ثم أردف الدكتور: «ولا أحسبك ممانعاً في استصحاب جيم معنا إلى السفينة؟».

فأجاب السيد ترلوني: «لا ريبة في ذلك» ثم صاح بي: «ألبس قبعتك يا جيم ودعنا نذهب لنرى السفينة».

الفصل التاسع

البارود والأسلحة

كانت الهسبنيولا طافية على مسافة من الشاطئ، فكان لا بد لنا من المرور تحت الزخارف التي يضعها الملاحون في مقدم سفنهم، والسير حول مؤخر كثير من تلك السفن. وكانت أمراسها تصطك آونة بهراب سفينتنا وآناً تتذبذب فوقنا. وأخيراً وصلنا إلى سطح السفينة فقابلنا الربان السيد أررو وحيانا، وهو بحار أسمر هرم في أذنيه شنوف وبعينيه حول. وكان السيد ترلوني وإياه على مودة صادقة وصداقة ثابتة. بيد أنني لم ألبث أن لاحظت بأن الأمر كان على العكس من ذلك مع السيد ترلوني وقبطان السفينة.

وكان الأخير رجلاً شديد المراس، تلوح عليه علائم الامتعاض من كل ما هو جار على السفينة، ثم إنه لم يتريث في إبداء سبب استيائه لنا، فما كادت تستقر بنا الأقدام في حجرة السفينة حتى جاء على أثرنا وقال:

«إن الكابتن سمولت Smollet يريد محادثتكم يا سيدي».

فأجابه السيد منهمكاً: «لا زلت نازلاً عند أمره يا سيدي فأمره بالدخول».

وكان الكابتن خلف رسوله مباشرة فدخل من فوره وأوصد الباب خلفه.

وهنا سأله السيد ترلوني بقوله: «ما وراءك يا كابتن سمولت؟ أتعشم أن تكون الأمور جارية في أعنتها مستقرة في نصابها مطمئنة في مواضعها، أتم ما يكون استعداداً للسفر».

فقال الكابتن: «أولى لي يا سيدي أن أفصحك الكلام، وأمحضك النصح ولو ساءك مني إغلاظ في القول. أقول إني متشائم من هذه الرحلة، كاره لقيادة السفينة، وغير راض عن الربان أررو. وخير الكلام ما قل ودل».

فصاح به السيد ترلوني وقد رأيته يتميز من الغيظ وقال: «لست أحسبك إلا كارهاً السفينة أيضاً».

فأجابه الرجل: «لا علم لي بذلك يا سيدي إذ لم أشهد اختبارها، وكل ما يمكنني أن أقوله إنه يظهر أنها سفينة سريعة لا بأس بها».

فأجابه السيد ترلوني بقوله: «ولعلك كذلك لا تحب وليَّك؟».

وهنا اعترض الدكتور الحديث قائلاً: «تريث قليلاً، تريث قليلاً. فلا نتيجة لمثل هذه الأسئلة غير توليد سوء التفاهم. وسواء أكان حديث الكابتن أكثر أم أقل من اللازم، فإني مضطر إلى أن أطلب منه بيان كلامه».

ثم سأل الكابتن قائلاً: «تزعم أنك تكره هذه الرحلة فما سبب ذلك؟».

فأجاب: «قد وضعني هذا الرجل في خدمته وحولي نطاق من الأسرار لا يميط عنه النقاب حتى تبحر السفينة. على أن أسيَّر السفينة حيث يأمرني، ولو وقف الأمر عند هذا الحد لقلنا خطب يهون. على أنني أرى بأن أدنى بحار عادي، يعرف من شأن الرحلة

أكثر مما أعرفه أنا. ولست أحسب هذا من العدل في شيء، ولا إخالك إلا معي في ذلك».

فأجابه الدكتور: «لا ظنة في صحة ما ذهبت إليه».

ثم عاد الكابتن إلى حديثه قائلاً: «أما الأمر الثاني فهو إني عرفت بأنا ماضون في سبيل البحث عن كنز، ولا تفوتك ملاحظة أني سمعت ذلك من بحارة السفينة أنفسهم لا من غيرهم – وإن السعي وراء الكنوز لمحفوف بالمخاطر، فتراني لا أحب الرحلات التي بهذا القصد مهما كان أجرها، لاسيما إذا كانت تلك الرحلات محفوفة بالأسرار، وخصوصاً (لا تؤاخذاني يا سيد ترلوني) إذا كانت تلك الأسرار قد لقنها الببغاء».

فسأله السيد ترلوني: «ماذا تعني ببغاء سلفر».

فأجاب الكابتن: «إنما هذا ضرب من الكلام أعني أنه إفشاء للسر وإني لموقن أنه ما من أحد من حضراتكم يا سادة يعرف مبلغ خطر ما أنتما مشرفان عليه، على أنني مخبركما بمبدأي الخاص إما حياة أو موت وخطر محدق».

فأجاب الدكتور ليفزي: «لا مشاحة في صحة ما قلت فنحن نطرح أنفسنا مطرحاً خشناً من التقرير، على أننا لسنا من الجهل بمثل ما تظن. ثم إنك تقول إنك لا تحب البحارة. فهل سبب ذلك أنهم غير عارفين بأساليب البحر وصناعته؟».

فأجاب الكابتن: «إني غير راض عنهم بتاتاً، وأنه ليذهب بي الظن إلى أنه كان من العدل أن أحظى بحق انتخاب بحارتي بنفسي، إذا نظرت إلى الواجب».

فقال الدكتور: «قد يكون لك شيء من الحق في ذلك وقد كان قميناً بصديقي أن يستصحبك في غدواته وروحاته، على أنه إذا صح لنا أن نعتبر تركه شيئاً من ذلك استخفافاً منه بشأنك، فقد كان هذا عن غير قصد منه ولا عمده ثم بقي علينا أن نعرف سبب استيائك من سيد أررو وعدم رضائك عنه».

فأجاب بقوله: «لست راض عنه، فإني أعتقد بأنه بحار لا بأس به، على أني أنكر عليه عدم تحفظه وأخذه بالحيطة مع البحارة، مما يجعله بحيث لا يصلح لأن يكون ضابطاً. فلا بد للربان أن يلزم نفسه؟ بمعنى أنه لا يشارب صغار البحارة».

فسأله السيد ترلوني: «ما تقصد بأنه يشارب».

فقال: «لا يا سيدي إنما أعني بأنه يرفع الكلفة مع البحارة أكثر من اللازم».

ثم صاح الدكتور قائلاً: «وجُماع القول يا كابتن حدثنا بما تريد».

فأجاب: «حسن، هل أنتم مصرون على استئناف هذه المباحرة».

فصاح به السيد ترلوني: «وإصرارنا كالحديد لا يفُل».

فقال الكابتن: «لا بأس. أما وقد صبرتم على سماع حديثي السابق الذي لم أوفق لأن أدعمه بالحجة والدليل فاسمعوا مني بعض كلمات أيضاً.

أولاً: إنهم يضعون البارود والأسلحة في عنبر السفينة الأمامي. وعندكم مكان مناسب تحت الحجرة فلم لا تضعونه هناك؟

ثانياً: أحضرتم أربعة من رجالكم معكم وقد سمعت بأن بعضهم سيكون عمله عند المقدمة فلمَ لا يكون بقاؤهم إلى جوار الحجرة.

وهنا قاطعه السيد ترلوني بقوله: «هل من مزيد أيضاً؟».

فأجاب: «بقي نقطة واحدة فقط، وذلك أننا سمعنا كلاماً كثيراً حتى اليوم».

فثنى عليه الدكتور بقوله: «أما الكلام فأكثر من الكثير».

ثم استطرد الكابتن سمولت في حديثه قائلاً: «وإني مخبركم بما سمعته بأذني، ذلك أنه بحوذتكم رسماً ببيان موقع الجزيرة. وأن مكان الكنز موضَّح على الرسم بخطوط متقاطعة. وتقع الجزيرة...» ثم ذكر خطي طولها وعرضها بغاية الضبط.

فصاح السيد ترلوني: «ما حدثت بذلك بشراً».

فأجاب الكابتن بقوله: «إنما يعرف ذلك صغار البحارة».

فصاح ترلوني: «لا بد ان تكون انت يا ليفزي أو هوكنز هو الذي تكلم».

فأجاب الدكتور: «لا كبير أهمية لمعرفة القائل».

وقد أمكنني أن أدرك بأن كلاًّ من الدكتور والكابتن لم يعنيا مثقال ذرة بمعارضة ترلوني. ثم إني حذوت حذوهما لأني عرفت بأن الرجل يكيل القول جزافا. بيد أنني كنت لا أشك في صدقه في هذه النقطة. وكنت مقتنعاً بأنه ما من أحد منا قد صرح بموقع الجزيرة.

ثم مضى الكابتن في حديثه قائلاً: «لا علم لي بمن يحمل الرسم منكم على أنني أعلق كبير أهمية على أن لا يعلم بمكانه أحد، حتى أنا والسيد أررو، وإلا فإني مضطر للاستقالة».

فقال الدكتور: «لقد فهمت ما تذهب إليه، وإنك تحب أن تحف المسألة بنطاق من الغموض، وأن تضع حامية على مؤخر السفينة يكون رجالها من خدم صاحبي، ثم تزودهم بكل الأسلحة والبارود التي على السفينة وبعبارة أخرى إنك تحذر من حدوث ثورة».

فأجاب الكابتن سمولت: «سيدي لا يغلظ عليك قولي إذا أنا أنكرت عليك أن تلقنني الحديث فإنه لن يُبرر كابتن مطلقاً إذا هو حاول السفر في البحر بأي حال وقد توفرت لديه من الأدلة ما تجعله بحيث يجزم بحدوث فتنة. أما السيد أررو فلا ظنة عندي في أمانته، وكذلك أعتقد في أمانة بعض البحارة أيضاً. وقد يكون ذلك شأن الباقين على ما أعرف، على أنني مسؤول عن سلامة السفينة ومطالب بحياة جميع رجالها فرداً فرداً. وإنه ليذهب بي الظن إلى أن الأمور ليست مستقرة في نصابها كالمطلوب. وإني مطالبكم بالأخذ ببعض أسباب الحيطة والحذر، وإلا فإني معتزل منصبي، وهذا كل ما أريد أن أقول».

فابتسم الطبيب وقال: «أتعرف يا كابتن أسطورة الجبل والفأرة؟ إني لأستميحك عذراً، ولكنني أصرح لك بأنك تذكرني بهذه الأسطورة، وإني مراهنك أنك كنت تعني أكثر من ذلك عندما دخلت».

فقال له الكابتن: «إنك لحازم يا دكتور، فإني لما دخلت هنا كنت مصراً على أن أحظى بإقالتي وتسريحي من خدمتكم. وما كان ليذهب بي الظن أن السيد ترلوني سيسمع مني كلمة واحدة».

فاعترض السيد ترلوني بقوله: «ولا أنا سامع منك أكثر مما سمعت، ولو لم يكن من وجود ليفزي لبعثت بك إلى جهنم. أما وقد

قُدر أن أسمعك فإني عامل بمشورتك. على أن ذلك لن يزيدني إلا سوء ظن بك».

فأجاب الكابتن: «لك أن تظن ما تشاء على أنك واجد مني رجلاً يقوم بواجبه». قال ذلك واستأذن بالخروج.

فقال الدكتور: «يا ترلوني رغماً من ملاحظاتي، فلقد وجدت رجلين أمينين في سفينتك، هذا الرجل وجون سلفر».

فأجاب السيد ترلوني: «لك أن تقول ذلك في سلفر، أما هذا المدعي الذي لا يطاق، فإني أصرح باني أعتقد أن سلوكه ليس من الرجولة في شيء، ولا هو يتفق مع ما هو جدير برجال البحر، وبعبارة أخرى إن تصرفه ليس تصرفاً إنجليزيا بالمرة».

فقال الدكتور: «حسن سوف نرى».

ولما وصلنا سطح السفينة كان الرجال قد بدؤوا حالاً في إخراج الأسلحة والبارود، وهم يغنون «يو هو هو» لمساعدتهم في عملهم الشاق، وقد وقف الكابتن والسيد أررو على كثب منهم يشرفان على عملهم.

ولقد سررت جدّ السرور بالترتيب الحديث، حيث أُصلحت كل السفينة. وذلك أن ستة مراكز أنشئت في المؤخرة، مأخوذة من المراكز التي تكوّن الجزء الخلفي من العنبر الرئيس. وكان لا يربط هذا الحجر بمطبخ السفينة إلا ممراً من أخشاب مربوطة إلى بعضها، إلى جوار جانب السفينة الأيسر. وكان المقصود في أول الأمر أن يشغل هذه المراكز كل من الكابتن والسيد أررو وهنتر وجويس والدكتور والسيد ترلوني. على أن الترتيب الأخير أسفر عن أن يشغل ردرث وإياي

مكانين من الستة، وأن ينام الكابتن والسيد أررو على سطح السفينة. في سلالم المركب التي وُسعت من كل جانب حتى لتخالها منزلاً، وبالرغم من انحطاط السقف إلا أنه كان هناك مكان لتعليق سريرين من أسرة البحارة، بيد أنه ظهر بأن الربان سُر جد السرور بهذا التعديل. ولقد كان مشكوكاً فيه نظراً لمعاملته مع البحارة، على أن ذلك لم يكن إلا مجرد حدث، حيث ستعرف فيما بعد بأنا لم نحظ برأيه طويلاً.

وإننا جميعاً أشد ما نكون اشتغالاً بنقل البارود والأسرة، إذ أقبل آخر ملاح أو آخر اثنين من ملاحي السفينة في مركب الشاطئ مع جون سلفر. وقد تسلق الطاهي على جانب السفينة بمهارة زائدة كأنه بعض القردة. وما كاد يشهد بما هو جار حتى قال: «بربكم ما هذا يا إخوان؟».

فأجابه أحدهم: «إنما ننقل البارود يا جاك Jack».

فقال: «لماذا؛ بالله إذا فعلنا ذلك يفوتنا مد الصباح وجزره».

فقال الكابتن: «هكذا أمرت» ولم يزد إلا قوله: «اذهب إلى أسفل يا صاح، فإن البحارة سوف يحتاجون حالاً إلى العشاء».

فأجاب الطاهي: «لبيك يا سيدي» ثم عبث بناصيته واختفى لساعته جهة المطبخ.

فقال الدكتور: «أظن أنه لا بأس بهذا الرجل يا كابتن؟».

أما الكابتن سمولت فأجاب بقوله: «قد يكون ذلك» ثم مضى في إصدار أوامره لرجاله وقد كانوا ينقلون البارود. قال: «ترفقوا بهذا الشيء يا قوم ترفقوا» ثم إنه لمحني فجأة أفحص المدفع الصغير الذي

كنا نحمله في عرض السفينة وكان مدفعاً نحاسياً تُساعياً – قذيفته تسعة أرطال – طويلاً.

فصاح بي: «دع عنك هذا اللعب يا صبي المركب وعليك بالطاهي فلعلك مصيب عنده عملاً "تؤديه"».

وما هممت أن أنصاع لأوامره حتى سمعته يقول للدكتور بصوت عال:

«لا أطيق احتمال وجود أحد مميزاً على ظهر السفينة» ولا أكتمك بأني كنت مع السيد ترلوني في اعتقاده عن الرجل، فكنت أكرهه كرهاً جماً.

الفصل العاشر

الرحلة

مرت تلك الليلة في عمل مستمر ونحن نضع الأشياء في موضعها. وقد كانت القوارب المشحونة بأصدقاء السيد من أمثال السيد بلاندلي لا تنفك تتقاطر علينا، حيث يودع راكبوها السيد ترلوني ويتمنون له سفراً سعيداً وعوداً حميداً. وما عرفت ليلة في نزل أمير البحر بنبو كان عندي فيها من العمل نصف الذي عملته تلك الليلة. حتى أضناني التعب، ونال مني الإعياء. فإذا أطل الفجر نفخ البحار المنوط بملاحظة القوارب والحبال في صوره، فتقاطر البحارة على الملواة. وما كنت لأبرح مطلقاً سطح السفينة، ولو نالني ضعف ما أنا فيه من الجهد، ذلك لأن الأوامر المقتضية، ونغمات الصفير الحادة، وصوت غناء الملاحين وهم ينحدرون إلى مواقفهم في ضوء مشاعل السفينة، كانت جديدة عندي ممتعة لديّ.

ثم صاح أحد البحارة بقوله: «الآن أنشدنا مقطوعة المشواة».

فصاح آخر: «غننا الأغنية القديمة».

فأجاب جون سلفر وقد اعتمد عكازه تحت ذراعه: «أهلاً أهلاً بكم يا إخوان»، ثم رفع عقيرته لساعته وقذف ألفاظاً أعرفها جد المعرفة: «خمسة عشر رجلاً على صندوق الميت».

ثم إن سائر الملاحين رددوا مقطوعة: «يو هو هو وزجاجة روم».

وعندما ينتهون إلى ثالث «هو» يديرون القضبان التي أمامهم بعزيمة قوية.

وحتى في تلك اللحظة الهائلة حملني تيار الفكر إلى نزل أمير البحر بنبو في أسرع من ارتداد الطرف، وخيل إليّ أني أسمع صوت القبطان مشتركاً في ترديد القرار. وسرعان ما رُفعت المرساة، وعلقت عند طرف مقدم السفينة، وقد تساقطت منه قطرات الماء وبدأت الريح تملأ القلوع وتدفعها. وخيل إليّ أن الأرض والسفن تسبح على جانبي السفينة. وقبيل أن أستلقي لأهجع ساعة كانت الهسبنيولا قد بدأت رحلتها إلى جزيرة الكنز.

ولست عازماً على ذكر تفاصيل الرحلة، بيد أنني أقول بأنها كانت مُوفقة لا بأس بها وقد ظهرت مزايا السفينة، واتضح بأن البحارة مقتدرون. وكان الكابتن ملماً بواجبه أيما إلمام. على أن حادثتين أو ثلاث وقعت قبيل وصولنا إلى جزيرة الكنز يحسن أن يعرفها القارئ.

فأول شيء يجدر ذكره ما وصل إليه السيد أررو من درك أحط مما كان يخشاه الكابتن. فكان غير محترم الجانب بين رجاله، وكان يخرج على ظهر السفينة وقد دكنت ملتقاه، واحمرت وجنتاه، وتلعثم لسانه، إلى غير ما هنالك من علائم السكر. وطالما كان يؤمر بالنزول إلى أسفل السفينة مخزياً. وكثيراً ما كان يظل طول يومه مستلقياً على فراشه إلى جوار منزل البحارة، وآناً كان يقع ويجرح نفسه، وآونة يقضي يوماً أو اثنين ثائباً إلى رشده يؤدي عمله بطريقة مقبولة نوعاً.

ولم نوفق في غضون ذلك لأن نكشف من أين له الشراب، وكان ذلك لغز السفينة لا يحل. فقد جعلنا نراقبه جهدنا ومع ذلك لم

نهتد إلى حل ذلك المشكل وإذا واجهناه بالسؤال، ضحك إن كان ثملاً فإذا كان صاحياً أنكر، وأجاب بكل تؤدة أنه ما ذاق سائلاً غير الماء.

ولم يقتصر ضرره على أنه عديم النفع كضابط لا نفوذ له بين رجاله، ولكنه كان في حال إذا استمر على هذا النمط فهو لا بد باحث عن حتفه في أقرب مدة، حتى إنه لم يُدهش أحد، أو يأسف كثيراً، عندما اختفى أثره بالمرة في ليلة ليلاء كان البحر فيها هائجاً مزبداً عظيم الموج شديد النوء.

فقال الكابتن: «لقد سقط في البحر، وإذ ذلك ليكفينا مؤونة ربطه بالأغلال».

بيد أننا أصبحنا بغير ربان فكان لا بد لنا من ترقية أحد الملاحين، وكان أنسب الجميع لذلك هو رئيس النوتيه جوب أندرسن Job Anderson، وبالرغم من أن لقبه لم يتغير فقد كان يشغل نوعاً ما وظيفة الربان. وكان السيد ترلوني ممن ركبوا البحر كثيراً، فأكسبه ذلك معلومات قيمة، جعلته جزيل النفع، حيث كان كثيراً ما يرصد بنفسه على ظهر السفينة إذا كان الجو معتدلاً. وكان مراقب الحركة هاندز Hands بحاراً قديماً حريصاً ذا دهاء وحنكة وخبرة بحيث يمكن أن يركن إليه عند الملمات بكل شيء.

وكان من أعظم ثقات جون سلفر، فتراني مَسُوقاً على ذكر اسمه لأن أتكلم عن طاهي سفينتنا «الشواء» كما اعتاد الرجال أن يسمونه.

وكان يحمل عكازه على ظهر السفينة بربطه إلى عنقه بحبل لكي تكون كلتا يديه مطلقتي الحركة بقدر الإمكان. وكان مشهداً حرياً بالرؤيا عندما كان يضغط أسفل عكازه في أحد الحواجز التي تفصل

أقسام جوف السفينة عن بعضها، ويستند إليه، ثم وهو يستسلم لكل حركات السفينة ويمضي في طهيه كمن هو آمن على الشاطئ. وأغرب من ذلك كله أنك كنت تشهده في أردأ الأجواء، وأشد الأنواء يمر على سطح السفينة. وكان له خط أو خطان مربوطان لمساعدته على اجتياز المسافات الفارغة وكان يطلق عليهما اسم أقراط جون سلفر، فكان يتنقل من مكان إلى مكان وهو يستعين بالعكاز آونة وآونة يتركه معلقاً بالحبل المربوط إلى عنقه وهو يسحبه على الأرض خلفه، ثم يسير في كل ذلك بسرعة لا تقل عن سرعة رجل سليم الساقين. على أن بعض الملاحين الذين أبحروا معه قبل ذلك كانوا يظهرون مزيد عطفهم على نقص قوته إلى هذا الحد.

ولقد حدثني مراقب الحركة إذ قال: «ليس طاهينا بالرجل العادي، فقد تعلم في صباه تعليماً حسناً، ويستطيع أن يتكلم باللغة الصحيحة الخالية من الخطأ إذا هو عُني بذلك، أضف إلى هذا أنه شجاع – فما كان الليث ليقاس بجون في شيء! فلقد شهدته يصارع أربعة ثم هو يضرب رؤوسهم ببعضها وهو من السلاح أعزل».

وكان سائر الملاحين يحترمونه، بل ويطيعونه. وكانت له طريقة خاصة من الحديث في مخاطبة كل فرد، وهو لا ينفك عن إسداء خدمة لكل منهم. وقد كان دائم العطف عليّ كثير السرور بمشاهدتي في المطبخ الذي كان يُعنى بنظافته، حتى يصبح كالمسمار الجديد، فكنت ترى الصحاف معلقة صقيلة. وقد وضع قفص ببغائه في أحد زواياه.

وكنتُ إذا غشيت مكانه صاح بي: «هلم إليّ يا هوكنز واسمع

من جون حكاية عن البحر، فأنت أجدر الإخوان بالتأهيل يا بني. اجلس واسمع الأخبار. فهذا الكابتن فلنت(*) – فإني أسمي ببغائي بهذا الاسم نسبة إلى القرصان الذائع الصيت كابتن فلنت – يتنبأ لنا برحلة موفقة، أليس كذلك يا كابتن؟».

فما إن ينتهي من حديثه إلى هذا الحد حتى يندفع الببغاء مردداً بمنتهى السرعة هذه الألفاظ «قطع من ذات الثمانية» – قطع من عملة ذهبية تعادل شلنين –، قطع من ذات الثمانية، قطع من ذات الثمانية، حتى يدركك العجب من عدم احتباس صوته فلا ينتهي حتى يلقي جون بمنديله فوق القفص.

وكان يقول في مثل هذه الأحوال: «إن هذا الطائر ليكاد يبلغ من العمر مئتي عام يا هوكنز، ويغلب على ظني أن هذا الطائر مخلد غير مائت، فما شهدت عين من المنكرات والفظائع أكثر مما شهده، اللهم إلا أن يكون إبليس. فقد أبحر مع إنجلز القرصان الشهير، ورافقه إلى مدغشقر Madagascar وساحل مالابار Malabar في الهند وسرينام Surinam وجزائر بروفدنس Providence وبروتوبلو Portobello. ولقد شهد استخراج السفن الغارقة المشحونة بالفضة، وهناك تعلم "القطع ذات الثمانية" ولا عجب، فلقد شهد ثلاثمئة وخمسين ألفاً منها يا هوكنز! ولقد شهد سفر نائب ملك الأنديز Indies من جاوا Joa فإذا نظرت إليه حسبته بعد في السنة الأولى من عمره. ولكنك شهدت الحروب والوقائع، أليس كذلك يا كابتن؟».

* ما يقال عن الببغاء، إنه ببغاء فلنت نفسه، وكان يستصحبه في غزواته، وقد آل إلى سلفر ثاني أعوان فلنت بعد بلي بونز.

فكان الببغاء يقول: «استعدوا للمسير».

ثم يقول الطاهي: «إنه لطائر عظيم» وهو يعطيه قطعاً من السكر من جيبه، فيعمد إلى نقر قضبان قفصه ثم يندفع بترديد أقبح السباب بسرعة يدفعها العقل. وهنا يردف جون بقوله: «لا يمكنك أن تلمس القار من غير أن يلوثك القار يا بني، فهذا طائري المسكين الهرم الساذج، يقذف الأقسام المتناهية في الرداءة، وكن على ثقة بأنه ما من أحد يدانيه في حكمته. ولو أن أمامه قسيساً كما يقولون لأقسم في حضرته بمثل ما سمعت». ثم إن جون كان يمرُّ بيده على شعر ناصيته بطريقة مهيبة خاصة، تجعلني بحيث أظنه خير الناس.

ولم تكن خلفية النزاع بين السيد ترلوني والكابتن سمولت قد سويت بالنسبة للأول، فكان تحقير الكابتن علناً. أما الكابتن فكان لا ينبس ببنت شفة حتى يُسأل، فإذا سئل كان جوابه مقتضباً جافاً وبكل احتراس، بحيث لا يحوي كلمة زائدة. وكان يصرح إذا أحرج مركزه بأنه أساء الظن بالملاحين، وأنه مُعجب بنشاط بعضهم، وأن لا بأس بسلوكهم جميعاً. أما السفينة فقد سُر بها سروراً جماً، حيث كان يقول إنها تلازم مهب الريح ملازمة لا يكاد يتوقعها رجل من زوجه على أنه كان يردف بقوله: «وكل ما أقوله إننا غير عائدين إلى أرضنا ثانياً، وإني كاره الرحلة».

فكان إذا طرحت أمثال هذه الكلمات على سمع السيد ترلوني، يميل بسالفتيه، ويشمخ بأنفه ثم يضرب في طول السفينة وعرضها جيئة وذهاباً ويقول: «ما هي إلا خرافة أخرى من سخافات هذا الرجل حتى ينشق إهابي».

ولقد زادنا ما صادفناه من تقلب الطقس واشتداد النوء في بعض الأحيان وثوقاً بمزايا الهسبنيولا. أما رجال السفينة فقد كانت علامات الرضا والقبول بادية على وجوههم. ولولا شيء من ذلك لاستعصى إرضاؤهم، لأني معتقد بأنه لم يخلق الله بحارة شر من هؤلاء مذ عبث الطوفان بسفينة نوح. فكانوا يقبلون على شرب الخمر بكميات كبيرة لأقل مناسبة، ويصنعون الفطير اليابس في الأيام ذات الأهمية. مثال ذلك إذا سمع السيد ترلوني بأنه عيد ميلاد أحد البحارة، ثم أن برميلاً من التفاح كان لا يبرح مفتوحاً في وسط السفينة ليأكل منه من أراد منهم حيثما لذ له الأكل.

وكان الكابتن كثيراً ما يقول للدكتور ليفزي: «ما رأيت حتى خيراً نشأ عن كل هذا التساهل، وإني معتقد بأنك إذا أفسدت رجال مقدم السفينة فإنك مُحولهم إلى شياطين وأبالسة».

على أن برميل التفاح أفاد فائدة عظيمة كما سترى، فلولا وجوده، لما أخذنا لأنفسنا مثقال ذرة من الحيطة والحذر، ولذهبنا ضحية الخيانة والغدر.

وهاك بيان الخبر.

كنا قد تعرضنا للريح التجارية ابتغاء الاهتداء لاستنباط موضع الجزيرة التي كنا ننشدها – والتي لم يصرح لي بالإفصاح عنها أكثر من ذلك – وكنا ساعتئذ نسير في سبيلها سيراً حثيثاً صباح مساء، بمنتهى الحيطة وغاية الحذر والتطلع، ففي أواخر أيام الرحلة، حيث كان ينتظر وصولنا على آخر تقدير في مساء ذلك اليوم أو ظهر اليوم التالي حيث تصبح جزيرة الكنز على مدى البصر منا. وكنا مولين وجوهنا شطر

شمال الشمال الغربي، وكان الهواء يضرب عمودياً باستمرار على طول السفينة، والبحر هادئ ساكن وكانت الهسبنيولا تمخر بمقدمها عباب البحر بثبات وهي تعبث من آنة إلى أخرى ببعض الزبد فتنثره في الهواء، وكانت كل الأمور سائرة بانتظام، وكل شيء في موضعه وسائر الملاحين وأهل السفينة في أشد حالات القوة، وأعلى درجات الحماسة، حيث كنا على وشك الإشراف على نهاية الجزء الأول من رحلتنا.

فلما كان الأمر قبيل الغروب، وقد فرغت من كل عملي وقفلت راجعاً إلى فراشي خطر لي أن أحظى بتفاحة، فعدوت على سطح السفينة وكان الرقيب متفرغاً للنظر أمامه لاستكشاف الجزيرة، وقد جعل الرجل المراقب يرقب نهاية الشراع وهو يصفر برفق ليرفه عن نفسه، فكان هذا هو الصوت الوحيد المسموع خلا خرير ماء البحر عند مقدم السفينة وحول حوافها.

فدخلت برمتي داخل برميل التفاح، فلم أجد فيه تفاحة واحدة، بيد أنني ما جلست هناك في الظلام وطرق سمعي خرير الماء، وحركة اهتزاز السفينة، حتى أشرفت على الإغفاء أو كدت. فإذا برجل جسيم جلس إلى جوار البرميل وصدمه في جلوسه فاهتز عندما أناخ عليه بكتفه، وكنت إذ ذاك على وشك أن أقفز منه لولا أن الرجل ابتدأ في الحديث. وكان الصوت صوت سلفر، وما إن سمعت اثنتي عشرة كلمة حتى أصبحت لا أجسر على أن أظهر نفسي لأحد ولو وُهبتُ العالم بأسره، فربضت موضعي مرتجفاً وجعلت أنصت للحديث وقد تملكني الرعب وأخذت مني الدهشة، حيث ظهر لي من هذه الاثنتي عشرة كلمة أن حياة كل الرجال الأمناء الذين في السفينة تتوقف عليّ.

الفصل الحادي عشر

ما سمعته
وأنا في برميل التفاح

قال سلفر: «لست أنا ممن يوضع لهم الشرك بسهولة، فقد كان فلنت القبطان وكنت أنا أمين الميرة وغيرها نظراً لهذه الساق الخشبية، ولقد فقد بيو الهرم بصره في نفس جانب السفينة التي كنت أقاتل فيها ساعة فقدت ساقي، وكان الجرّاح الذي بترها ماهراً رفيقاً خبيراً بصناعته، متخرجاً من الكلية، وعالماً مطلعاً باللاتينية وغيرها، على أنه شُنق كالكلب، وتُرك حتى جف في الشمس كباقي رفاقه عند قلعة كورسو Corso – رأس في فرنسا – وكان أولئك رجال روبرت Robert وسبب الموقعة تغييرهم لاسم سفينتهم "الحظ الملكي Royal Fortune" ...إلخ. وكان مبدأي أن ما دامت سفينة قد سُميت فليظل اسمها من غير تغيير، وكان هذا شأن كساندره Cassandra التي أرجعتنا سالمين من ساحل مالامار بعد أن أسر إنجلند والي جزر الهند، وكذلك كان حال ولرس Walrus – اسم حيوان بحري – سفينة فلنت القديمة، حيث شهدتها ملوثة بالدم الأحمر وعلى وشك أن تغرق من كثرة ما تحمله من الذهب الأصفر».

ولما كنت أصغي إلى هذا الكلام سمعت صوت أصغر بحارة

السفينة يقول وقد ظهرت عليه علائم الإعجاب: «لقد كان فلنت فخر كتيبته ونابغة أرومته».

فأجاب سلفر: «لقد كان دافيس رجلاً بكل معنى الكلمة، ولكنني لم أبحر معه مطلقاً، وكل تاريخي أني صاحبت إنجلند في غزواته، ثم بعد ذلك فلنت وها أنا الآن متطوع هنا كما يقولون. ولقد اقتصدت من وراء إنجلند تسعمئة جنيه، وألفين وأنا مع فلنت وجميعها محفوظة في المصرف والمبلغ في ذاته لا بأس به للبحار العادي مثلنا. وعليك أن تتأكد بأني ما كسبت هذا المبلغ على أني اقتصدته. فأين كل رجال إنجلند الآن؟ لست أدري! أم أين رجال فلنت؟ إن معظمهم هنا وكلهم مسرورون بما ظفروا به من العمل، وقد كان بعضهم يستندي الأكف قبل ذلك. أما بيو فقد كف بصره وكان قبل ذلك يخجل أن ينفق اثني عشر ألف جنيهاً في عامه كأحد لوردات مجلس النواب، فأين هو الآن، لقد مات وذهبت ريحه، ولكنه ظل قبل ذلك بعامين يبرح الجوع بأحشائه ويطوي في معظم أيامه على الشغب فكان يسأل ويسرق ويقتل، وقد مات على ذلك ورب السماء».

فأجاب البحار: «ولكن لم يجده ذلك نفعاً».

فقال سلفر: «ثق أن لا فائدة مطلقاً للأغبياء لا من هذا ولا من غيره، ولكن التفت إليّ، إنك غض الاهاب على أنك لرشيق نشط ذكي ولقد عرفت ذلك منك مذ وقع بصري عليك، وإني مخاطبك كرجل».

ولك أن تتصور ما شعرت به ساعة سمعت ذلك العجوز الشنيع المخادع، وهو يتملق غيري بنفس الألفاظ التي تملقني بها من قبل. وإنه ليذهب بي الظن أنه لو كان في الإمكان لقتلته وأنا في البرميل.

بيد أنه مضى أثناء ذلك في حديثه، من غير ان تداخله خُلَجات من الشك في أن هناك من يسمعه قال:

«وهاك شأن القرصان، إنهم يعيشون عيشة عنيفة، ويطرحون بأنفسهم مطارح خشنة من التغرير، حتى ليعرضوا أنفسهم للشنق في كل ساعة، على أنهم يأكلون ويشربون، كديكة الرهان، فإذا قفلوا من الرحلة الفيت جيوبهم عامرة بمئات الجنيهات بدل مئات السنتات. بيد أنهم يبدون معظم هذا في شرب الروم واستطراد جياد شهواتهم في ميادين القصف والعبث والمسرات، فإذا اقفرت من الذهب أيديهم عادوا إلى سيرتهم الأولى من ركوب البحر في قمصانهم. على أن هذه ليست خطتي فإني أوزع نقودي أجزاء. فأضع قسطاً هنا وقسطاً هنالك ولا أجمع شيئاً في مكان واحد مخافة الشبهات، ولاحظوا بأني أشرفت على الخمسين من عمري فإذا أنا قفلت من هذه الرحلة؛ أتظاهر بأني نبيل بالمعنى الصحيح – حسبنا ما أضفناه من عمرنا في المشقات – بيد أنني عشت عيشة راضية في غضون ذلك وما كنت لأمنع نفسي عما تشتهيه، فكنت أنام على فراش وثير، وآكل طعاماً شهياً لذيذاً طول حياتي، اللهم إلا إذا كنت في البحر. وقد بدأت مثلكم بحاراً عادياً».

فأجاب صاحبه: «هذا حسن، ولكن كل أموالك الباقية قد ذهبت الآن، ولست أحسبك مُغرراً بنفسك بعد ذلك بالذهاب إلى برستول مرة أخرى، أليس كذلك؟».

فسأله سلفر ضاحكاً: «ولِمَ كل ذلك؟ وأين تظنني مودع مالي؟».

فأجابه صاحبه: «في برستول، في المصارف والمحلات».

فقال سلفر: «لا شك في ذلك، فقد كانت مُودعة كما تقول عندما أقلعنا، ولكن زوجي لا بد أن تكون قد استولت عليها الآن. وأن تكون قد باعت حانة "المنظار" وحصلت على إيجاره وثمن الأثاث. ولا بد أنها قد ظعنت للقائي، وإني مخبرك أين يكون تلاقينا لأني واثق منك، بيد أن ذلك يحدث التحاسد بين الباقين..».

فسأله صاحبه: «وهل تثق بزوجك هذه؟».

فأجابه: «قلما يثق القراصنة ببعضهم البعض، وهم في ذلك محقون بلا ريب، على أن لي خطة خاصة أتبعها. فإذا اتفق أن أحد الرفاق خدعني وأقصد بذلك شخصاً يعرفني، فلن أتركه بعدها حياً يرزق. فقد كان بعضهم يخاف بيو، والبعض الآخر يهاب فلنت على أن فلنت بجلال قدره كان يخشاني، ثم هو يفاخر بخوفه مني. وكان بحارة فلنت أخشن أهل البحر عامة، فما كان حتى إبليس ليجسر على الإقلاع معهم. أما الآن فاسمعوا يا رفاق: لست أنا بالرجل الفخور الذي يزهو بنفسه، ولقد شهدتم بعيونكم مبلغ لطف معاشرتي، على أنني يوم كنت ضابطاً في سفينة فلنت، كنت أضرى من ذئب، حيث لم يكن ثمة حملان بين رجال فلنت، أجل يجمل بكم أن تتثبتوا من أنفسكم في سفينة جون الهرم».

فأجاب الصبي وهو يقول: «لقد كنت حتى الساعة زاهداً في هذه السفرة، راغباً عنها أما وقد سمعت حديثك الساعة، فإني معك الآن وهاك يدي».

فأردف سلفر بقوله: «وإنك لفتى شجاع ذكي لبيب»، وجعل يهز

يده بعنف حتى جعل البرميل يهتز اهتزازاً وقال: «إني ما شهدت نموذجاً ظريفاً أشبه منك بالنبلاء الثريين؟».

وهنا بدأت أفطن لمعنى أساليبهم فما كان قصدهم بكلمة «نبيل ثري» إلا لص البحر المعروف، وكان المنظر الصغير الذي شهدته، آخر دور مثَّل لإفساد خلق أحد الرجال المخلصين لنا، ولعله آخر الباقين من أولئك. بيد أنني ما لبثت أن رُفه علّي من هذه الوجهة حيث صفر سلفر صفيراً خاصاً فانحدر شخص ثالث وجلس إلى جوار الجماعة.

فقال سلفر: «إن ديك Dick لمخلص مستقيم».

فأجاب هاندز: «عرفت بأن ديك مخلص وأنه ليس بالغبي» قال ذلك وقلب قطعة الدخان التي يمضغها في فيه وبصق. ثم إنه مضى في حديثه قائلاً: «ولكن أنصت إليّ أيها الطاهي: أريد أن أعرف إلى متى نظل محجوزين، وإلام نبقى على هذه الخطة، كأننا بعض قوارب التموين. فلقد طفح مني الكيل من الكابتن سمولت، حتى أصبحت عاجزاً عن احتمال مضايقته أكثر من ذلك، وإني لأتلهب شوقاً لأن أدخل الحجرة وأظفر بما يستمتعون به من مازاوات ونبيذ وأطايب».

فصاح به سلفر: «اسمع يا هاندز لست يا بني بالفطن، ولا عهد لرأسك بالحكمة من قبل، بيد أنك تستطيع أن تسمع على ما أظن، فأقل ما يكون أن أذنيك كبيرتان. فأنصت يا بني لما أقول: امضِ في عملك، وتحمل المضض، وتلطف في حديثك، وابق ثائباً إلى رشدك؛ حتى أصدر كلمتي، وعليك أن تأخذ نفسك بذلك يا بني».

فأجاب مراقب الحركة متذمراً: «لم أعترض على شيء مما تقول، ولكني أسألك متى ذلك، وهذا كل ما أقول».

فصاح به سلفر: «هل تريد معرفة الساعة! بالله! أما وأنك تريد معرفة الساعة، فإني أخبرك متى تقوم. إنما الساعة هي آخر لحظة أقدر فيها على الاستمساك أمام مهاب أهواء الظروف. تلك هي الساعة». فهذا الكابتن سمولت رجل من خيرة رجال البحر، وهو يكفينا مؤونة تسيير السفينة المبروكة بأنفسنا، وعندنا ذلك السيد ترلوني والدكتور ومعهما الرسم وما شابه، ولست أدري مكان الرسم بالضرورة، وأنّى لي معرفة مكانه؟ ولا إخالك زائداً على ما قلت. حسن فإني أقصد أن السيد ترلوني والدكتور سيجدان الكنز ثم هما يساعداننا على إيصاله للسفينة ورب السماء، فإذا تم ذلك أنفذنا ما عنّ لنا. ولو كنت على ثقة بجميعكم يا أولاد السخفاء لما أوقعت بالقوم حتى يرجع بنا الكابتن سمولت إلى منتصف الطريق».

فأجاب الفتى ديك: «وما الذي يُريبك منا، وكلنا على ما أرى بحارة على ظهر السفينة».

فقال سلفر هازئاً: «تعني بأن جميعنا بحارة في مقدم السفينة. قد يكون أننا نستطيع إنفاذ خطة ما، ولكن من ذا الذي عساه يرتب لنا تلك الخطة؟ وهذا هو كل ما يولد الشقاق بينكم أيها الرجال أولاً وآخراً، ولو أنني تُركت لإنفاذ خطتي، لما تسرعت بأمر قبيل أن يرجع بنا الكابتن سمولت إلى نصيب الرياح التجارية على الأقل. وعندئذ لا يرهقنا بعد ذلك بسوء حسابه، ولا يعود يوزع بيننا الماء بالفطرة، ولكنني عجنتكم عجناً وقلبتكم قلباً وعلى ذلك فسأضطر برغمي لأن أفتك بهم

على الجزيرة حالما يتم نقل الكنز إلى السفينة. بيد أنكم لا تسرون إلا إذا ترنحت بالخمر أعطافكم، فالويل لي منكم، فإن قلبي مصدع من سفري مع أمثالكم».

فصاح به هاندز: «هون عليك يا جون، فمن ذا الذي يعاندك ويغضبك؟».

فأجاب سلفر بقوله: «كم من سفينة ضخمة تظنوني شهدتها تُدمر، وكم من قرصان قوي رأيته معلقاً تحرقه الشمس على مشنقة الإعدام؟ وما كل ذلك إلا بسبب هذه العجلة وذلك التسرع وتلك المجازفة، هل فهمتم. ولقد شهدت في البحر أمراً أو اثنين، فلو أنكم وضعتم لأنفسكم خطة وتحينتم الفرص لتبوأتم أرائك العربات تجري بكم جيادها عنقاً. ولكنني أعرف أنكم مائقون يجمل بكم الفقر، ولا يليق بوجهكم الغنى. فلتملأوا بطونكم في الغد خمراً وشأنكم وما تريدون».

فصاح به هاندز: «عرفت الجميع بأن عليك لمسحة خاصة من مسح القسوس؛ ان هنالك من يستطيع أن يقود ويسوس مثلما تقدر، وكل ما في الأمر أن للرفاق ولعاً بشيء من القصف والمرح. فهم لا يخلون من النقص على أي حال، بيد أنهم يأخذون بنصيبهم من السرور شأن إخوان الصفاء».

فأجابه سلفر: «إنه لكما تقول، ولكن أين هم الآن؟ لقد كان هذا شأن بيو وها هو قد قضى وهو يستتدي الأكف. وكان ذلك شعار فلنت وقد ذهب فريسة الروم حيث لقى حتفه في الهضبة. أجل لقد كانوا إخوان صفاء ولكن أين هم! وايان ذهبوا؟».

ثم قاطعه ديك بقوله: «وماذا ترانا فاعلون بهم إذا نحن قلبنا لهم ظهر المجن».

فصاح الطاهي مُعجباً: «هذا الرجل الذي أفخر به. وهذا هو ما اسميه العمل المهم بعينه، فماذا تظن الأنسب عمله؟ هل نتركهم على شاطئ الجزيرة ونغادرهم مهجورين فيها كما كانت عادة إنجلند. أو نذبحهم ذبح الأنعام كأنهم بعض صغار الخنازير، وهذه عادة فلنت وبلي بونز».

فقاطعه هاندز قائلاً: «لقد كان بلي فارس هذه الجولة، ولكنه ميت، والموتى لا يفقهون حديثاً؛ أجل إنه ميت الآن، وقد عرف نهايته، ولو أن بحاراً خشناً مات على البر فليكون ذلك بلي».

فصاح به سلفر: «إنك لمحق فيما تقول. فقد كان خشناً حاضر الذهن. ولكن لاحظوا أنني رجل سهل المراس. فأنتم تقولون إني مثال الرقة، ولكن جاء أوان الشدة فاشتدي، فلا مفر من الواجب يا إخوان وإني مقترح قتلهم. لأني أشفق إذا تربعت على إحدى منصات مجلس النواب أو تبوأت أريكة عربتي، أن يدهمني أحد هؤلاء المحامين البحريين راجعاً من منفاه على غير موعد. كأنه الشيطان ساعة الصلاة. فكل ما أقوله تريثوا، ولكن إذا جاءت الساعة فلنقتلهم جميعاً، ولا نُبقي منهم على أحد».

فصاح به مراقب الحركة: «إنك رجل يا جون».

فأجابه سلفر: «سوف تقتنع بصحة مُعتقدك عندما ترى بعيني رأسك. وإني لا أبغي إلا واحداً وهو ترلوني. ولسوف أفصل رأسه – التي تحاكي رأس العجل – عن جسمه بيدي هاتين».

ثم أردف يقول: «هلم يا ديك إلى برميل التفاح فوافني بواحدة يا بني أرطب بها حلقي».

وإني أترك لك تصور هول ما حل بي من الرعب، فلو أنني أوتيت مثقال ذرة من القوة لقفزت من موضعي وركضت كالأيل. على أن قوتي خارت وخانني قلبي.

سمعت ديك يحاول النهوض، على أنه خيل إليّ أن آخر منعه، ثم إن هاندز صاح مستنكراً وقال: «ألا تُمسك عن رشف ذلك السائل الكدر يا جون، إلينا بشيء من الروم يا رجل».

فقال سلفر: «إني مؤتمنك يا ديك فخذ هذا المفتاح يا بني، واملأ طاساً وعد به إلينا، واذكر بأني واضع على البرميل مقياساً».

بيد أنه بالرغم من شدة ما حل بي من الرعب أمكنني أن أستنتج السبيل الذي كان يُحضر منه السيد أررو ذلك السائل القوي الذي أودى به.

وما إن ذهب ديك حتى جعل هاندز يهمس أثناء غيابه في أذن الطاهي، فلم أستطع أن أسمع أكثر من كلمة أو اثنتين. بيد أنني استخلصت منهما أخباراً مهمة. فإنه فضلاً عما قرع أذني من النتف التي تؤدي إلى معنى واحد، فإني سمعت هذه الجملة برمتها: «لن يشاطرنا من الباقين أحد، فإن السفينة لا تزال تحوي رجالاً أمناء».

فلما رجع ديك جعل ثلاثتهم يرشفون كل واحد نهلة من الطاس، فأول جرعة كانت نخب الحظ، والثانية نخب فلنت الهرم، وقد قال سلفر نفسه بنغمة شبيهة بالغناء: «وهذا نخبنا، فأمسكوا ألسنتكم، تنالوا جوائز كثيرة، وطعاماً وفيراً».

وهنا شعرت بشبه نور وقع عليّ في البرميل، فلما رفعت بصري شاهدت القمر قد أشرق، وأطل من ليقته الفضية البيضاء على شراع مؤخر السفينة. وانعكس ضوؤه الأبيض على نهاية القلع الأمامي، وفي الوقت نفسه اخترق هذا السكون المخيم صوت المراقب يقول: «الأرض».

الفصل الثاني عشر

مجلس الحرب

ازدادت ضربات الأقدام على جانب السفينة، ولقد أمكنني أن أسمع قوماً من الحجرة ومقدم السفينة يتركون فراشهم. فأنسبت في لحظة إلى خارج البرميل، واحتجبت خلف القلع الأمامي وانثنيت راجعاً نحو المؤخرة، ثم ظهرت على سطح السفينة حيث التقيت بهنتر Hunter والدكتور ليفزي وهما يركضان نحو القلع غير المعرض للريح.

وكان سائر الملاحين قد اجتمعوا هنالك وقد ارتفع نطاق من الضباب ساعة ظهور القمر. فرأينا على مدى البصر منا في جنوب غربي الجزيرة زوجاً من التلال يبعد أحدهما عن الآخر بنحو ميلين. ينبثق خلف أحدهما وعلى كثب منه تل ثالث أرفع منهما طويلاً. وكانت قمته لا تزال محتجبة داخل حُجب كثيفة من الضباب. وقد كان ثلاثتهم مخروطي الشكل مدببين.

وكأنما شهدت كل ذلك في حلم، حيث كان أثر الهول الذي داهمني مذ دقيقة أو اثنتين لا يزال آخذاً بلبي، حائلاً بيني وبين عقلي. وهنا سمعت الكابتن سمولت يصدر أوامره. وكانت الهسبنيولا قد قربت من مجرى الريح درجتين، وقد جرت ساعتئذ في طريق يجعل مرأى الجزيرة واضحاً من الشرق.

ثم قال الكابتن: «الآن أيها الرجال، أما وقد أصبحنا قاب قوسين أو أدنى من المكان الذي نقصده، فهل شهد منكم أحد قبل اليوم هذه الأرض التي أمامكم».

فصاح به سلفر: «رأيتها أنا يا سيدي، فقد مررت بها على مركب تجاري كنت طاهيها».

فسأله الكابتن: «يُخيل إليّ بأن المرسى في جنوبي الجزيرة، خلف جزيرة صغيرة؟».

فأجابه الطاهي: «ما تقول يا سيدي، وهم يسمونها جزيرة الهيكل العظمى وكانت يوماً مركزاً مهماً للصوص البحر، وكان معنا في السفينة هذه رجل – يقصد السيد أررو – يعرف سائر أسمائها».

أما هذا التل المتجه نحو الشمال هنالك فاسمه تل الصاري الأمامي. وهنالك ثلاثة تلال على خط واحد تقع تجاه الجنوب، واسمها الأمامي، والرئيس، والأخير، أما الرئيس فهو التل الأكبر الذي يحف قمته نطاق من الضباب، وهم يسمونه عادة المنظار بسبب كونهم يرقبون منه ما إذا كانوا في المرفأ ينظفون السفينة حيث كانوا يطهرون سفنهم بلا مؤاخذة.

فأجابه الكابتن سمولت: «عندي رسم هنا فانظر إذا كان يمثل هذا المكان بعينه».

فالتهبت عينا جون الطويل في رأسه عندما لمست أنامله قرطاس الرسم، على أن جدّة الورق أفقدته الأمل. ولم يكن هذا هو الرسم الذي وجدناه في حقيبة بلي بونز على أنه كان صورة طبق الأصل منه، كاملة في كل شيء من أسماء ومرتفعات وأغوار لا

ينقصها سوى الخطوط المتقاطعة الحمر والمذكرات المكتوبة، ولكن بالرغم من شدة استيائه البالغ، فقد كان له من قوة عقله ما جعله يتمالك عاطفته.

فأجاب: «أجل يا سيدي هذا رسم هذه البقعة بعينها، وهو رسم متقن، فمن يكون ذاك الذي رسم هذا، إني لأعجب؟ فإني أعترف بأن القرصان أجهل من الجهل، فأني لهم مثل هذا. أجل هذا هو الرسم بعينه، فهذا مرفأ الكابتن كد Kidd وهو نفس الاسم الذي كان يطلقه زملاء البحر على المكان، وهنا تيار شديد يجري جهة الجنوب ثم يتجه نحو الشمال تلقاء الشاطئ الغربي، وإنك لمحق يا سيدي في تحويلك الجمع إلى جهة أخرى، حيث ليس ثمة هنالك في هذه الأماكن محل أنسب من هذا للدخول والامالة به»، فأجابه الكابتن سمولت: «شكراً لك على هذا وسأدعوك فيما بعد لتمدنا برأيك، والآن فلتذهب».

ولقد دهشت من شدة جمود جون في تصريحه بمعلوماته عن الجزيرة، وإني لأعترف بأني شعرت كأنما ذعرت عندما دنا مني، ولا مشاحة في أنه لا يعرف بأنني سمعت مؤامراته من البرميل، بيد أنه ما كاد يلمس بيده ذراعي، حتى أحسست بدبيب الفرق من قساوته وفرط نفاقه واقتداره، فلم أتمالك أن أخفي ارتعادي.

فقال: «إن هذه الجزيرة لبقعة جميلة، يُسرُّ فتى مثلك بالنزول فيها، فسوف تسبح في أنهارها وتتسلق أشجارها، وتصطاد جداءها، وتصعد تلالها كأنك بعض تلك الجداء. أجل إن هذه الذكرى لتكاد تعيد إليّ الشباب، حتى أوشك أن أنسى ساقي الخشبية». ثم أردف يقول: «أن ثق يا بني بأنه جميل أن يكون الإنسان فتياً، وأن يكون له ساقان

وعشرة أصابع. فإذا أردت أن تستكشف مختلف بقاع الجزيرة فما عليك إلا أن تطلب من جون يعد لك طعاماً لطيفاً تحمله معك في تجوالك».

فإذا انتهى من حديثه عند هذا الحد لكمني على كتفي بكل مودة وتدليل ومضى يدرج، ذاهباً إلى أسفل السفينة.

وكان الكابتن سمولت والدكتور ليفزي والسيد ترلوني يتحادثون ملياً على سطح مؤخر السفينة. ورغماً من شدة قلقي لأن أفضي لهم بجملة خبري، بيد أنني لم أجسر على مقاطعتهم علانية، وبينما أنا مجد في تدبير عذر مقبول، دعاني الدكتور إلى جواره، وكان قد ترك غليونه في أسفل السفينة ولما كان شديد الولع بالتدخين، أراد أن أوافيه به، على أنني ما دنوت منه بقدر ما أستطيع محادثته من غير أن يسمعني أحد، حتى قلت بغير تردد، عندي حديث أريد أن أقوله يا دكتور، فخذ الكابتن والسيد ترلوني إلى الحجرة السفلى، ثم اختلق بعد ذلك سبباً لدعوتي، فإن عندي لخبراً تكاد السموات تطفرن منه، وتنشق الأرض وتخرّ الجبال همداً.

فتغيرت طلعة الدكتور شيئاً ولكنه ما لبث ملك حواسه، ثم صاح بصوت عال: «شكراً لك يا جيم فهذا كل ما أريد أن أعرفه» كأنما كان قد سألني شيئاً.

قال ذلك ودار على عقيبه، ثم وافى صاحبيه، فتحادثوا لحظة وبالرغم من أنه لم يرفع منهم أحد طرفه ولا صوته أو حتى يدمدم فقد ظهر لي أن الدكتور أفضى إليهم بطلبي. حيث لم يلبث الكابتن أن أصدر أوامره إلى جيب أندرسن وفي لحظة كان الملاحون قد تقاطروا على جانب السفينة.

ثم خطب الكابتن سمولت فيهم قائلاً: «يا أبنائي عندي كلمة أوجهها إليكم؛ إن هذه الأرض التي رأيناها إنما هي البقعة التي قطعنا المراحل سعياً في الوصول إليها، ولما كان السيد ترلوني رجلاً مبسوط الكف، جزيل الكرم، كما نعلم جميعاً، فقد سألني سؤالاً أو سؤالين، ولما أخبرته بأن كل رجل منكم قد أدى واجبه تماماً بكيفية ما كنت لأتوقع أحسن منها، فلذلك سيصحبني السيد الدكتور إلى الحجرة لنشرب نخبكم وحظكم، وسوف يقدم إليكم خمراً لتشربوا نخب صحتنا وحظنا، أما عن رأيي الخاص في ذلك فهو إنه أمر جميل، وكرم نادر، فإذا أنتم وافقتموني فلتهتفوا للسيد الذي أمر لكم بذلك.

ولا نزاع في أنهم لم يترددوا في الهتاف لساعتهم، بيد أن أصواتهم رنت عالية قوية كأنما هي صادرة من أعماق قلوبهم، حتى إنه داخلتني خلجات من الشك في أن أولئك القوم أنفسهم كانوا يرسمون الخطط، ويشعبون السبل للعبث بأرواحنا وسفك دمائنا.

وما كادت موجات الهواء المتأثرة برنين الهتاف السابق تسكن حتى انبرى جون سلفر وصاح بصحبه: «فلنهتف أيضاً لكابتن سمولت» فلبى سائرهم بحماسة ورغبة.

وعند ذلك هبط الثلاثة إلى قاع السفينة، ولم يطل بهم الأمد حتى بعثوا في طلبي مع رجل يقول: «جيم هوكنز مطلوب في الحجرة».

وما إن دخلت عليهم حتى رأيت ثلاثتهم جلوساً حول المائدة وأمامهم زجاجة خمر إسباني، وبعض العنب المجفف، وجعل الدكتور يدخن بضجر، وقد وضع شعره المستعار في حجره. وكنت أعرف بأنه

لا يفعل ذلك إلا إذا كان مستاء. وكان شباك مؤخر السفينة مفتوحاً حيث كان المساء حاراً. وكنت ترى القمر يتألق على أثر السفينة في الماء.

ثم قال السيد ترلوني: «الآن يا هوكنز تقول إن لديك أخباراً فحدثنا بما وراءك».

فصدعت بأمره، وأخبرته بعبارة مختصرة كل تفاصيل حديث سلفر، ولم يقاطعني أحد حتى أنهيت، وقد ملك الحديث عليهم مشاعرهم فلم يتحرك منهم أحد، بيد أنهم عقدوا أبصارهم على وجهي من أول الحديث إلى آخره.

وما إن انتهيت منه حتى صاح بي الدكتور: «اجلس يا جيم».

ثم أجلسوني إلى جوارهم حول النضد، وصبوا لي كأساً من النبيذ، وملأوا يدي بالعنب المجفف، وقد شرب ثلاثتهم الواحد بعد الآخر نخب صحتي، مظهرين احترامهم على توفيقي وجرأتي وقد انحنوا جميعاً باحترام إذ فعلوا ذلك.

وهنا صاح السيد ترلوني بالكابتن: «لقد أصبت يا سيدي وأخطأت، وإني معترف بجهلي وغباوتي، نازل منذ الساعة من أمرك».

فأجاب الكابتن: «لست انت بأجهل مني يا سيدي فما سمعت بخبر بحارة يسبق إصرارهم على التمرد، ثم هم يظهرون بوادره، واضحة لكل ذي عين باصرة، تستطيع اتخاذ التدابير لقمعها قبل حدوثها، إلا هؤلاء؛ فإنهم خدعوني».

وهنا قاطعه الدكتور بقوله: «معذرة يا كابتن فهذا سلفر رجل داهية».

فأجاب: «يظهر واضحاً وهو في نهاية باحة السفينة، ولكن ما هذا إلا حديث خرافة فما هو بمغن عن أنفسنا شيئاً. بيد أنني أرى نقاطاً ثلاثاً أو أربعاً. إذا أذن السيد ترلوني فإني ذاكرها».

فأجابه السيد ترلوني بعظمة قائلاً: «أنت الكابتن يا سيدي فلك أن تتكلم».

فأجاب الكابتن: «قبل أي شيء علينا أن نمضي في سبيلنا حيث لا يمكن أن نرجع، ولئن أصدرت أمري بالمسير، فهم لا مشاحة غير متريثين عن التمرد.

ثانياً: أمامنا من الوقت متسع حتى نظفر بالكنز على الأقل.

ثالثاً: عندنا رجال مخلصون، ونحن لا بد مضطرون يوماً إلى القتال. ولا يسعنا إلا تحين الفرص إذا سنحت، على ما جاء في سائر الأمثال، ثم نمعن فيهم فتكاً وتقتيلاً في ساعة لا تخطر لهم ببال، وأحسبنا نستطيع الاعتماد على خدمك يا سيدي؟».

فأجابه السيد ترلوني قائلاً: «لا ريبة في ذلك فأنت قادر على الاعتماد عليهم بقدر اعتمادك على شخصي».

فأجاب الكابتن: «خدم السيد ترلوني ثلاثة ونحن وهوكنز أربعة، والآن فهل نجد بين البحارة أحداً يوالينا».

فأجاب الدكتور: «اغلب ظني أنه يمكننا أن نثق بالرجال الذين انتخبهم السيد ترلوني بنفسه، قبل أن يهتدي إلى سلفر».

فرد عليه السيد ترلوني: «كلا لا يمكننا الاعتماد على أولئك فهذا هانذر أحدهم وقد جاراهم في تآمرهم».

فقال الكابتن: «كنت أحسب أن في الإمكان الوثوق بهانذر».

فصاح به السيد ترلوني قائلاً: «إن مجرد علمي بأن جميعهم إنجليز ليرهقني من أمري عسراً حتى ليكاد يخيل إليّ أن أنسف السفينة».

فقال الكابتن: «حسن يا سادة، ليس عندي ما أزيده لقولي، فيجب أن نصبر إذا حسن الصب لديكم، وأن نظل على أشد من رَوقة الظبي خوفاً وحذراً. ولو أن الانتظار شديد على النفس، وكان خيراً لنا أن نقاتلهم، ولكن لا مبرر لذلك حتى نعرف رجالنا. ولا أرى لنا رأياً سوى الثبات والصبر وتحين الفرص إذا سنحت».

فأردف الدكتور بقوله: «وهذا جيم في وسعه مساعدتنا أكثر من أي إنسان. فإن الرجال لا يتحفظون أمامه. وهو فتى دقيق الملاحظة».

فأجاب السيد ترلوني بقوله: «إن ثقتي بك يا هوكنز لكبيرة عظيمة».

فداخلتني خلجات من القنوط من جراء هذا المديح حيث شعرت بأن لا حول لي ولا طول. بيد أنها دورة عجيبة من دورات الحظ صادفتني فكنتُ سبب نجاة أصحابي.

وفي الوقت نفسه فقد كان الأمناء الذين نستطيع أن نعتمد عليهم لا يتجاوزون السبعة من الستة والعشرين، وأحد أولئك السبعة صبي، فعلى ذلك يصبح الرجال ستة إزاء تسعة عشر. فما كان إطراؤهم عليّ بمغن عن أنفسهم شيئاً.

القسم الثالث

اقتِحَامي الشَّاطِئ

الفصل الثالث عشر

كيف بدأ اقتحامي للشاطئ

حين صعدت على ظهر الباخرة في صبيحة اليوم التالي، الفيت مظهر الجزيرة قد تغير أيما تغيير. ولو أن النسيم كان أشد ما يكون سكوناً، إلا أننا قطعنا مسافة بعيدة أثناء الليل. وكنا نتحرك حركة هادئة على مسافة نصف ميل من جنوب شرق الساحل المنخفض. وكان جزء متسع من سطح الجزيرة مغطى بغابات سنجابية اللون، ويتخلل تلك الصبغة المتجانسة خطوط من الرمل الأصفر في الأراضي المنخفضة، وتشذ عن مستواه شجرات شامخة الطول من صنف شجر الصنوبر، تراها آونة متفرقة آحاداً، وآونة متجمعة أعداداً. بيد أن اللون العام كان متجانساً كئيباً. أما التلال فكانت قممها الحجرية العارية مرتفعة ظاهرة فوق الخضرة وكلها غريبة المنظر. بيد أن المنظار كان يبين جميع التلال بثلاثمئة أو أربعمئة من الأقدام. وكان أعجب التلال شكلاً ومنظراً، حيث يذهب في السماء واضح القوام من سائر نواحيه تقريباً، ثم هو ينتهي فجأة بقطع في أعلاه فيخيل إليك أنه بعض قواعد التماثيل.

وكانت الهسبنيولا تتهادى متمايلة من جانب إلى جانب في بطن المحيط. وكانت قاريات السفينة تحاول الانفصال عن بكراتها، وجعل الجمع يتحرك ذات اليمين وذات اليسار، محدثاً لجباً وضوضاء عالية. والسفينة كلها تقرقع وتصر وتهتز كأنها بعض المصانع. فكان لا بد لي من التمسك بالحبل المتدلي من الصاري. وخيل لي كأنما الدنيا تلف أمام بصري كالمصاب بالدوار، ذلك أنه رغماً عن كوني أصبحت بحاراً لا بأس به أثناء الطريق، على أنني ما اعتدت أن أقف هذه الوقفة من غير أن تجيش نفسي، أو يصيبني شيء من الدوار، خاصة في مثل هذه الساعة المبكرة وأنا طاوي الحشى.

ولعل ذلك هو السبب، أو لعله مظهر الجزيرة بغاباتها السنجابية المحزنة، وأحجارها الناتئة العارية، وأمواج بحرها الزاخر التي تحدث خريراً كهزيم الرعد وهي تضرب بقوة في أكناف ساحلها العمودي الانحدار. وبالرغم من أن الغزالة كانت ترسل من ذائب أشعتها خيوطاً لوامع ساخنة، وقد علت أصوات الطيور الساحلية وهي تصيد السمك حائمة حولنا، وكان يصح أن يطرب أحدنا للنزول على شاطئ الجزيرة بعد طول المدة التي قضيناها في البحر، إلا أنه دب في نفسي دبيب من الكراهية لتلك الجزيرة مذ شهدتها. وكأنما كان قلبي يسبح داخل صدري من شدة الرعب.

كان أمامنا عمل شاق في ذلك الصباح، حيث لم يكن ثمة من أثر لهبوب الريح، وكان لا بد من حل القوارب وملئها بالرجال. وأن نسحب السفينة ثلاثة أو أربعة أميال حول زاوية الجزيرة، وداخل الممر الضيق إلى المرفأ خلف جزيرة الهيكل العظمي. فتطوعت في أحد

القوارب ولم يكن ثمة من داع لوجودي، وكانت الحرارة شديدة محرقة، وقد جعل الرجال يتنمرون بفظاعة على عملهم، وكان جيب أندرسون صاحب الأمر في القارب الذي نزلت فيه، بيد أنه بدلاً من أن يجتهد في حفظ نظامه، أخذ هو أيضاً في التذمر أكثر من الباقين.

ثم قال مقسماً: «لا بأس فما هذا الشاق بدائم».

ولقد حسبت بأن هذه بادرة سيئة، حيث كان الرجال حتى ذلك اليوم يؤدون واجبهم بجد ونشاط ورغبة. بيد أن مجرد رؤية الجزيرة كان كافياً لحل خيوط النظام وتفكيك عراه.

وكان جون الطويل واقفاً إلى جوار مراقب الحركة يقود السفينة طول مدة دخولنا إلى المرفأ. وكان يعرف الطريق معرفته بخطوط راحته، ولو أن الرجل المنوط بسبر الأغوار كان يجد حيثما ذهب أغواراً أعمق من المبينة في الرسم، بيد أن ذلك ما كان ليحدو بسلفر على التردد مرة.

فكان يعلل ذلك بقوله: «إن الجزر يصحبه تيار عنيف، وإن هذا الممر سهل مأمون كأنما مُهدد كما يقولون بمعول».

ثم وقفنا عند النقطة المبين عندها المرفأ في الرسم، على نحو ثلث ميل من كل من الساحلين، ساحل الأرض القارة على أحد الناحيتين وجزيرة الهيكل العظمي من الجهة الأخرى. وكان قاع البحر رملياً نظيفاً. وقد أزعج صوت إلقاء المرساة أسراباً من الطيور فجعلها تحوم وتصيح فوق الغابات، ولكن ما هي إلا دقيقة حتى نزلت إلى الأرض ثانية ثم خيم السكون الشامل.

كان المكان الذي رسينا فيه محوطاً بالأرض من كل جانب

تقريباً، بحيث يكون بمعزل عن عبث الرياح وتأثير الأمواج، ثم يكاد يكون مدفوناً في الغابات، حيث امتدت أشجارها حتى كادت تمس الخط المرسوم على جانب السفينة، الذي يجب أن يظل دائماً فوق الماء، والشواطئ تكاد تكون مسطحة، وقد ذهبت رؤوس التلال في السماء على شكل نصف دائرة، واحد هنا وواحد هناك. وكان نهران صغيران، أو إن شئت مستنقعان يصبان في هذه الحفرة التي نحن فيها، كما يمكنك أن تسميها إذا أردت. وكانت أوراق الأشجار المنثورة ذات بريق منغص. وكان من المتعذر علينا أن نبصر بشيء من المنزل أو السياج، حيث كانا مدفونين تماماً بين الأشجار، ولو لم يكن من الرسم الذي معنا، لخيل إلينا بأننا أول من أرسى هنالك مذ بزغت تلك الجزيرة من أعماق البحر.

ولم يكن ثمة من نسمة ريح تهب، ولا صوت يسمع، باستثناء خرير الأمواج على الساحل الذي يبعد عنا نحو نصف ميل، وحركة هديرها على الصخور الناتئة. وكان ثمة رائحة عفنة تخيم على المكان الذي أرسينا فيه، ولعلها رائحة الأوراق المبتلة وجذوع الأشجار المعطنة. ولقد بُصرت بالدكتور يدفع الهواء من أنفه المرة تلو المرة ممتعضاً كمن يشم رائحة بيض فاسد.

حيث قال: «لست أعرف من شأن الكنز شيئاً، على أنني موقن أن الحمى متفشية في هذا المكان».

ولئن كان سلوك الرجال مرعباً وهم في الزوارق، فقد أصبح هائلاً مروعاً عندما صعدوا إلى سطح السفينة فما كادت تستقر بهم الأقدام على سطحها حتى جعلوا يحومون فيها وهم يدمدمون معاً

بغضب وشراسة. ثم جعلوا يتلقون أتفه الأوامر بنظرات سوء سوداء، وينفذونها بغير رغبة ولا اكتراث.

ولعل العدوى قد سرت إلى المخلصين أنفسهم، حيث لم يكن ثمة في السفينة رجل يرشد صاحبه، أو يقوم معوجه. وبالإجمال فقد كانت مظاهر التمرد بادية في أوضح معانيها.

ولم نكن نحن فقط معشر أهل الحجرة الذين فطنا إلى الخطر المحدق، ولكن جون كان أشد ما يكون اشتغالاً، حيث ظل يتنقل من جماعة إلى جماعة، وهو يكلف نفسه تقديم أغلى النصائح وأفضل الارشادات لأصحابه، أضف إلى ذلك أنه كان المثل الأعلى الذي يصح أن يُقتدى به، بحيث كان يتعذر على أي فرد سواه أن يظهر بمثل مظهره، حتى أوشك أن ينهك نفسه رغبة في العمل، وتلطفاً في أدائه، وقد بالغ في محاسنة كل من يلقاه، وهو لا يفتر عن الابتسام. فإذا أصدر أمراً، رأيته وقد انتصب على عكازه في لمحة عين، وهو يتدفق سروراً ثم هو يقول: «لبيك يا سيدي» فإذا لم يكن ثمة من عمل يؤديه الفيتة يغني الأغنية تلو الأغنية ابتغاء أن يستر امتعاض أصحابه.

ولم يرعنا شيء من المظاهر المقبضة التي شهدناها في أصيل ذلك اليوم الأغبر، بقدر ما هالنا ارتباك جون الظاهر الجلي.

ولذلك لم نجد مندوحة عن عقد مجلس في الحجرة.

فقال الكابتن: «لو أنني أصدرت أمراً بعد هذا يا سيدي، لأحدق بنا سائر الملاحين في لحظة، فما أصدرت أمراً إلا جوبه بالجواب الجاف كما ترون. وإذا رددت عليهم القول لأدى ذلك إلى تعانق

الأسنة وإذا لزمت الصمت فطن سلفر إلى أن وراء الأكمة ما ورائها وبذا يفتضح الأمر».

فليس لدينا الآن إلا رجل واحد نعتمد عليه.

فسأله السيد ترلوني: «ومن يكون ذلك الرجل».

فأجاب الكابتن: «إنه سلفر يا سيدي، فإنه مثلي ومثلك أشد ما يكون حرصاً على إخفاء الأمور والتستر عليها. ولو عرضت له فرصة بحيث يمكنه أن يبعدهم عن هذا التخاصم لفعل، فما ضرنا لو أننا قدمنا له الفرصة، وذلك بأن نسمح للرجال أن يتنزهوا على الشاطئ في أصيل هذا اليوم. فإذا ذهبوا لم يبقى لنا ثمة مجال للمشاحنة؛ وإذا لم يذهب منهم أحد، فإنا متحصنون بالحجرة ومقاتلوهم قتالاً نحب معه الموت. وإذا ذهب البعض فلتوقن بأن سلفر لا بد راجع بهم وهم كالحملان الوديعة».

فعملنا على الأخذ برأي الكابتن. وهيأنا المسدسات المحشوة وزودنا بها كل من نثق به من الرجال؛ وقد كان من بين من وثقنا بهم هنتر وجويس وردرث وقد تلقوا الأخبار من غير تعجب ولا انزعاج، مما لم نكن لنتوقعه منهم. ثم صعد الكابتن إلى ظهر السفينة وخطب في البحارة قائلاً:

«إخواني، لقد كان يومنا شديد الحرارة، ولا ظنة في أن سائرنا متعب منهوك ضيق النفس، فلا بأس من أن تعرجوا على الشاطئ ساعة؛ فالزوارق لا تزال في الماء، وهي تحت إمرتكم، وليذهب منكم من شاء في هذا الأصيل؛ وإني مطلق مدفعاً قبل الغروب بنصف ساعة، ترجعون إذا سمعتموه».

وأغلب ظني أن أولئك الأغرار لم يسمعوا بالتصريح حتى اعتزموا أن يكسروا سيقانهم ويدموا أقدامهم،بحثاً وتنقيباً عن الكنز،حالما يصلون إلى سطح الجزيرة. فما إن انتهى الكابتن من خطابه حتى علت أصواتهم بعد خفوتها، وهتفوا هتافاً عالياً ردد صداه تل بعيد، فذعرت الطيور من أماكنها مرة أخرى، وجعلت تحلق حول المرفأ صاخبة.

وكان الكابتن أحكم من أن يعترض سبيلهم، فما إن لفظ كلماته حتى اختفى عن الأنظار في لحظة، تاركاً سلفر لترتيب الجماعة، وأحسبه أحسن صنعاً بعمله. فلو أنه ظل على سطح السفينة، لما استطاع ان يتظاهر بعدم إدراكه لحقيقة الموقف، حيث كان أظهر من الشمس في يوم صائف. فقد كان القبطان هو سلفر وكان بحارته رجالاً أشداء متمردين عصاة؛ أما المخلصون – ولم ألبث أن أيقنت من وجود رجال مخلصين في السفينة – فلا بد أنهم كانوا من الغباوة بمكان؛ أو بالأولى كان البحارة جميعاً ساخطين متأثرين بزعماء العصابة، ولم يكن هناك ثمة ما يميز أحدهم عن الآخر، اللهم إلا تفاوت هذا الأثر شدة وضعفاً، ولما كان جلهم طيب المنبت من المبدأ، ظلوا ثابتين، وأصبح من المتعذر تحويلهم عن غرائزهم. والبون شاسع بين رجل بليد صامت، وبين آخر عازم على الاستيلاء على سفينة، وهدر دماء عدد من رجالها الأبرياء.

وأخيراً تم تأليف الجماعة، فأسفرت أن ظل ستة رجال في السفينة، وشخص ثلاثة عشر رجلاً بما فيهم سلفر إلى الجزيرة.

وهنا عنَّت لي أول تلك النزعات التي كانت مدعاة لانتشالنا من بين براثن التهلكة.

أما وقد ترك سيلفر ستة أنفار، فقد كان من الظاهر أن جماعتنا ما كانت لتقوى على الاستيلاء على السفينة والذود عنها. ولما كان الباقون ستة فقط، كان من البديهي أيضاً أنهم ليسوا في حاجة كبيرة لمساعدتي. فخطر لي أن أذهب مع الذاهبين إلى الشاطئ. فقفزت إلى أقرب الزوارق بأسرع من رجع الصدى. واحتجبت في مقدم القارب، وما كدت أستقر حتى تحرك.

ولم يلحظني أحد منهم سوى المجدف الذي كان في المقدمة، حيث قال: «هل أتيت معنا يا جيم؟ ألا اخفض رأسك». بيد أن سلفر حدد بصره من القارب الثاني وسأل ليعرف ما إذا كنت أنا معهم. ومن تلك اللحظة ندمت على قدومي بهذا الشكل.

أما البحارة فقد تسابقوا بقواربهم نحو الشاطئ، بيد أن القارب الذي كنت فيه كان قد تحرك قبل زميله، وكان في الوقت نفسه أخف القوارب وأحسنها رجالاً، فمر إلى الأمام مرور السهم الراشق سابقاً رفيقه. ثم اصطدم بأقرب الأشجار التي على شاطئ الجزيرة، فتمسكت بفرع وطفرت مطوحاً نفسي على الشاطئ متوغلاً في أقرب أجمة، بينما كان سلفر ومن معه على مسافة مئة قدم منا.

وقد سمعته يصيح قائلاً: «جيم، جيم».

على أنني لم أعره التفاتاً، بل ظللت أقفز وأنثني، مخترقاً الأدغال، منكس الرأس حتى أدركني التعب، ونال مني الكلال فعييت عن استئناف العدو.

الفصل الرابع عشر

الضربة الأولى

بلغ من فرط جذلي بنجاتي من جون الطويل أنني بدأت أرفه عن نفسي، فجعلت أقلب بصري بشيء من اللذة في الأرض الغريبة التي كنت عليها.

وكنت قد مررت ببقعة كثيرة المستنقعات مملوءة بأشجار الصفصاف والخلالات Bulrushes وبعض النباتات البرية الغريبة التي تنمو في المستنقعات؛ أما الآن فكنت قد أشرفت على حدود متسع من أرض رملية غير مستوية السطح، يبلغ طولها ميلاً، موسومة ببعض أشجار الصنوبر وعدد من الأشجار الملتوية المشوهة الشكل تشابه في قوامها شجر البلوط، على أن أوراقها تشابه ورق الصفصاف في لونها الباهت. وكان أحد تلال الجزيرة قائماً عند نهاية ذلك المتسع، ولهذا التل قمة مزدوجة غريبة الشكل من الصخر المدبدب، وهي تلمع متألقة تحت أشعة الشمس المنعكسة عليها.

فشعرت لأول مرة بغبطة الاستكشاف. أما الجزيرة فكانت غير آهلة بأحد. ولم يكن أمامي ثمة شيء من مظاهر الحياة، فقد تركت أصحابي خلفي، فأصبحت لا أرى إلا بعض الوحوش الكاسرة والدجاج؛ فجعلت أحوم هنا وهنالك بين الأشجار. وكنت حيثما حولت بصري أشهد نباتات مزهرة لا عهد لي بمثلها من قبل، وقد انتشرت

الأفاعي في كل ناحية، ورفعت إحدى هذه الحيات عنقها من خلال طبقة صخور ناتئة وفحت عليّ بصوت شبيه بأزيز الدوامة. وما كان ليذهب بي الظن إلى أنها عدو قاتل، وإن صوتها هو الصليل المعروف.

على أنني أشرفت على أجمة طويلة من تلك الأشجار الشبيهة بالبلوك – التي عرفت فيما بعد بأن اسمها السنديان الحي، أو الدائم الاخضرار – وكانت واطئة كالعوسج والعليق، وأغصانها عجيبة الالتواء، وأوراقها متلبدة كالغماء – قش يصنعون منه السقوف – ثم إن الأجمة كانت ممتدة من إحدى الروابي الرملية وقد أخذت أشجارها تزيد ارتفاعاً كلما زادت انبساطاً، حتى تصل إلى حافة المستنقع العريض المملوء بالقصب، حيث كان يتخلله أحد الأنهار الصغيرة في مجراه إلى المرفأ. وكان المستنقع يتبخر تحت تأثير حرارة الشمس الشديدة؛ وقد لاح طيف المنظار كأنما يضطرب داخل ذلك النطاق من الضباب.

وإني لكذلك إذ شعرت فجأة بحدوث حركة في الخلالات – نوع من النبات – حيث طفرت منه بطة برية صائحة وتبعتها أخرى، وما هي إلا لحظة حتى انتشر فوق أديم المستنقع سرب هائل من البط، وأخذ يصيح ويدور في الفضاء. فاستنتجت لساعتي بأنه لا بد أن يكون بعض رفاقي من الملاحين يقتربون من حدود المستنقع. ولم يكذب حدثي، حيث لم أفتر إن سمعت أصوات بشرية على مسافة مني. وكنت كلما أرهفت السمع زادت الأصوات وضوحاً واقتراباً.

فروّعني ذلك أيما روع، ثم لذت بظل أقرب شجرة بلوط، وجلست القرفصاء مرهفاً السمع كالجرذ الصامت.

فسمعت صوتاً يجيب غير الصوت الأول، ثم إن صاحب الصوت الأول، الذي ما برحت أن عرفت أنه سلفر، رجع إلى استئناف قصته من جديد، حيث كان مستطرداً في حديثه مدة لا يقاطعه فيها صاحبه إلا غراراً، وكانت لهجة حديثهما تدل دلالة واضحة أنهما يتكلمان في موضوع خطير ذي بال؛ يغلب أنهما كانا يتحدثان بشراسة وحدة، بيد أنه لم تطرق سمعي كلمة واضحة.

ثم ظهر أخيراً بأن المتكلمين قد كفا عن الحديث آونة، ولعلهما جلسا على الأرض؛ وقد كفت الطيور عن الحركة ولزمت جانب السكون. ورجعت إلى مكانها من المستنقع.

وهنا شعرت بأني أهمل واجبي؛ فما دمت قد طرحت بنفسي ذلك المطرح الخشن من التغرير ولم أحجم عن مرافقة أولئك الأشرار، فلا أقل من أن أسترق سمع ما يقولون في مجالسهم. فكان لا بد لي من الدنو منهم على قدر المستطاع، لأنفذ خطتي وأؤدي واجبي تحت ستار هذا المخبأ من الأشجار المتدلية الأغصان.

وكان من السهل عليّ أن أدرك تماماً مكان المتحادثين، ليس فقط بتتبع جهة صوتهما، ولكن من حركات الطيور القليلة التي ظلت محلقة فوق رؤوس المتطفلين، فشخصت نحوهما زاحفاً على قدمي بجأش رابض وبطء زائد حتى وصلت إلى ثغرة بين الأوراق، ما رفعت رأسي لأرى منها حتى شهدت جلياً سلفر وأحد بحارة السفينة واقفين يتحدثان وجهاً إلى وجه في وهدة صغيرة خضراء إلى جوار المستنقع تحيطها من عامة النواحي أشجار متقاربة.

وكانت الشمس مشرقة بقوتها على كليهما، وقد ألقى سلفر

قبضته على الأرض إلى جواره، وقد رفع وجهه الأشقر الكبير المشرق بتأثير الحرارة نحو صاحبه كالمستخبر.

وكان يقول: «يا صاح، إني واثق أنك رجل كريم نبيل أفهمت؟ إني أحسن الاعتقاد بك، فلتكن على ثقة من ذلك! ولولا أني أحسب لك كبير حساب، أفتظنني كنت أكلف نفسي مؤونة الحضور إلى هنا محذراً إياك؟ ولقد قضي الأمر، فأنت اليوم عاجز عن رد ما فات أو تلافيه، وما حدا بي على مخاطبتك إلا فرط حرصي على انتشالك من بين براثن التهلكة، ولو أن أحد الرفاق الخبثاء عرف بالأمر، فأين ترى يكون مصيري يا توم Tom؟ حدثني بربك ما ترى القوم فاعلوه بي؟».

فأجابه صاحبه وقد احمر وجهه، وخشن صوته، فآض كنعيب الغربان وجعل يتهدج كالوتر المشدود «إنك يا سلفر كبير السن أمين أو على الأقل معروف بالأمانة، وعندك أيضاً نقود ليست لكثيرين من البحارة المساكين، ولا ريب عندي في شجاعتك، فخبرني بربك ما الذي يحدو بك بالانقياد وراء هذه الطغمة من الأوغاد المارقين؟ وعهدي بمثلك لا يرضى بهذا! فيا للرب الذي أؤمن بأنه مشرف علينا، عارف بعملنا، إنه لأهون عليّ أن أفقد ذراعي من أعق واجبي».

ثم جعلته جلبة فجائية يمسك عن حديثه، هذا وقد فهمت من الحديث أن توم مخلص أمين – على أنني ما لبثت أن نمى إليّ خبر آخر يؤيد أمانة فرد سواه. وذلك أن صوتاً يشابه صيحة الغضب رن صداه بعيداً على جانب المستنقع فجأة ثم أعقبته صيحة ثانية، وأخيراً سمعت صرخة طويلة هائلة، رددت صداها صخور المنظار نحو عشرين دفعة، ففزعت أسراب طيور المستنقع وحجبت وجه السماء

بجرمها الأسود القاتم، وقد جعلت تحف بأجنحتها حفيفاً متواصلاً في الوقت نفسه. وبعد فترة من سماع صرخة ذلك المائت التي ما فتئت ترن في ذهني، عاد سلطان السكون فشمل هذه البقعة، ولم يبق ثمة من صوت يتخلل سكون ذلك الأصيل سوى خشخشة الطيور المتواقعة، وهدير الأمواج البعيدة.

وقد طفر توم ساعة سمع تلك الصيحة كما يطفر الجواد إذا همز. بيد أن سلفر لم يتحرك له ساكن، بل وقف حيث كان، وقد اعتمد على عكازه شيئاً، وجعل يرقب صاحبه كالأرقم إذا تحفز للوثوب.

ثم صاح توم بصاحبه وقد مد إليه يده قائلاً: «أي جون».

فصاح به سلفر وقد قفز إلى الخلف ثلاثة أقدام بسرعة اللاعب المدرب: «إياك أن تلمسني!».

فأجابه صاحبه بقوله: «ليكن ما تريد، ولكن إشفاقك مني، وسوء ظنك بي لدليل على شر نفسك، وسواد قلبك، ولكني مقسم عليك لتُخبرني بجلية الخبر».

فأجابه سلفر مبتسماً بدهاء وهو على أشد من روقة الظبي حيطة وحذراً، وقد استحالة مقلتاه إلى نقطتين دقيقتين في وجهه الكبير، بيد أنهما كانتا تتألقان كأنهما شظيتان من الزجاج البراق:

«تريد أن تعرف ما هذا، إنه على الأرجح آلان Alan».

وهنا أخذت توم عزت البطولة فقال وهو يقطر غضباً:

«أهو آلان، ألا سقى الله نفسه، فقد كان بحاراً بكل معنى الكلمة، أما أنت يا جون سلفر فقد كنت صديقي طويلاً، أما اليوم فما

أنا بعد بصاحبك، فإذا مُتُ كالكلب فإنما أموت في واجبي. لقد قتلتَ آلان أليس كذلك؟ فاقتلني أنا أيضاً إذا قدرت؛ بيد أنني أحتقرك ولا أخشاك».

وما إن وصل البطل في حديثه إلى هذا الحد حتى ولى ظهره شطر الطاهي وأطلق ميمماً الشاطئ على أنه لم يكن مقدوراً عليه أن يتجاوز إلا قليلاً، وإذا بجون يمسك بفرع شجرة ويبعد عكازه من تحت إبطه، ويرسل المرماة الخشنة المخترقة الهواء فتصطدم بسنانها توم المسكين بين كتفيه بقوة هائلة، فأصابه لذلك دوار شديد، وذهبت يداه صاعدة إلى فوق، ثم لهث لهثة عالية وخر على وجهه.

ولا يعرف أحد ما إذا كان قد أوذي إيذاء شديد أم لا، ولكن من المعقول جداً أن نحكم من صوت الطعنة بأنها قضت ظهره على الأثر. بيد أنه لم يمهل حتى يستفيق، فقد وافاه سلفر موافاة القدر، وطفر نحوه كأنه في خفته بعض القردة مع أنه كان بغير ساق ولا عكاز. وفي لحظة كان فوقه، وقد أغمد نصل مديته إلى مقبضها دفعتين في جسده الذي لا يملك صاحبه عن نفسه دفاعاً. ولقد سمعته وأنا في مخبأي يلهث بصوت عال وهو يطعنه.

ولست أعرف حقيقة الإغماء، بيد أنني شعرت في اللحظة القصيرة التالية لتمثيل هذا المشهد على مرأى مني، كأن الدنيا تسبح أمامي، وكأنما هي دائرة في ضباب فكان سلفر والطيور وقمة المنظار العالية تدور دوراناً مستمراً، وهي مقلوبة رأساً على عقب. كما خيل إليّ أني أسمع رنين أجراس بعيدة، وصياح أصوات نائية تطن في أذنيَّ.

فلما ملكت رشدي، كان الوحش سلفر قد استجمع حواسه وأعاد

عكازه إلى مكانها من إبطه، ووضع قبعته على رأسه. وقد ارتمى توم أمامه تماماً بلا حراك على الحشائش. بيد أن القاتل ما كان ليعنى به مثقال ذرة، ولكنه جعل ينظف نصل مديته الملوث بالدم، بخصلة من الحشيش. وكأن كل شيء سوى ذلك في موضعه لم يتغير، فالشمس ما زالت مشرقة بغير رحمة على المستنقع المتبخر، وهي تتألق فوق قمة الجبل العالي، وكان عزيز عليّ أن أقنع نفسي بأن حادثة قتل قد وقعت أمامي حقيقة، وأن حياة بشرية أهلكت بغير رحمة مذ لحظة على مشهد مني.

وهنا وضع سيلفر يده في جيبه، وأخرج صفارة جعل يصوّت بها أنغاماً مرخمة خاصة، رنت مخترقة ذلك الهواء الساخن، وقد أعجزني بالضرورة إدراك المقصود بهذه الإشارة. بيد أنها ما لبثت أن أيقظت كامن خوفي؛ فأشفقت من أن رجالاً آخرين قد يكونون مقتربين، وقد يؤدي ذلك إلى استكشاف مخبأي. سيما قد قتل رجلين من الأمناء منذ هنيهة، ولعله ممثل بي ما مثل بتوم وآلان.

فبدأت لساعتي أبتعد عن مكاني، وزحفت راجعاً بما استطعته من سرعة وسكون إلى الجزء الأكثر انبساطاً من الغابة. وإني لكذلك، إذ نزلت بسمعي أصوات عالية تتردد بين القرصان العتيق سلفر وبين أصحابه. فضاعف من سرعة هذا الصوت المؤذن بالخطر، فما كدت أظفر بالخروج من الأجمة، حتى عدوت بسرعة لا عهد لي بمثلها من قبل، من غير أن ألتفت إلى الجهة التي أدبرت منها، ما دامت تبعدني عن القتلة، وكلما زدت ركضاً، ازددت خوفاً حتى انتهى بي الأمر إلى أن مسني طيف من الخبل.

وحق لي أن تتخلع شعبة من مهجتي، فمن ذا الذي كتب عليه ضياعه مثلي؟ فكيف أجسر إذا أطلق المدفع على النزول في القوارب بين أولئك المتمردين الذين ما زالوا ملطخين بآثار جرائمهم الحديثة؟ أفلا يدق أولهم عنقي كأني شُنقَب Snipe – طائر – أفلا يكون مجرد غيابي وتخلفي دليلاً على خوفي وبالضرورة برهاناً على ما اتصل إليه علمي من الأسرار الهائلة؟ فعرفت أنه قضي الأمر، فسلام على الهسبنيولا وعلى السيد ترلوني وعلى الدكتور والكابتن؛ فلم يبق ثمة من باب أطرقه غير الموت جوعاً، أو أن يقتلني الثائرون.

وكنت طول هذه المدة أركض بقوة الاستمرار من غير أن أفطن إلى ذلك، فأشرفت على سفح التل الصغير ذي القمة المزدوجة، ووصلت إلى صقع من الجزيرة تنمو فيه أشجار السنديان متفرقة على مسافات متباعدة، وكانت أقرب في شكلها إلى أشجار الغابات؛ ويختلط بهذه بعض أشجار صنوبر متفرقة تتراوح أطوالها بين الستين وحوالي السبعين قدماً. كما كان هواؤها أكثر نقاوة من الهواء المجاور للمستنقع.

وهنا دهمني هول جديد، جعلني أجمد في موضعي، خافق القلب.

الفصل الخامس عشر

رجل الجزيرة

إنهار ركام من الحصى والرمل من جانب التل، وكان وقوفي عند موضع صخري سحيق الانحدار، فانساب الحصى والرمل مقرقعاً متوثباً بين الأشجار. فتحولت عيناي بالفطرة إلى ذلك الاتجاه، حيث شهدت جرماً يقفز بسرعة خلف جذع شجرة صنوبر. ولقد أعجزني تمييزه بحال، سواء أكان دباً، أم إنساناً، أم قرداً على أن كل ما عرفته أنه كان قاتماً خشناً مشعثاً. ولكن خوفي من هذا الطيف الجديد، جعلني أجمد في موضعي لا أحير حراكاً.

وكأنما تقطعت بي الأسباب، فأمامي هذا الجرم الشاذ يرصدني، وورائي أولئك القتلة السفاحون. وقد عنّ لي في لحظة أن أوثر ما أعرفه من الخطر على ما لست أعرفه، حتى إن سلفر نفسه، بدا لي أقل فظاعة بالنسبة إلى هذا المخلوق الوحشي. فنكصت على عقبي، ثم حددت بصري ونظرت خلفي من فوق كتفي محترساً، وبدأت أترسم مواقع أقدامي، وانثنيت راجعاً جهة القوارب.

وللحال عاد ذلك الجرم إلى الظهور، ثم دار حولي في دائرة واسعة، مجتهداً أن يردني عن الجهة التي وليت وجهي شطرها. بيد أنني كنت قد أخذ مني الجهد، وأعياني التعب على أنني موقن بأنه حتى لو أنني كنت في قوّتي قبل أن أبدأ بالهروب، لاستعصت عليّ

مباراة ذلك الخصم القوي في سرعة عدوه. فكان يمر مرور الأيل من شجرة إلى شجرة، بيد أنه كان يجري على قدمين كسائر الناس، ولو أنه يختلف عنهم في فرط تحدب ظهره أثناه عدوه، حتى لتكاد تحسبه مزدوجاً. على انني أتأكد من أنه إنسان لا ريب فيه ولا لبس يخفيه.

فدار بخلدي ما سمعته عن أكلة اللحوم البشرية وكنت على وشك الاستنجاد. ولكن مجرد يقيني من أنه إنسان بغض الطرف عن مبلغ توحشه، أفرخ روعي شيئاً، وبدأ خوفي من سلفر يزداد بالقياس إلى جزعي من ذلك الكائن. ولذلك وقفت في موضعي لا أتحرك، وجعلت ألتمس لنفسي مخرجاً من ذلك المأزق، وإني أقدح زناد فكري إذا نزلت برأسي ذكرى مسدسي، وما إن فطنت إلى أنني لست من السلاح أعزل، حتى عاود قلبي نور الشجاعة، ووليت وجهي بعزم ثابت شطر رجل الجزيرة هذا.

وكان قد اختفى إذ ذاك خلف جذع شجرة أخرى، ولا بد أنه جعل يرقبني بكل يقظة؛ حيث إني ما كدت أسير نحوه، حتى عاد إلى الظهور، ثم خطى نحوي خطوة ليلاقيني. وبعدئذٍ تردد وتقهقر، ثم عاد إلى التقدم؛ وأخيراً لفرط دهشتي وارتباكي، ألقى بنفسه على ركبتيه. ومد إليّ يديه المشبكتين متوسلاً مبتهلاً.

وهنا لم يسعني إلا ان أعود إلى الوقوف فسألته: «من تكون؟».

فأجاب: «أنا بن جن Ben Gunn» وكان صوته قبيحاً، كالقفل الذي علاه الصدأ. ثم أردف قائلاً: «أنا بن جن المسكين، نعم أنا هو، ولم أتكلم مع مسيحي في هذه السنين الثلاث».

وهنا استطعت أن أدرك بأنه رجل أوروبي مثلي، يكاد يكون

جميل الوجه، وكانت الشمس قد لوّحت كلما عُرض لها من جلده. حتى إنك لترى شفتيه سوداويتين، فكانت عيناه الصافيتان الجميلتان، تظهران غريبتين في هذا الوجه البالغ من السواد. وكان شيخ الشحاذين الذين رأيتهم أو تخيلتهم من حيث رثاثة ملابسه. فكان يرتدي أثمالاً بالية من خيش سفينة قديم، ويلبس ملابس بحرية رثة رديمة. وكانت رقع ثيابه مربوطة إلى بعضها بمجموعة من الأواصر لا تناسب بينها مطلقاً؛ فمن أذرى نحاسية، إلى قطع من الدبق إلى عقد وعرى من الجلد المطلي بالقطران. وقد تمنطق عند حقويه بمنطقة من جلد قديم ذات عقد نحاسي. فكانت هذ القطعة هي الجزء الوحيد المتماسك في كل ملابسه.

فصحت به متعجباً مستنكراً وقلت: «أحقاً قضيت ثلاث سنوات منفرداً! هل كُسرت سفينتك؟».

فقال: «نعم يا أخ؛ إنما تركني أصحابي».

وكنت قد عرفت ذلك من قبل، وفهمت بأنه إنما يعني به ضرباً من العقاب مريعاً كان شائعاً بين جماعة القراصنة، وبيانه أن يزودوا المذنب بقدر من البارود، وشيء من الرصاص، ثم هم يخلّفونه على شاطئ جزيرة قاحلة نائية.

ثم استطرد في حديثه قائلاً: «أنزلت على الشاطئ المهجور وتركت للقدر منذ ثلاث سنين مضت، فكنت أقتات بالماعز والتوت والمحار. وكان شعاري حيثما ذهب الإنسان فهو قادر على استنباط سبل العيش. بيد أنني لا أكتمك يا صاح بأن نفسي متلهفة للطعام الذي يأكله الناس، أفلا يتفق أن تكون معك قطعة من الجبن هنا

الآن؟ طبعاً لا يوجد معك، أليس كذلك؟ لا بأس، فكم من ليلة تعيسة كنت أحلم فيها بالجبن – الجبن المحمص غالباً – فإذا استيقظت ألفيتني صفر اليدين كما كنت».

فأجبته بقولي: «لئن قدر لي الرجوع إلى السفينة مرة أخرى، فإنك مصيب الجبن بالحجر[*]».

وكان طول هذه المدة يلمس بأصابعه قماش سترتي، ويلمس يدي، وينظر إلى حذائي، وبالإجمال فقد جعل يظهر في فترات حديثة سروراً صبيانياً لوجوده في حضرتي؛ بيد أنني ما كدت أصرح بجملتي الأخيرة حتى رفع رأسه بعجب، وحملق فيّ بشيء من الدهاء المستفز.

ثم قال مردداً ألفاظي السابقة: «إذا قُدّر ورجعت إلى السفينة، فهل هنالك ثمة من أحد يمنعك؟».

فأجبته: «لست أعنيك بقولي بالضرورة».

فأجاب: «لأنت محق في يقينك، ولكن ما اسمك يا صاح؟».

فأجبته: «اسمي جيم».

فردد اسمي مرتين وهو يتظاهر بفرط السرور وقال: «آه، يا جيم. لقد عشت معيشة يكاد يخجلك سماع تفاصيلها، فقد كان لي أمّاً تقية كانت تتعهدني بعنايتها».

فقلت: «لِمَ لا، ألا يكون ذلك مؤكداً».

فأجاب: «حسناً، ولكنني كنت عظيم التقى، وكنت صبياً مؤدباً ورعاً، حتى لأستطيع أن أتلو تعاليم أصول الإيمان بسرعة تكاد لا تستطيع أن تميز معها الكلمة من الأخرى. وكانت النتيجة يا جيم

* الحجر - وزن قيمته 14 رطلاً إنكليزياً - (المترجم).

أني ابتدأت حياتي بالمقامرة، وكانت أمي تنبهني في كل مرة وتتنبأ عن كل هذا، كانت تتنبأ هذه السيدة الورعة، ولكن الله هو الذي أراد بأن أكون هنا، ولقد ذكرت كل التعاليم الدينية هنا، وعدت إلى التقوى ثانية، فلا تراني أشرب الروم كثيراً، اللهم إلا بعض قطرات بقصد الترويح، أشربها بإذن الله في أول فرصة تعرض، فإني مضطر لأن أكون طيباً، وأنا أرى السبيل إلى ذلك أيضاً».

ثم نظر حوله وخفض صوته وقال: «وإني فوق كل ذلك غني يا جيم».

وهنا أيقنت أن البائس لا بد أن يكون قد اختبل في وحدته، وأحسبني أظهرت شعوري بذلك على أسارير وجهه، وذلك لأنه عاد إلى تقريره بكل حماسة قائلاً:

«إنما أقول إني غني! غني! وإني مخبرك بالأمر، وجاعل منك رجلاً يا جيم، آه يا جيم، لسوف تبارك توفيق جدك، وطالع سعدك، لأنك كنت أول من عثر بي!».

وهنا ظهر على محياه فجأة طيف تهديد، فضغط يدي في قبضته، ورفع سبابته أما عيني مهدداً وقال:

«ألا خبرني بربك يا جيم، هل هذه سفينة فلنت؟».

وهنا رفه عني، وبدأت أعتقد أني ظفرت بحليف، فأجبته لساعتي قائلاً:

«ليست هذه بسفينة فلنت، فقد مات فلنت، ولكنني غير ممسك عنك من الأمر شيئاً، ما دمت قد استحلفتني، فإن بعض ملاحي السفينة لسوء حظ الباقين، هم من رجال فلنت».

فسألني بلهفة: «أليس بينهم رجل ذو ساق واحدة؟».

فسألته ما إذا كان يعني سلفر.

فقال: «آه، سلفر! هذا هو اسمه».

فقلت: «إنه الطاهي وزعيم العصابة».

وكان لا يزال ممسكاً رسغي، فما كدت أفضي إليه بما أفضيت حتى ثناها وقال:

«لئن يكن جون الطويل هو مرسلك فإني طيب كلحم الخنزير، وأعرف ذلك منك، فأفتك بك، ولا أدعك تذهب».

فعزمت لوقتي أن أفضي إليه بجملة الخبر وبسطت له كل حكاية رحلتنا رداً على سؤاله وعرّفته بالمأزق الحرج الذي ألقينا أنفسنا فيه؛ فجعل ينصت لحديثي بمنتهى الجذل، ولما فرغت منه جعل يملس على رأسي وقال:

«إنك فتى طيب يا جيم وأنت تقول أنكم جميعاً في ظروف خطرة، أليس كذلك؟ ولكن هونوا عليكم، وضعوا ثقتكم في بن جن فإنه فارس هذه الجولة»، ثم سألني قائلاً: «هل تثق بأن السيد يظهر بمظهر حر الفكر إذا أنا مددته بالمعونة، وهو على ما تذهب من حرج الموقف؟».

فأجبته: «إنما السيد هو مثال حرية الضمير».

فأردف يقول: «لست أبغي أن يجعلني حارساً لأحد أبوابه، وينفحني بذلة خدم رسمية، فما هذا قصدت ولا إليه ذهبت. وإنما أريد أن أسالك، هل يعقل أن لا يعطيني ألف جنيه مثلاً، من النقود المضمونة في اليد».

فأجبته: «لا ريب عندي في أنه يرضى بذلك، حيث إن ملاحي السفينة سيظفرون بنصيب من المال».

ثم عاد فحدجني بنظرة دهاء وقال: «ولست أحسبه يبخل عليّ بأن يحملني معه إلى بلدي؟».

فأكدت له أن السيد ترلوني لا يضن عليه بذلك، فهو رجل نبيل، وفوق ذلك فإنا محتاجون إلى مساعدتك إذا تخلصنا من العصاة، لتعاونا على الرجوع بالسفينة.

فقال: «آه.. إذاً لا ظنة في أنكم ستأخذوني معكم». فانشرح للأمر.

ثم قال: «إنني مخبرك الآن ما هو شأني بالموضوع، كنت في سفينة فلنت لما دفن الكنز، وكان معه ستة من البحارة الأقوياء وقد ظلوا على الشاطئ نحو أسبوع، وكنا راسين على بعد منهم فوق سطح السفينة ولرس. ففي يوم رقت قلائل صحوه، ارتفعت الإشارة وانقلب فلنت منفرداً في قارب صغير، وقد لفّ رأسه بوشاح أزرق، وكانت الشمس لا تزال في المشرق، وقد كان على وجهه بياض قاتل، ظهر في إثر القارب، ولكنه كان حياً لم يصب بسوء، أما الستة الذين رافقوه فقد قتلهم ودفنهم، أما كيف قتلهم فأمر حار فيه كل رجال السفينة، ولا بد أنها كانت موقعة وقتال ثم إنها موت فجائي على الأقل، فقد وقف منفرداً في وجه ستة. وكان ربان السفينة ساعتئذٍ هو بلي بونز، وكان جون سلفر رئيس البحارة، فسألاه أين أودع كنزه، فأجاب: يمكنكم أن ترجعوا إلى الشاطئ وتمكثوا هناك إذا أحببتم، أما السفينة فلا بد لها من الإقلاع في طلب المزيد من الذهب».

هذا وقد مضى على الأمر ثلاث سنوات، فاتفق إن مررت عند انقضائها في سفينة أخرى ثم بصرنا بالجزيرة، فأومأت إلى صحبي، هلموا يا رفاق إلى الجزيرة لنبحث عن كنز فلنت فقد أودعه هذا المكان. فكره الكابتن ذلك، على ان الإخوان رغبوا فيه فأرسينا، وأوسعنا الجزيرة بحثاً وتنقيباً، اثني عشر يوماً كاملة، وكانوا كلما مضى يوم زادوني لوماً وتعنيفاً، حتى إذا كان من صباح يوم معتدل عاد سائرهم إلى السفينة، ثم أعطوني فأساً ومعولاً، وقالوا امكث أنت وابحث لنفسك عن كنز فلنت.

«وهكذا يا جيم ظللت هنا ثلاث سنوات لم أذق فيها مضغة من طعام، ولكن التفت إليّ وانظر، هل ينبئ شكلي إنني من البحارة العاديين؟ قل لا، وأنا أقول إنني لم أكن بحاراً».

وهنا يغمز بعينيه، ويجذبني بعنف ثم يقول:

«اذكر هذه الكلمات للسيد يا جيم».

أما الكلمات التي أريدك أن تكررها فهي – ولم يكن غير ذلك – «كان رجل الجزيرة ثلاث سنوات في حالتي الضوء والظلام. وعاش تحت سمائها في المطر والصحو. فربما كان يقتل وقته في التفكير في صلاة، أو في أمه العجوز، إذا اتفق أنها حية ترزق – هكذا تقول – ولكن معظم وقت جن كان يقضيه – تقول هكذا – في البحث عن أمر آخر ثم إنك تعرضه كذلك». قال هذا وقرصني ثانياً بكل وداد.

ثم استطرد في حديثه وقال: «ثم إنك تقف وتقول: وهو مشحون بملء الثقة، لاحظ – ملء الثقة – في رجل أصيل مثلك أكثر مما يثق بأولئك القراصنة، حيث إنه كان واحداً منهم».

فأجبته: «حسن، لست أفقه من حديثك حرفاً، ولكن لا حرج عليّ اليوم في ذلك ولا تثريب، فآنى لي العودة إلى السفينة؟».

فأجاب: «أجل لا ريب في أن هذه هي العقبة الكؤود. ولكن هاك قاربي الذي صنعته بيدي هاتين، ولقد خبأته خلف الصخرة البيضاء (فإذا كان ولا بد) فلنجرب الانتقال به بعد الغروب». ثم قال منزعجاً: «ها! ماذا أسمع؟».

وبالرغم من أن الوقت كان قبيل الغروب بساعة أو ساعتين. فقد رددت سائر جوانب الجزيرة صدى قصف مدفع.

فصحت به: «لقد بدؤوا القتال فاتبعني!».

ثم بدأت في العدو نحو المرفأ، وقد نسيت كل مخاوفي، وذلك الرجل المهجور يقفز جنباً إلى جواري بملابسه المصنوعة من جلد الماعز.

فكان يقول: «إلى اليسار إلى اليسار، سر على يسارك يا صاحبي يا جيم! لذ بظلال الأشجار! هنا قتلت العنزة الأولى. ولكن الماعز لا تأتي إلى هنا الآن، فقد تحصنت في فيافي الجبال خوفاً من بنيامين جن. آه، وهنا المقبرة! ألا ترى إلى هذه الربى؟ لقد كنت أصطفي هذا المكان لأصلي من آن لآخر عندما أتوهم بأن اليوم قد يكون يوم أحد. وليس المكان بشديد الشبه بالمعبد، بيد أنه يدانيه في وقاره وسكونه. ثم إنك تقول إن بن جن كان قصير ذات اليد، فلم يكن هناك قسيس ليصلي معه، وكل ما كان يملك إنما هو الكتاب المقدس وعَلَم».

وقد ظل يهرف بذلك طول المدة التي عدوتها من غير أن يتوقع

لحديثـه رداً، أو يحظـى بـرد عليـه. وقـد أعقبـت قصـف المـدفع بـزمن، طلقات أسلحة نارية.

وما هي إلا فترة أخرى حتى شهدت العلم الإنكليزي يخفق فوق إحدى الغابات على نحو ربع ميل مني.

القسم الرابع

الدّريئـــــة

الفصل السادس عشر

الدكتور يتابع قص الرواية:
ويروي كيف تركت السفينة

حين انتصفت الساعة الثانية تقريباً – أو بعد أن قرع الجرس ثلاثاً كما في العرف البحري – ذهب القاربان من الهسبنيولا إلى الشاطئ وكنت والربان والسيد ترلوني نتباحث في أمورنا داخل العنبر. فلو أن ريحاً ملائمة هبت لكنا أوقعنا بالستة الثائرين الذين بقوا على ظهر السفينة معنا. ورفعنا المرسى وأقلعنا إلى البحر ولكن الريح كانت معدومة وقد زاد في حيرتنا مجيء هنتر إلينا وإخبارنا بأن هوكنز ذهب إلى الشاطئ مع الآخرين في القارب.

وما كنا لنشك مطلقاً في هوكنز وإنما أدركتنا خشية على سلامته، حيث كان مع قوم تجعلنا خشونة أخلاقهم بحيث نعتبر رجوعه إلينا ثانية من محض الصدف، فربضنا على سطح السفينة وكان القار يغلي في حللها من شدة الحر، وقد سببت لي الريح الصاعدة من المرفأ دواراً فإذا كانت للحمى والزحير رائحة تشم فقد كانت في ذلك المرفأ الممقوت وقد جلس الأوغاد الستة يتمتمون تحت شراع من القلع الأمامي، وكنا نرى الزورقين يجريان نحو الشاطئ وفي

كل زورق رجل جالس وهم بالقرب من مجرى النهر وكان أحدهم يصفر ليليبوليرو Lillibullero(*).

ولما كان الانتظار شاقاً، فقد تقرر أن أذهب أنا مع هنتر إلى الشاطئ في زورقنا «القارب الجذل» للاستكشاف.

وقد اتجه الثائرون بقاربهم إلى جهة اليمين، ولكني أنا وهنتر جذفنا إلى جهة الدريئة الموضحة على الرسم ثم رأينا الرجلين اللذين تركا لحراسة القاربين حين سمعنا غنائهما لليليبوليرو وابتدءا يتشاحنان، وكنت أراهما يتناقشان فيما يجب عمله بإزائنا، فلو أنهما ذهبا إلى سلفر وأخبراه، فربما كانت النتيجة غير ذلك، ولكني أظن أن عندهما أوامر من قبل، ولذلك قررا أن يظلا هادئين في مكانهما، ثم استأنفا نشيد الأنشودة.

وكان الشاطئ منحنياً قليلاً فجعلت هذا النتوء حائلاً بيننا وأنا أقود الزورق إلى الشاطئ، حتى إنه قبيل نزولنا إلى الأرض لم نعد نبصر القاربين. ثم قفزت إلى الأرض وعدوت بأسرع ما يمكنني واضعاً منديلاً من الحرير تحت قبعتي لحفظ الرطوبة، وكان معي مسدسان لدرء ما عساه أن يحدث من الخطر.

ولم أكد أعدو المئة ياردة حتى وصلت إلى الدريئة.

وهاك وصفه: تجد ينبوعاً من الماء الصافي يجري فوق قمة التل تقريباً، وقد أنشئ بيت وزرائب حول تل وينبوع ماء، وهذا البيت من كتل الخشب – جذوع الأشجار – ويسع نحو الأربعين رجلاً على

* من الأناشيد الوطنية التي كانت رائجة في القرن السابع عشر ولم تعد تردد الآن. - (المترجم).

الأكثر، وفيه ثقوب للبنادق على الجوانب، وقد مهدوا ونظفوا متسعاً كبيراً حوله وبنوا زرباً، ويبلغ ارتفاعه ستة أقدام، ولم يعملوا له باباً ولا منفذاً، وكان منيعاً لدرجة يصعب معها هدمه في مدة قصيرة ومن دون كبير عناء، وكان يعرض كل محاصر للخطر، وأما الذين في الدريئة فيقفون هادئين داخله تحت الحماية، ثم يصيدون في الخارج إن لم يؤخذوا على غرة كالطير، وما عليهم إلا العناية بمراقبة الطعام فيمكنهم الدفاع عن الدريئة ضد فرقة من الجند إن لم يؤخذوا على غرة.

وقد جلب إلى قلبي السرور منظر ينبوع الماء على الأخص، لأنه بالرغم من أن عنبر السفينة كان فيه متسع كافٍ إلا أنه كان مفعماً بالأسلحة والذخيرة والمؤن والنبيذ الجيد، فما أهملنا إلا الماء. وقد جعلني أفكر فيما سمعته من صراخ رجل يموت جاء يطن في أذني من عرض الجزيرة. وما كنت حديث عهد برؤية القتل العمد فقد خدمت تحت قيادة صاحب السمو الدوق كمبرلاند Doke of Cumberland وجرحت في موقعة فونتنوي Fontenoy، ولكن على الرغم من ذلك فقد نبض قلبي بقوة حيث خطر بفكري هلاك جيم هوكنز.

ومن الفضائل أن يكون الإنسان قد دخل الجندية، ولكن أفضل من هذا أن يكون طبيباً، فلم يكن الوقت متسعاً للتباطؤ، وعلى ذلك فقد جمعت فكرتي في الحال، ولم أضيع شيئاً من الوقت، ثم رجعت إلى الشاطئ وقفزت إلى (القارب الجذل).

ولحسن الحظ كان هنتر قوي التجذيف، فقد جعلنا الماء يتطاير، وبعد مدة قصيرة كنا قد وصلنا إلى جانب السفينة ثم صعدنا إليها.

فوجدت قومي جميعهم في اضطراب كما هو طبيعي في مثل هذا الحال، وكان السيد جالساً وقد جف الدم من وجهه فاشتد بياضه من كثرة التفكير في الضرر الذي سببه لنا، فما أطيب قلبه! وقد انصلح حال أحد النوتيه الستة الذين كانوا في عنبر الفلاحين.

وقال الربان سمولت مشيراً إلى الرجل: «هذا رجل حديث العهد بهذا العمل أيها الدكتور، فقد أتانا وهو في حالة إغماء عندما سمع الصيحة، وما هي إلا لمسة واحدة لمراقب الحركة وينضم إلينا ذلك الرجل».

ثم أخبرت الربان بخطتي واتفقنا على طريقة تنفيذ الخطة بالتفصيل.

فجعلنا ردرث فوق السقيفة بين العنبر والقلاع الأمامي ومعه ثلاث أو أربع بنادق محشوة بالبارود ومرتبة ليقي بها نفسه. واتى هنتر بالقارب إلى مؤخر السفينة وصرت أنا وجويس نملؤها بصفائح البارود والبنادق وأكياس البسكويت ولحم الخنزير الموضوع في البراميل الصغيرة وبرميلاً الكونياك وصندوقي الثمين المملوء بالعقاقير الطبية.

وفي الوقت نفسه وقف السيد والربان على سطح السفينة ونادى الربان مراقب الحركة الذي كان أكبر الملاحين الذين على ظهر السفينة.

وقال: «يا سيد هاندز إذا بدرت إشارة من أي واحد منكم الستة فإنا نصرعه في الحال، فإن مع كل واحد منا زوجاً من المسدسات».

فتراجعوا إلى الوراء وبعد أن تشاوروا مدة يسيرة نزلوا جميعاً الواحد وراء الآخر من السلم الأمامي إلى عنبر الملاحين ظانين أنهم

يمكنهم أن يأخذونا على غرة من الخلف ولكنهم رأوا ردرث ينتظرهم على السقيفة فرجعوا ثانية ثم أطل واحد منهم برأسه على سطح السفينة فنهره الربان قائلاً: «انزل يا كلب».

فعاد برأسه إلى الخلف ولم نعد نسمع عن هؤلاء البحارة الستة في هذا الظرف.

وفي أثناء ذلك كنا قد عبأنا (القارب الجذل) على قدر ما استطعنا وخرجت أنا وجويس من المؤخرة واتجهنا نحو الشاطئ بقدر قوة تجذيفنا.

وقد لفتت رحلتنا الثانية نظر الرقيبين اللذين على الشاطئ فقطعا أنشودتهما الليبوليرو ثانية وقبل أن يختفيا عن بصرنا خلف الرأس الصغير، جرى أحدهما مسرعاً إلى الشاطئ واختفى، وقد كنت عازماً بعض الشيء على أن أغير خطتي وأحطم قاربيهم ولكني خشيت أن يكون سلفر ورفقاءه قريبين منهم وربما كنا رجعنا خاسرين لمحاولتنا الحصول على الشيء الكثير جداً.

ولما بلغنا الشاطئ بسرعة في المكان المحدد وصرنا نضع المؤونة في الحصين، ذهبنا نحن الثلاثة في الدفعة الأولى محملين جهد الطاقة وقذفنا بالمؤن خلف السور وتركنا جويس لحراستها – وكان شخصاً واحداً إلا أنه معه ست بنادق – ثم رجعت أنا وهنتر إلى (القارب الجذل) وحمَّلنا أنفسنا ثانية وهكذا استمر بنا الحال وتكرر ذلك بلا انقطاع حتى حزنا جميع البضاعة، ولما استقر الخادمان في الحصين ذهبت أجذف بكل قواي حتى وصلت إلى الهسبنيولا.

وإن مخاطرتنا في إيصال حمل آخر، كانت تظهر كأنها

مجازفة أكثر من الحقيقة، فقد كان القوم يتفوقون علينا بكثرة عددهم، إلا أننا نمتاز عنهم بالسلاح، فلم يكن مع واحد بندقية، وقبل أن يصبحوا منا على مرمى طلق المسدس، نكون قد أصبنا منهم ستة على الأقل.

وكان السيد ينتظرني من شباك المؤخرة وقد أفاق من إغمائه وأمسك الحبل وربطه بشدة، بحيث صرنا نحمل القارب حفظاً لحياتنا فكانت حمولته عبارة عن لحم خنزير مملح وبارود وبسكويت ولكن من السيد وردرث والربان بندقية ومدية وباقي الأسلحة والبارود، قذفنا به إلى الماء على عمق القامة(*) والنصف فكنا نرى الفولاذ اللامع يبرق في ضوء الشمس في القاع الرملي النظيف.

وفي هذا الوقت بدأ الماء يتراجع بالجزر وكانت السفينة تتمايل حول مرساها، فسمعنا أصواتاً ضئيلة في اتجاه القاربين ولو أن هذا قد طمأن قلوبنا على سلامة جويس وهنتر اللذين كانا في الجهة الشرقية إلا أنه كان إنذاراً لنا بالرحيل.

فرجع ردرث من مكانه فوق السفينة وانسل إلى القارب الذي أتينا به إلى مؤخرة السفينة ليكون أسهل للربان سمولت.

وقال الربان: «أيها الرجال أتسمعونني؟».

فلم يجبه أحد من الذين في الرواق الأمامي.

«إني أخاطبك يا أبراهام غراي Abraham Gray».

فلم يجبه أحد أيضاً.

---

* القامة Fathom - مقاس قدره ستة أقدام - (المترجم).

ثم استأنف الربان مناداته بصوت أعلى: «غراي إني تارك هذه السفينة وإني لآمرك باتباع أوامر ربانك، وإني على يقين أنك في باطنك رجل طيب وليس من أحد منكم رديئاً كما يظهر، وسوف أعطيك ثلاثين ثانية لتنضم إلينا وهذه ساعتي في يدك».

ثم ساد سكون تام برهة.

فعاد الربان للقول: «تعال يا رجلي، لا تنتظر طويلاً فإني أخاطر بحياتي وحياة من معي من هؤلاء الأفاضل في كل ثانية أمكثها».

وقد حصل شجار على غفلة وسمعنا صوت لكمات وضرب وخرج فجأة أبراهام غراي وبصدغه شج وأتى مسرعاً نحو الربان كالكلب الذي يأتي ملبياً صفير صاحبه.

«إني معك يا سيدي».

وفي اللحظة التالية انسل هو والربان بيننا في القارب فجذبنا مجاذفنا وابتعدنا، ثم صرنا بعيدين جداً عن السفينة، إلا أننا لم نبلغ الدريئة.

الفصل السابع عشر

متابعة الدكتور قص الرواية:
آخر رحلة للقارب الجذل

كانت الرحلة الخامسة تختلف تمام الاختلاف عن الرحلات السالفة. فقد كان جوف القارب الذي كنا فيه مملوءاً أكثر مما يتسع، حيث ركب فيه خمسة من الرجال كبار الجثة، منهم ثلاثة يزيد طول الواحد منهم عن الستة أقدام وهم: ترلوني وردرث والربان، وهذا وحده أكثر من طاقة القارب. أضف إلى ذلك البارود ولحم الخنزير المملح وأكياس الخبز. أما المدفع فقد وضع في المؤخرة فأمالها. وقد غرق القارب من الماء مراراً، حتى ابتل ذيل معطفي قبل أن يخب بنا المسير مئة ياردة.

وقد أمرنا الربان أن نجلس على حافة القارب، حتى يستوي في المسير، وعلى الرغم من ذلك فقد كنا نخشى النفس.

أما الاختلاف الثاني في رحلتنا هذه فكان تراجع الماء بالجزر – فقد كان التيار القوي المتلاطم الأمواج يندفع بسرعة من الجنوب إلى جهة الغرب حتى يصل إلى جهة البحر الذي دخلنا منه إلى المرفأ في الصباح وقد تمثل خطر الموج بالذات على قاربنا الذي حمل فوق طاقته، وأخطر من ذلك خروجنا عن طريقنا وابتعادنا عن المكان الذي كان علينا النزول إلى الأرض من جهته. فلو كنا تركنا القارب

يسير حسب التيار لرسونا بقرب مرسى قوارب القراصنة، حيث كان من الممكن مفاجئتهم لنا في أي لحظة.

قلت للربان: «لا يمكنني التوجه بالقارب نحو الدريئة يا سيدي» حيث كنت أقود القارب بينما كان هو وردرث يجذفان من دون أن يبدو عليهما التعب، وأردفت القول: «إن تيار الجزر يرجعنا إلى الوراء فهل تستطيعان أن تجذفا بقوة أكثر من ذلك؟».

فأجاب الربان: «لا يا سيدي فإن القارب يخب من الماء إذا فعلنا ذلك فأرجو أن تستمر حتى نتغلب على تيار الجزر».

كنت أعمل بكامل طاقتي فرأيت أن تيار الجزر كان يسوقنا إلى جهة الغرب، حتى إني أخيراً حولت رأس القارب نحو الشرق أو بحيث يكون عمودياً تقريباً بالنسبة للجهة التي علينا الاتجاه نحوها.

فقلت: «لن نبلغ الشاطئ ونحن بهذه السرعة».

فأجاب الربان: «إذا كان هذا هو الطريق الوحيد الذي يمكننا أن نسلكه فلا مفر منه وعلينا أن نستمر على عكس التيار»، ثم استمر قائلاً: «وإذا اتجهنا إلى جهة المرسى فلا يمكننا أن نحكم أين سيكون مرسانا، فربما يسوقنا التيار إلى جهة قاربي القراصنة على أنه باستمرارنا في الطريق الذي نسير فيه تقل سرعة تيار الجزر فيمكننا أن نرسو في أي مكان نشاء على الشاطئ».

فقال غراي الذي كان جالساً في مقدمة القارب: «قد خفّت فعلاً سرعة التيار يا سيدي فإننا نسير أسرع من قبل قليلاً».

فأجبته بقولي: «شكراً لك يا رجلي». كأنما لم يحصل منه شيء مما حصل، فقد كنا عازمين على معاملته كأحد رجالنا.

ثم عاد الربان فجأة إلى الكلام وقد تغيرت نبرات صوته قليلاً قائلاً: «المدفع!».

فقلت: «لقد فكرت في ذلك». لأني تحققت أنه كان يفكر في قذف القنابل، حيث لم يتمكنوا من جلب المدفع إلى الشاطئ، وعلى فرض تمكنوا من ذلك فلن يستطيعوا جره بين الغابات.

فأجاب الربان: «انظر من جهة المؤخرة يا دكتور».

استغرقتنا التطورات وكدنا ننسى المدفع التساعي الطويل. وقد رأينا الأوغاد الخمسة وهم يعملون في حل القلع، وهو القماش الكبير الذي تسير به السفينة، فلم يكن هذا كل ما جال في خاطري، بل خطر لي في تلك اللحظة أن قنبلة المدفع والبارود قد تركا وراءنا وأن ضربة واحدة تجعلهما في حوزة الأشرار الذين على ظهر السفينة.

وقال غراي وقد بحّ صوته: «إن هاندز كان صاحب المدفع عند فلنت».

وعلى الرغم من كل ذلك اتجهنا نحو المكان الذي أردنا أن نرسو فيه وكنا قد خرجنا عن التيار وصرنا نجذف باعتدال، وقد تمكنت من قيادة القارب بانتظام نحو المكان المقصود، وقد كان من الخطر بمكان أن أصبح القارب معرضاً بمجمل جانبه إلى السفينة بدل مؤخره، حتى أصبحنا بذلك هدفاً ملائماً.

وقد كنت أرى الوغد هاندز ذا الوجه المحمر وهو يعالج قنبلة مستديرة على سطح السفينة.

ثم سأل الربان قائلاً: «أيكم أحكم مرمى؟».

فقلت: «اخرج يا سيد ترلوني».

فقال الربان: «اختر لي واحداً يا سيد ترلوني من بين هؤلاء الرجال وليكن هاندز».

وقد كان ترلوني في ثباته كالحديد البارد وكان منشغلاً في تهيئة مدفعه.

ثم صاح الربان قائلاً: «فليكن تحكيمهم للمدفع بخفة وهدوء، وإلا انقلب القارب، وليكن جميعكم على الحافة عندما يطلق المدفع».

فرفع السيد المدفع وقد أوقف التجذيف وملنا جميعاً إلى الجهة المقابلة، حتى يحفظ التوازن، وقد تم الأمر بغاية الدقة والحكمة، حتى إنه لم تدخل القارب نقطة ماء.

وفي أثناء ذلك كانوا قد أداروا المدفع حول محوره، وكان أكثر الناس تعرضاً له هاندز لوقوفه عند فوهته. ولكن الحظ لم يساعدنا، فحين أطلق ترلوني مدفعه انحنى هاندز ومرت القنبلة تصفر فوق رأسه وقد وقع أحد الأربعة الأخرين.

ولم يردد صدى صوته رفاقه الذين كانوا معه على السفينة فقط بل أيضاً جميع الذين كانوا على الشاطئ. ولما نظرت نحوهم رأيت قراصنة آخرين يتسللون من بين أشجار الغابات قاصدين قاربهم.

فقلت: «ها إني أرى العابثين آتين».

فقال الربان: «تنح عن طريقهما، علينا أن لا نهتم إذا أغرقوا قاربنا، فإن لم نتمكن من الوصول به إلى الشاطئ فيمكننا الوصول خائضين».

فأعقبته قائلاً: «إنه واحد من العابثين قد جهز بالرجال، وأما الباقون فيحتمل أن يكونوا قد ذهبوا ليقطعوا علينا الطريق من جهة الشاطئ».

فأجاب الربان: «إن الشوط لكبير على العابثين وأنت تعلم أن المرفاع على الشاطئ وإني لا أخشاهم، بل أخشى القنابل الكروية(*) فما أسهلنا هدفاً لها! فإن أبسط إنسان يمكنه أن يصيبنا، وأخبرنا أيها السيد عندما ترى العدو، حتى نوقف السير».

وفي الوقت نفسه كنا نسير حثيثاً بالنسبة إلى حالة قاربنا المحمل فوق طاقته بحيث لم يدخله إلا قليل من الماء، وقد أصبحنا الآن على مقربة من الشاطئ فما هي إلا ثلاثون أو أربعون دفعة بالمجذاف، حتى نصله فقد كشف الماء المتراجع بالجزر عن جزء غير قليل من الرمل تحت الأشجار الملتفة وصرنا لا نخشى القارب فقد اختفى خلف رأس من الأرض ناتئ في البحر وصار الجزر الذي كان يؤخرنا في البداية مساعداً لنا ضد أعدائنا فلم يبقَ لنا خوف إلا من المدفع.

وقال الربان: «لو أمكنني الوقت لكنت أفضل أن أقف هنا حتى نقضي على رجل آخر».

وكان من الواضح جلياً أنهم كانوا يريدون ألا يعوقهم عائق يؤخر إطلاقهم النار علينا فما كانوا ليهتموا بأمر مثل ما اهتموا بزميلهم الذي وقع مع أنه لم يمت فقد رأيته يحاول الزحف بعد أن وقع.

ثم نادى السيد قائلاً: «استعداد».

فرد عليه الربان قائلاً بسرعة الصدى: «أمسك».

ثم تنحى السيد ردرث إلى الخلف حتى غطس معظم مؤخر القارب في الماء وفي هذا الوقت سمع صوت الطلق. وكانت هذه هي المرة الأولى التي سمع جيم فيها صوت طلقة، إذ لم يصله صوت

---

* قصدنا من التسمية Carpet bowls، الكرة التي تلعب في حجرة داخل المنزل حيث سهولة إصابة المدفع وأحكامه تشبه الإصابة في لعب هذه الكرة - (المترجم).

طلقة السيد لكن لم يعرف أحداً منا تماماً أين وقعت القنبلة، على أني أعتقد أنها مرت من فوق رؤوسنا وأنها ربما أضر بنا سيرها.

وعلى أي حال، فإن مؤخر القارب غرق بهدوء في ماء عمقه ثلاث أقدام، وكنت أنا والربان متواجهين ونحن واقفان على أرجلنا، وأما الثلاثة الباقون فقد انغمسوا في الماء وخرجوا منه وهم مبللين والماء يقطر من ملابسهم.

وإلى هنا لم يكن قد لحق بنا أي ضرر بليغ حيث لم نفقد أرواحاً، وأمكننا أن نخوض إلى الشاطئ سالمين، إلا أن جميع ما كان معنا من المؤن قد صار إلى قاع البحر. وقد زاد الطين بلة أن بندقيتين فقط من خمس بقيتا في حالة صالحة للعمل، أما بندقيتي فقد أخرجتها من تحت ركبتي ورفعتها فوق رأسي بإلهام، وأما الربان فكان يحمل بندقيته على كتفه وهو سائر جاعلاً الزناد إلى الجهة العليا كما يفعل الرجل العاقل وقد استقرت البندقيات الثلاث الباقية في قاع اليم مع القارب.

علاوة على ذلك، فقد سمعنا أصواتاً تقترب منا في وسط الغابة على الشاطئ فلم نكن معرضين فقط لأن ينقطع اتصالنا بالدريئة ونحن في هذه الحالة السيئة الحرجة، بل ما كنا نخشاه هو أن يكون عند هنتر وجويس من حصافة الرأي إذا هاجمهم ستة رجال أن يدافعا بثبات. أما هنتر فقد كان ثابتاً كما نعلم وأما جويس فكان مشكوكاً في حاله – فكان لطيفاً مؤدباً يصلح أن يكون تابعاً لإنسان ينظف ملابسه ولكن لا يصلح مطلقاً ليكون رجل حرب.

وبينما كان يجول كل ذلك في خاطرنا خضنا إلى الشاطئ بأسرع ما يمكن تاركين (القارب الجذل) وأكثر من نصف البارود وراءنا.

الفصل الثامن عشر

الدكتور يستأنف قص الرواية:
آخر حرب اليوم الأول

اجتزنـا بأسـرع مـا يمكـن الجـزء الـذي يفصـلنا عـن الدريئـة مـن الغابـة وفـي كـل خطـوة كنـا نخطوهـا، كانـت أصـوات القراصـنة تقتـرب منـا، وبعـد مـدة قصـيرة أصـبحنا نسـمع وقـع أقـدامهم وهـم يجـرون، وصوت انكسار الأغصان كلما اقتحموا جزءاً من الغابة كثيفاً.

وسـاورني الشـك مـن احتمـال عـدم احتكاكنـا بعضـنا الـبعض ونظرت إلى زناد بندقيتي.

وقلـت للربـان: «أيهـا الربـان إن طلقـة ترلـوني مميتـة فأعطـه بندقيتك لأن بندقيته لا تصلح».

فتبادلا البندقيتين، ثم وقف ترلوني برهة وهو ساكن ومستمر في بـروده كمـا كـان منـذ ابتـداء المعركـة وهـو يمـتحن صـلاحية البندقيـة للاستعمال. وفي الوقت ذاته حين رأيت غراي بلا سلاح أعطيته سيف البحار. وقد انشرحت صدورنا جميعاً عندما رأينا غراي يبصق في يده ويقطـب جبينـه ويطـوح بنصـل خنجـره فـي الهـواء فقد أظهـر بحركاتـه البهلوانية أنه يستحق طعامه.

ولمـا سـرنا أربعـين خطـوة بعـد ذلـك وصـلنا إلـى طـرف الغابـة

ونظرنا الدريئة أمامنا وقد وصلنا إلى منتصف السياج الجنوبي، وفي ذات الوقت تقريباً ظهر سبعة من الثائرين وعلى رأسهم جوب أندرسون رئيس النوتيه وقد علا صراخهم من جهة الزاوية الجنوبية الغربية.

وقفوا مشدوهين برهة كأنهم أخذوا على حين غرة. وقبل أن يفيقوا من اضطرابهم، كنت أنا والسيد نطلق النار عليهم وشاركنا في ذلك هنتر وجويس. على أن الأربع طلقات كانت مبعثرة، إلا أنها كانت مجدية فقد وقع واحد من الأعداء، وولى الباقون الأدبار ودخلوا الغابة.

وبعد أن لقمنا بنادقنا ثانياً سرنا إلى خارج السياج لنرى العدو الذي وقع، فوجدناه ميتاً لا حراك له – وقد أصيب في قلبه.

فانشرحت قلوبنا لهذا النجاح، ثم سمعنا في الحال صوت طلق مسدس داخل الأجمة وقد مرت بجانب أذني رصاصة أودت بحياة توم ردرث المسكين الذي خر صريعاً على الأرض. فردينا عليهم أنا والسيد بإطلاق الرصاص ولكن لم يكن أمامنا أشباح نصوب إليها الطلقات فربما كان ذلك إسرافاً فقط للبارود، ثم لقمنا البنادق والتفتنا إلى توم المسكين.

وكان الربان وغراي أثناء ذلك يفحصانه ولكني بطرفة عين تأكدت من وفاته.

وقد كان لسرعة ردنا على الثائرين بإطلاق الرصاص عليهم أن فرقهم مرة أخرى، فقد تمكنا من حمل حارس أراضي الصيد وإدخاله من فوق السياج وهو يئن ويسيل منه الدم حتى أدخلناه الدريئة من دون أن يلحقنا أقل أذى.

كان الرجل الهرم مسكيناً لم ينطق ببنت شفة مستغرباً أو شاكياً

أو خائفاً ولا حتى موافقاً من أول محننا وإلى الآن، وحين وضعناه داخل البيت ليموت فيه كان راقداً خلف المرتبة فوق السقيفة كأحد الطروادبين – نسبة إلى مدينة طروادة – وكان ينفذ الأوامر التي تصدر إليه بكل هدوء وثبات وإتقان، وقد كان أكبر جماعتنا سناً بنحو عشرين عاماً. والآن بما أن وجهه تجعد وبلغ من الكبر عتيا فكان طبيعياً أن يكون هو الأقرب إلى الانتقال لجوار ربه كما جرى.

ثم ركع السيد على ركبتيه بجانبه وقبل يده وهو يصيح كالطفل.

فسألني توم: « هل أنا ذاهب أيها الدكتور ؟».

فأجبته: «إنك ذاهب يا توم يا رجلي إلى منزلك الأبدي».

فقال: «كنت أود أن تلعق بندقيتي من دمهم أولاً».

فقال السيد: «يا توم ألا تسامحني، أأنت فاعل؟».

فأجابه قائلاً: «وهل هذا يدل على احترامي لك أيها السيد وعلى أي حال الوداع».

وبعد برهة من السكون قال إنه يريد أن يقرأ عليه أحد صلاة. ثم قال مستميحاً: «إنها العادة يا سيدي» وبعد مدة غير طويلة أسلم روحه إلى خالقه.

وفي أثناء ذلك أخرج الربان الذي كان مشهده يدل على أنه كالمنفخ، حول صدره وعند جيوبه، أخرج عدة أشياء منها الراية البريطانية والإنجيل وحبلاً ملفوفاً وقلماً ودواة وحبراً ودفتر السفينة وعدة أرطال من الدخان، ثم اعتلى السقف ورفع بنفسه الراية حيث رأى شجرة من البلوط ملقاة داخل السياج، وقد اصطلحت من العيدان فأقامها بمساعدة هنتر في ركن البيت الخشبي عند الزاوية المكونة من

تلاقي الأشجار بعضها مع بعض. وقد رفَّه عنه هذا العمل كثيراً حيث دخل البيت المحصن وابتدأ يحصي ما فيه من المخزون كأنما ليس عندهم غيره، وعلى الرغم ذلك فقد كان دائم الالتفات إلى توم وهو يسلم النفس الأخير، وعندما تم ذلك أتى إليه وغطى جسمه بكل احترام براية أخرى كانت معه.

ثم قال للسيد وهو يصافحه: «هون على نفسك فقد حصل له خير فلا خوف على الرجل الذي يموت وهو يؤدي واجبه نحو ربانه وسيده. فربما كان هذا الكلام لا يدل على الورع إلا أنه حقيقة واقعة».

ثم أخذني على طرف وقال:

«أيها الدكتور ليفزي بعد كم أسبوع تنتظر أن تعود أنت والسيد؟».

فقلت له: «إنها ليست مسألة أسابيع، بل أشهر وإنه إذا لم نعد في آخر شهر آب فإن بلاندلي سيرسل وراءنا يبحث عنا، لذا احسب حسابك، ليس من بحث عنا قبل هذا الموعد».

فسألته: «ماذا تقصد؟».

فأجاب الربان قائلاً: «إني آسف على فقدنا حمل القارب في المرة الثانية، هذا ما أقصد، فأما من جهة البارود والرصاص فعندنا الكفاية منهما وأما الطعام فإنه قليل – إنه لقليل أيها الطبيب ليفزي حتى إنه لمن حسن الحظ أن نقص عددنا واحداً».

وأشار إلى الجثة الهامدة تحت الراية.

وفي هذه اللحظة مرت قذيفة مستديرة فوق سقف البيت الخشبي بعيداً عنا داخل الأجمة وكان يصحبها زئير وصلصلة في مرورها.

فقال الربان: «نعم! أطلقوا عليهم الرصاص يا أولادي فإن عندكم شيئاً كافياً من البارود».

وفي الدفعة الثانية كان الضرب أحكم وسقطت القذيفة داخل الدريئة فأثارت سحاباً من الرمل ولم يحدث ضرر آخر.

فقال السيد: «أيها الربان إن البيت لا يرى من السفينة. فلا بد أن يكون تصويبهم على الراية فهلا يكون من الصواب إنزالها؟».

فأجاب الربان بصوت عال: «أأنزل علمي! لا يا سيدي لست أنا الذي أفعل ذلك» وبعد أن تفوه بهذه الكلمات وافقناه جميعاً على رأيه. فلم تكن هذه سياسة رشيدة منه خليقة برجال البحر وتدل على الإحساس الشريف فقط، بل أظهرت لأعدائنا مبلغ احتقارنا لقنابلهم.

واستمر إمطارنا طول المساء بقذائف مدافعهم، فكانت القنابل تسقط قبل أن تصل إلينا أو تتجاوزنا بعيداً أو تسقط في الرمل داخل الحظيرة. إلا أنهم صاروا يصوبون مدفعهم مرتفعاً، فتسقط القنبلة باردة وتنغمس في الرمل الناعم، وكنا نخشى أثر اصطدام القنابل بشيء صلب. حتى إن واحدة منها دخلت إلينا من السقف، ثم جرجت من أرضية البيت فاعتدنا ذلك النوع من اللعب الشبيه بلعب الخيل وما كنا نعيرها اهتماماً أكثر مما كنا نعير كرة الكريكيت.

ومما لحظه الربان إن شيئاً واحداً ذا قيمة ربما نتج عن ذلك وهو أن الغابة التي أمامنا ربما تكون قد خلت من الناس. وأن الماء قد تراجع بسبب الجزر فيجب أن نكشف عن مؤونتنا وليذهب متطوعون لجلب لحم الخنزير المملح.

وكان غراي وهنتر أول من استجابا للدعوة. فخرجا من الدريئة

مسلحين إلا أن التجربة لم تكن ذات جدوى، فقد كان الثائرون أجسر مما كنا نظنهم. أو أنهم كانوا واثقين من مدفعية هاندز، فإن أربعة أو خمسة منهم كانوا منهمكين في حمل المؤن وهم يخرجون بها حتى يصلوا إلى أحد القاربين الأقرب منهم، وقد أوقفوه في الماء رغم التيار بوساطة التجذيف. وكان سلفر يقوده وهو يجلس في مؤخره وكل واحد منهم مزود ببندقية أتوا بها من مخزن سري لم يعلم مكانه سواهم.

ثم جلس الربان إلى سجل السير، وابتدأ تدوين التالي:

«ألكسندر سمولت رئيساً. دافيد ليفزي طبيب السفينة. أبراهام غراي النجار الرفيق. جون ترلوني مالك السفينة. جون هنتر وريتشارد جويس خادما صاحب السفينة، وهما من رجال البر – وهؤلاء هم جميع من بقي من بحارة السفينة شركاء – ومعهم مؤونة عشرة أيام جراية من دون إسراف وقد وصلوا إلى الشاطئ اليوم ورفعوا الراية البريطانية على البيت الخشبي في جزيرة الكنز. وقد قتل الثوار توماس ردرث خادم صاحب المركب وهو نوتي قليل الدربه وجيمس هوكنز صبي الكابتن».

فسمعت نداء من جهة البر.

فقال هنتر الذي كان يؤدي الحراسة وقتئذ: «بعض الناس ينادوننا».

فكان الصوت ينادي: «أيها السيد! أيها الربان! مرحى. هل أنت هنتر؟».

فجريت نحو الباب فرأيت جيم هوكنز سالماً وبصحة حيدة وهو آت بتسلق الدريئة.

الفصل التاسع عشر

جيم هوكنز يتابع قص روايته:
الحرس في الدريئة

حين رأى بن جن الراية وقف واستوقفني قابضاً على ذراعي ثم جلس.

وقال: «الآن وصلنا وهناك أصحابك بكل تأكيد».

فأجبته: «إني أرجح جداً أن يكون الثائرون هناك».

فصاح: «هكذا! لِمَ لا أعتقد ذلك لأن المكان الذي يحل به القراصنة، لا بد من أن يرفع عليه سلفر الراية السوداء أيضاً وأظن، أن النصر كان في جانب رفاقك وها هم قد استحوذوا على البيت المحصن العتيق على الشاطئ الذي بناه فلنت من مدة طويلة جداً فقد كان رجلاً ذا رأس كبيرة، وقد كان فلنت كذلك حيث لا ند له في شجاعته من دون أن يتعاطى الروم فما كان ليخشى أحداً، وما كان هذا دأبه. إلا أن سلفر كان ذلك الرجل».

فقلت: «حسن ربما كان الأمر كذلك، وكل هذا يوجب عليّ أن أسرع في الانضمام إلى رفاقي».

فأجاب: «كلا يا صاح لست فاعلاً ذلك، فإنك صبي طيب وإلا أكون قد أخطأت النظر إليك أو تكون صبي بصريح العبارة. والآن بن

جن يطلق لقدميه العنان وإني لا أعود حتى لو ثملتني نشوة الروم، في ذلك المكان الذي أنت ذاهب إليه – ليس الروم بفاعل ذلك معي، حتى أرى السيد النبيل وآخذ منه وعداً بشرفه، وأرجو ألا تنسى كلماتي، إنه لمنظر جميل (هذا كل ما تقول) وإنه منظر جميل وزيادة في الثقة – ثم أقرصه».

ثم قرصني للمرة الثالثة بخفة ورشاقة.

«فإذا أردت بن جن فأنت تعرف أين تجده يا جيم حيث وجدته اليوم تماماً، وعلى الشخص الذي يأتي أن يكون حاملاً شيئاً أبيض في يده، وأن يأتي وحده. آه! ثم تقول هذا: بن جن إن له عقلية خاصة به».

فقلت: «حسن. أعتقد أني فهمت ما أردت قوله فأنت تريد أن تقترح شيئاً وأن تفضي به إلى السيد أو الطبيب، وإنك توجد حيث وجدتك اليوم، هل هذا كل ما تريد؟».

ثم أضاف قائلاً: «وإذا سألت متى يكون الموعد، فإنه يكون وقت الظهر حتى يدق الجرس ستاً».

فقلت: «حسن هل أذهب الآن؟».

فسأل بشغف: «لن تنسى المنظر الجميل، له عقلية خاصة به، هذا هو المهم وهذه تختلف باختلاف الناس. حسن أظن أنه يمكنك الذهاب الآن يا جيم» قال هذا وهو قابض على يدي. «وأظنك يا جيم إذا رأيت سلفر لست ببائع بن جن له؟ ولا الخيل يمكنها أن تستخلصه منك؟ إنك تقول كلاماً، وإذا أتى اللصوص إلى الشاطئ فماذا سيكون قولك يا جيم، إنه ستثكل أمهات صباحاً؟».

وقطع علينا الحديث صوت قنبلة أتت تمزق الهواء مارة بأشجار الأجمة ثم استقرت في الرمل على مسافة لا تبلغ المئة ياردة من المكان الذي نتحادث فيه وبعد لحظة ولى كل منا وجهه شطر جهة تخالف الجهة التي فر إليها الآخر.

ثم استمرت القنابل تطلق مدة ساعة تماماً وقد هزت أصواتها أركان الجزيرة، كنت تسمع أثناءها أزيز اختراقها الأشجار، وكنت أنتقل من مخبأ إلى آخر والسهام المزعجة تتبعني أو على الأقل خيل إليّ ذلك، إلا أنه عند نهاية إطلاق القنابل عاودني ذلك نوعاً ما مع أني لم أتجاسر أن أسير في اتجاه الحصن حيث كانت القنابل تتساقط أكثر من الجهات الأخرى؛ ثم زحفت بين الأشجار التي على الشاطئ بعد أن سرت طويلاً متجهاً إلى الشرق.

وكانت الشمس قد غربت، وأخذ نسيم البحر يتحرك، ويهز الأشجار في الغابات، ويموج سطح الماء داخل المرفأ، وقد كشف الجزر عن متسع عظيم من الرمال، وقد تغير الهواء بعد السخونة طول النهار إلى برودة جعلتني أحس بها وهي تتخلل معطفي.

وما برحت الهسبنيولا راسية حيث كانت، ولكن بكل تأكيد كانت الراية السوداء – راية لصوص البحر – تخفق على شراعها. وبينما أن ناظر إليها إذ بَصرت ضوءاً ثم سمعت طلقاً دوى صداه في الفضاء، ثم تبعته قنبلة مضت تصفر في الهواء، وقد كان ذلك آخر إطلاق القنابل.

فرقدت هنيهة أرقب الموقعة التي تعقب ذلك فرأيت رجالاً تهشم جسماً بمعاولهم على الشاطئ بالقرب من الدريئة، وقد عرفت أن ذلك الجسم الذي يُهشَّم إنما هو «القارب الجذل» وكانت النار تشتعل على

بعد عند مصب النهر بين الأشجار، وكان أحد قاربي اللصوص مستمراً في سيره جيئة وذهاباً بين هذه النقطة والسفينة، وكان الرجال الذين رأيتهم قبل ذلك عابسين، قد جعلوا يصيحون كالأطفال وهم يجذفون، إلا أن نبرات صوتهم كانت تنبئ عن سكرهم بالروم.

وأخيراً خطر لي الرجوع نحو الدريئة وكنت في الجهة السفلى من اللسان الرملي الذي يسد الميناء من الجهة الشرقية، ويتصل بجزيرة الهيكل العظمي بجزءٍ من الأرض يعلوه مقدار قليل من الماء، وعندما انتصبت قائماً على قدمي رأيت من بُعد تحت اللسان صخرة منفردة مائلة إلى الارتفاع على بعد مني، تظهر عالية من بين الأعشاب التي حولها، ذات لون أبيض ناصع؛ فخطر لي أنها الصخرة البيضاء التي ذكرها بن جن وأنه ربما احتجنا يوماً من الأيام إلى قاربه، فينبغي لي أن أعرف أين أجده.

ثم بعد ذلك جعلت أسير على حافة الغابة حتى وصلت خلف الدريئة أو الجهة التي تلي الشاطئ حيث قابلني عند ذلك رفاقي بالترحاب.

فما كدت أستقر حتى قصصت عليهم حكايتي، ثم جعلت أنظر حولي؛ وكان البيت الخشبي قد صنع من سوق أشجار الصنوبر غير المنجرة – فمنها الأسقف والحيطان والأرضية، وهذه الأخيرة ترتفع عن الأرض الرملية نحو قدم ونصف في أغلب المواضع وعند المدخل شيء يشبه البوابة، وتحته ينبوع الماء الصغير جعل كحوض صناعي غريب في نوعه، فهو عبارة عن وعاء كبير من الحديد نُزع أسفله منه وثبت في الرمل إلى حلقة كما أشار الربان.

ولم يترك شيئاً يستحق الذكر سوى هيكل البيت، إلا أنك تجد في أحد أركانه قطعة من الحجر وضعت كمقود للنار لأجل التدفئة.

وقد اقتلعوا الأشجار التي على جوانب الدريئة لبناء البيت كما قطعوا جميع الزرع التي داخل السياج، وجذوع الأشجار تدل على أن الأجمة التي اقتلعوها كانت ذات أشجار عالية أنيقة، وقد غطى معظم التربة الخصبة انتقال الرمال بعد اكتساح الأشجار، ولم يبقَ مخضراً وسط الأرض الرملية إلا بعض الحشائش التي نبتت على جانبي المجرى الصغير للينبوع المتدفق من فوهة الوعاء وكانت أشجار الغابة لا تزال عالية بالقرب من الدريئة وحوله – وهي كثيفة بدرجة ربما عاقت الدفاع – وجميع الأشجار من جهة الأرض هي من نوع التنوب وأما من جهة البحر فهي خليط من أنواع البلوط.

وكان نسيم الليل الذي ذكرته قبل الآن يصفر باستمرار متخللاً فتحات البناء ويمطرنا وابلاً من ذرات الرمل فقد كنا نجد الرمل في أعيننا وبين أسناننا وفي طعامنا، وكان دائم الحركة في القعر عند العصيدة وهي تغلي، وأما مدخنتنا فكانت عبارة عن ثقب مربع في السقف، وما كان يتسرب منها إلى الخارج إلا قليل من الدخان والباقي كان يدور داخل المنزل، فيسبب لنا السعال ويجعل أعيننا تدمع.

أضف إلى ذلك أن غراي وهو الرجل الذي انضم إلينا حديثاً كان الرباط ما زال عليه من أثر الجرح الذي ألم به عندما كان يحاول التخلص من الثائرين، وما برحت رفات توم ردرث من غير دفن بجوار الحائط وهي هامدة بلا حراك تحت العلم البريطاني.

ولو أننا تُركنا وشأننا بلا عمل، لحالَ الفكر في حالتنا السيئة

بيننا وبين مشاعرنا، ولكن الربان سمولت لم يكن بالرجل الذي يدعنا نفعل ذلك، فقد طلبنا جميعاً للحضور أمامه وقسَّمنا إلى مجموعات. فكوّن من الدكتور وغراي ومني مجموعة أخرى من السيد وهنتر وجويس؛ وعلى الرغم من شدة تعبنا فقد أرسل اثنين منا لنحتطب، وأمر آخرين بحفر قبر لأجل دفن ردرث وعين الطبيب طاهياً وعُينت أنا حارساً على الباب، بينما كان الربان نفسه يذهب من مكان إلى آخر مشجعاً كل واحد منا ومساعداً من يحتاج إلى المعونة.

وكان الدكتور يأتي إلى الباب من آن إلى آخر ليستنشق الهواء ويريح عينيه من الدخان الذي كان يجعلهما ترجّان من رأسه، وكان كلما فعل ذلك تكلم معي قليلاً.

فقال مرة: «إنـي لأفضل ذلك الرجل سمولت على نفسي وإن لقولي هذا معنى كبيراً يا جيم».

ثم أتى مرة أخرى واستمر صامتاً برهة من الزمن ثم التفت إليّ وسألني قائلاً:

«هل بن جن هذا إنسان؟».

فأجبت قائلاً: «لا أعرف يا سيدي وإني غير متأكد من سلامة عقله».

فقال الدكتور: «إذا كان في الأمر شك فهو عاقل، فإن رجلاً يعيش ثلاث سنوات في جزيرة خالية من السكان، يقضم أظفاره بأسنانه، لا ينتظر منه أن يكون في مظهره كالعقلاء مثلي ومثلك، فإن هذا ليس بالطبيعي، وهل كان الجبن كل مشتهاه؟».

فقال: «حسن يا جيم، انظر فائدة الطعام الأنيق، فهل رأيت

علبة السعوط؟ إنك لم ترني ولا مرة استنشق منها، والسبب في ذلك أني وضعت فيها قطعة من جبن بارما وهو جبن لذيذ شديد التغذية، بيد أنني معطي هذه القطعة لبن جن».

وقد دفنا قبل العشاء رفات توم العجوز في الرمل ووقفنا حولها برهة عراة الرؤوس في الهواء، وقد احتطبنا مقداراً كبيراً، إلا أنه لم يكن كافياً في نظر الربان، فقد هز رأسه وقال لنا أن نعاود الكرة باكراً بهمة أكبر، ثم أكلنا من لحم الخنزير المملح وشرب كل منا كأساً كبيراً من الكونياك، ثم أخذ الرؤساء الثلاثة ركناً من المكان يتباحثون في أحوالنا.

ويظهر أن مسألة قلة المخزون لدينا من المؤونة أخذت الحيز الأكبر من حديثهم، فقد كاد الجوع يدفعنا إلى التسليم قبل أن يصلنا إمداد، فكان خير أمل لدينا كما تقرر وهو أن نقاتل اللصوص حتى ينزعوا علمهم من فوق السفينة أو يقلعوا بالهسبنيولا، وقد نزل عددهم الآن من تسعة عشر إلى خمسة عشر منهم اثنان مجروحان، وأحدهما الذي أصيب بجوار المدفع – وقد أصيب بجرح بليغ إن لم يكن قد مات، فكان المحتم علينا أن ننتهز كل مناسبة للاشتباك معهم، محترسين على أرواحنا بقدر المستطاع، ولنا غير ذلك حليفان من الروم والجو.

فأما من جهة الأول فإننا كنا نسمع صراخهم وهم يغنون في وسط الليل وآخره وهم على بعد نصف ميل منا تقريباً، وأما بالنسبة للأمر الثاني فإن الطبيب تحدانا مقسماً بشرفه أن بقاءهم حيث هم في المستنقع لا بد أن يفقدهم نصف عددهم في أقل من أسبوع ولاسيما أنهم لا يحملون معهم عقاقير ولا أدوية.

ثم استدرك في حديثه قائلاً: «هذا إذا لم يتغلبوا علينا بالقتال أولاً فإنهم يسرون جداً إذا انفكوا مقلعين بالمركب، حيث لا ينقصهم للرجوع إلى القرصنة إلا ظفرهم بسفينة».

فقال الربان سمولت: «إنه أول مركب فقدته».

وكنت متعباً جداً لا يخفاك. ولما رقدت للنوم صرت أتقلب كثيراً حتى غلبني النعاس فنمت كقطعة من الخشب بلا حراك.

وقد استيقظ الباقون من النوم مبكرين وبعد أن فطروا زادوا حطب الوقود نحو النصف عما كان بالأمس، ثم استيقظت بعد ذلك لحدوث حركة وضوضاء.

فسمعت شخصاً يقول بصوت عال: «علم الهدنة!».

ثم سمعت بعد ذلك مباشرة صوتاً مستغرباً يقول: «إنه سيلفر نفسه!».

وعلى هذا انتصبت قائماً وأسرعت إلى ثقب في الحائط وأنا أمسح عيني لأنظر ما حصل.

الفصل العشرون

سفارة سلفر

بدا لي واضحاً أن رجلين واقفين بجوار الدريئة من الخلف، وكان أحدهما يلوح بقطعة من القماش الأبيض، وأما الآخر فكان سلفر بعينه واقفاً بسكون بجانب صاحبه.

وقد كان ذلك في ساعة مبكرة من صباح يوم اشتدت فيه البرودة بحيث لم أر مثلها من قبل، فقد وصل أثر الصقيع إلى نخاع عظامي، وكانت السماء فوق رؤوسنا صافية ولا سحاب يجمها عنا وقد انعكس شعاع الشمس على أطراف الأشجار فجعلها تتألق بلون وردي جميل. وأما المكان الذي كان سلفر واقفاً فيه مع مساعده فكان لا يزال في الظل, وكان سلفر وصاحبه يخوضان إلى الركبة في بخار أبيض من ضباب منخفض قد تسرب ليلاً من المستنقع، وقد كان القر والبخار يدلان دلالة واضحة على سوء المناخ الذي يسود الجزيرة، فقد كانت بالاختصار بقعة رطبة كثيرة الحمى.

فقال الربان: «استقروا داخل البيت أيها الرجال، فإنها بنسبة عشرة لواحد خدعة».

ثم نادى القرصان قائلاً:

«من هذا الآتي؟ قف أو نطلق النار».

فأجاب سلفر بصوت عال: «علم الهدنة».

وكان الربان واقفاً في الرواق محترساً من طلقة يراد بها الغدر إذا قصد ذلك، ثم اتجه إلينا وقال:

«فريق الدكتور، كونوا على حذر في مراقبتكم، وأنت يا دكتور أرجو أن تكون جهة الشمال، وأنت يا جيم في الجهة الشرقية، وأنت يا غراي في الجهة الغربية، وأما أنتم يا رجال المجموعة الثانية فلتعدوا البنادق وتحشوها؛ كونوا نشطين ومحترسين أيها الرجال».

ثم اتجه نحو القرصان ثانياً وقال:

«وماذا تريدون بعلم الهدنة؟».

وفي هذه المرة أجاب الرجل الآخر بصوت عال قائلاً:

«إنه القبطان سلفر! يا سيدي أتى ليفاوضكم».

فقال الربان: «القبطان سلفر! لا أعرفه، من هو؟». وسمعناه يقول في نفسه بصوت منخفض: «هل هو قبطان؟ يا الله وهذه ترقية أخرى!».

فأجاب جون الطويل بالأصالة عن نفسه: «أنا يا سيدي، وقد اختارني هؤلاء الصبية قبطاناً بعد أن تركتم السفينة – وكان ينطق كلمة تركتم بشدة خاصة – ونحن مستعدون لأن نسلم إذا أعطينا شروطاً لا بأس بها. وكل ما أريده هو كلمة منك يا كابتن سمولت في أن تسمح لي بالدخول والخروج من الدريئة سالماً معافى، وتمهلني دقيقة حتى أبتعد بقدر مسافة الطلقة قبل إطلاق النار».

فقال الربان سمولت: «يا رجلي ليس لي مصلحة في حديثك ولكن إن كنت تريد أن تكلمنا فيمكنك المجيء وهذا كل شيء، فإذا كانت خيانة فتكون من جانبكم وليساعدكم الله».

فصـاح جـون الطويـل وهـو مسـرور قـائلاً: «إن فـي هـذا الكفايـة أيها الربان فإن كلمة منك تكفي. فإني أعرف الرجل النبيل ولا ريب».

وكنا نرى الرجل الذي يحمل الراية وهو يحـاول أن يثنـي سلفر عن عزمـه، ولـم يكـن هـذا بغريـب إذا نظرنـا إلـى تصـرف الربـان فـي جوابـه الـذي يـدل علـى الشـهامة المتناهيـة، إلا أن سلفر ضـحك منـه بصـوت عـال ثـم لطمـه علـى ظهره كمـن يقـول إن فكرة الحـذر فـي غير محلها، ثم تقدم نحو الدريئة وقذف بعصاه إلى الداخل، ثم رفـع سـاقه برشـاقة ومهـارة عظيمتـين واقـتحم السـياج وعبـر إلـى الجهـة الأخرى.

وإنـي أعترف بـأني انشـغلت لدرجـة كبيرة بمـا كـان جاريـاً، حتـى صرت قليل الفائدة في مركزي كحارس، فقد تركت فعلاً الثغرة التـي في الجهة الشرقية وزحفت بهدوء وراء الربان الذي جلس على العتبة متكئاً بذراعـه علـى ركبتيـه، واضـعاً رأسـه بين يديـه، محـدقاً بعينيـه فـي المـاء وهو يتدفق من فوهة الينبوع الحديدية بين الرمل، وكان يصفر لنفسـه: «ألا فأتوا أيتها الفتيات والفتيان».

وقد عـانى سلفر كثيراً حتـى تسلق التل، وبقـي حتـى وصـل إلـى التل المنحـدر بين دوحـات الشـجر الكثيفـة، فـي الرمـل النـاعم، وكانـت حالته بعكازه أشبه بحال سفينة سكن عنها الريح وهي في وسط البحر. ولكنـه استمر فـي ذلك كرجـل وهـو صـامت حتـى وصـل أمـام الربـان، فحيـاه بـاحترام كبير، وكـان لابسـاً أحسـن مـلابسـه، مرتـدياً معطفـاً أزرق كبيراً سميكاً ذا أزرر نحاسية يصل إلـى ركبتيـه، وفوق رأسـه قبعـة أنيقة موضوعة على مؤخر هامته.

قال الربان رافعاً رأسه: «هذا أنت قد وصلت، يحسن بك الجلوس».

فقال جون الطويل مشتكياً: «لِمَ لا تسمح لي بالدخول أيها الربان؟ فإنه نهار شديد البرد ولا يصح الجلوس في الخارج فوق الرمل».

فقال الربان: «لماذا يا سلفر، فإذا كنت فضلت أن تبقى رجلاً أميناً لكنت بقيت فوق سفينتك، فإن هذا من فعلك، ولولا ذلك لبقيت طاهي سفينتي ولقيت معاملة لطيفة، بدلاً من أن تكون القبطان سلفر لص البحر المعتاد والثائر، وبذلك تستحق الشنق».

فأجاب الطاهي بعد أن جلس كما أمر: «حسن أيها الربان، أرجو أن تمد إليّ يدك ثانياً وهذا كل ما أريد، وما أحلى وأجمل هذا المكان الذي أنتم فيه، آه وهذا جيم أرجو لك أحسن الأوقات، وإني تحت تصرفك يا دكتور. هذا وإني أراكم مجتمعين كأنكم أسرة سعيدة كما يقال».

فقال الربان: «إذا كان عندك شيء تريد أن تقوله فقله يا رجلي».

فأجاب سلفر قائلاً: «إنك مصيب أيها الربان سمولت فإن الواجب هو الواجب بالتأكيد، حسن، والآن إني مخبرك أن عملكم البارحة كان في غاية الإحكام، ولا أنكر أنه كان متقناً. إن بعض رجالكم يحكمون تصويب السهام، وإني لا أنكر أيضاً بعض رجالي أثر عليهم ذلك، وربما يكونون قد اضطربوا جميعاً وقد أكون نفسي اضطربت، وربما يكون هذا هو سبب مجيئي إلى هنا للمفاوضة، ولكن

اعلم أيها الربان إن هذا لا يحصل مرتين لا والله! فسنحسن طريقة الحراسة ولنتعاون على ذلك بشرب الروم، وأظن أنه يخيل إليكم أن الخمر لعبت بنا، كلا فإني أخبرك أني كنت في صحوي، إلا أني كنت متعباً للغاية، ولو أنني تمكنت من الاستيقاظ دقيقة قبل ذلك لكنت أجهزت عليكم أثناء ذلك».

فقال الربان سمولت ببرودة: «حسن!».

فقد كان كل ما قاله سلفر لغزاً له، وأنه ما كان ليمكنك أن تظن ذلك أثناء حديثك. وأما أنا فابتدأت أوجس خيفة، وقد خطرت بذهني آخر كلمات بن جن وابتدأت أنه زار اللصوص حيث سكروا جميعاً حول النار، ثم انشرح صدري وأنا أفكر ملياً أن أمامنا أربعة عشر رجلاً من العدو فقط.

فقال سلفر: «حسن هذه طلباتنا، فإننا نبغي الكنز وسنأخذه – وهذا بيت القصيد! عليكم المحافظة على حياتكم، وهذا شيء أكيد لكم ولا أشك أن الخريطة بحوزتكم، أليس كذلك؟».

فأجاب الربان قائلاً: «ربما كان ذلك».

فرد عليه جون الطويل قائلاً: «آه. حسن إنها عندكم إني موقن بذلك. لا ينبغي لكم أن تكونوا جشعين مع إنسان، فليس في ذلك ذرة من الفائدة لكم وثقوا بذلك. وإن ما أريد هو الرسم البياني الذي عندكم، وإني ما أردت بكم سوءاً مطلقاً».

فقاطعه الربان قائلاً: «إن هذا غير مجد معي يا رجلي، وإننا نعرف بالضبط ما قصدتم عمله، ونحن لا نعير ذلك اهتمامنا، وتحقق من الآن أنكم لن تستطيعوا إلى ذلك سبيلاً».

ثم نظر الربان إليه شَذرا وبهدوء وأخذ يملأ غليونه بالتنباك.

وصاح سلفر قائلاً: «إذاً كان أبرهام غراي».

فقاطعه الربان بصوت عال قائلاً: «كف عن هذا، إن غراي لم يفض إليّ بشيء، وأزيدك قولاً إني أود أن أراك أنت وهو وجميع الجزيرة تنسفون من فوق الماء وهذا هو رأيي في ذلك يا رجلي».

وبعد هذا الانفعال البسيط ابتدأ سلفر يخفض من غلوائه، وكان وطيسه قد حمى قبل ذلك ولكنه انكمش الآن.

وقال: «يكفي هذا، فليس بين السادة الأفاضل موافقاً أو غير موافق كما يقتضي الحال، وحيث إني أراك تملأ غليونك بالتنباك يا كابتن، فإني رافع الكلفة وناهج نهجك».

ثم ملأ غليونه وأشعله، فجلس الرجلان يدخنان غليونهما وهما ساكنين فترة من الزمن، فحيناً كان يحملق الواحد منهما في وجه الآخر، وتارة يضغطان على التبغ، وطوراً ينحني الواحد منهما إلى الأمام ليبصق. فكان منظرهما وهما كذلك يسر الخاطر كأنما كان الإنسان يشاهد مسرحاً يمثل عليه.

ثم استأنف سلفر كلامه قائلاً: «والآن هذا هو حالنا، إننا نريد الرسم البياني حتى نحصل على الكنز بوساطته، ثم فلتتركوا اصطياد البحارة الذين لا حول لهم ولا قوة ودعوا إصابتهم في رؤوسهم وهم نائمون، فإذا قبلتم ذلك فأنا مخيركم بين أمرين، إما أن نحملكم معنا على ظهر السفينة بعد أن نكون قد شحنا الكنز، وفي هذه الحال أعطيكم ميثاقاً بكلمة شرف أن أوصلكم سالمين إلى شاطئ إحدى البلدان. أو إذا لم تقبلوا هذا، فإن بعض رجالي ذوو طباع خشنة ولهم

ثأر عندكم ويريدون إشفاء غليلهم منكم لما استعملتموه من القسوة، فعلى ذلك يمكنكم الإقامة في هذا المكان، ثم إننا نقسم المؤن بنسبة عدد الرجال، وإني معطيكم عهدي وميثاقي لما قلت أولاً أن أرسل لكم أول سفينة أبصرها تمر لتحملكم. ويجب أن تعتبروا أن هذا الحديث جدي. وما أظن أنكم تنالون خيراً منه وإني لأرجو – وهنا رفع صوته – جميع الرجال الذين في هذا البيت المحصن أن يسمعوا حديثي، فإن الكلام وإن خوطب به شخص واحد فإنه يسري على الجميع».

فقام الربان سمولت من مقعده وصار يضرب غليونه براحة كفه اليسرى لينزل منه رماد التبغ. وقال: «هل هذا كل ما تريد أن تقول؟».

فأجاب جون: «بالله إن هذه لآخر كلمة نقولها، فإذا لم تقبلوا هذا فلن نلاقيكم إلا برصاص بنادقنا، فقد سمعتم آخر كلمة عندنا».

فقال الربان: «حسن جداً، اصغ الآن لما أقول: إذا أتيتم إلينا واحداً واحداً فإني مغلغلكم في السلاسل وساحبكم معي إلى إنجلترا لتحاكموا محاكمة عادلة هناك. وإذا لم تفعلوا ذلك فإن اسمي إسكندر سمولت وقد رفعت راية ملكي، وإني لجاعل مقركم قاع البحر، ولا يمكن أن تجدوا الكنز، ولا يمكنكم أن تسيّروا السفينة، ولا تقدروا على محاربتنا – وهذا غراي قد فك نفسه من خمسة رجال منكم. إن سفينتكم قد قيدت بالسلاسل أيها السيد سلفر، فإنكم على شاطئ لا ريح فيه، وستتحقق من ذلك فيما بعد، وإني واقف هنا ومخبرك بهذا؛ هذه آخر كلماتي المفيدة التي يمكنك سماعها مني، فبالله إني لمجند لك في أول مرة أراك فيها بعد الآن، فاذهب يا غلامي، وارحل عن هذا المكان، وأرجو أن تسرع وأنت واضع يداً فوق أخرى».

فصار وجه سلفر كالصورة في تلونه، وكانت عيناه تموجان في رأسه من شدة الغضب، ثم نزع النار من غليونه.

وصاح قائلاً: «أن أعطني يدك حتى أقوم!».

فأجابه الربان قائلاً: «لست فاعلاً ذلك».

فصاح : «ومن يعطيني يده لاستعين بها على القيام؟».

فلم يتحرك أحد منا، فزحف على الرمل وهو يدعو علينا بأبشع الدعاء حتى وصل إلى المدخل فاستند إليه وانتصب قائماً متكئاً على عكازه. ثم بصق في الينبوع وصاح بصوت عال قائلاً:

«ذاك ما أعتقده فيكم. وقبل أن تمضي ساعة سأصليكم ناراً حامية وأنتم في بيتكم المحصن، فاضحكوا بالله عليكم اضحكوا! فإنه قبل مضي ساعة ستضحكون من الجهة الأخرى فسيكون أسعدكم حظاً من يموت».

وبينما هو ذاهب يتعثر في مشيته ويحرث الأرض بعكازه جعل يشتم شتماً قبيحاً، ثم ساعده الرجل الذي يحمل علم الهدنة على اقتحام الدريئة بعد أن خاب مراراً وهو يعالج ذلك، ثم غاب في الحال داخل الأشجار في الغابة.

الفصل الحادي والعشرون

الهجوم

حين اختفى سلفر اتجه الربان الذي كان يراقبه جيداً إلى داخل البيت فلم يجد أحداً منا في موضعه إلا غراي. فكانت تلك المرة الأولى التي رأيناه فيها غاضباً شديداً.

فنادى قائلاً: «ليلزم كل مكانه» ولما رجع كل منا إلى موضعه قال: «يا غراي إني سأدون اسمك في السجل تنويهاً باسمك فقد وقفت كما يقضي عليك الواجب كالبحار النظامي، ويا سيد ترلوني إني مستغرب جداً لسلوكك، وأنت يا دكتور كنت أظنك ارتديت سترة الملك فهل كان سلوكك في موقعه فونتنوي هكذا؟ فإذا كانت الأولى لك فالأفضل أن تستريح».

ثم وقف جماعة الدكتور جميعاً في مكانهم عند الفتحات وكان الباقون منشغلين في تلقيم البنادق الفائضة وكان احمرار الوجه يعلو وجوه الجميع وكان في أذن كل واحد منهم برغوثاً كما جاء في الأمثال.

ثم حملق الربان برهة وهو صامت وتكلم قائلاً:

«يا بني إني قد صوبت إلى سلفر جميع السهام، وأشعلت فيه النار وهذا ما أردته، وإني لموقن أنه قبل مضي ساعة سيهاجمنا برجاله كما قال، وإنهم يزيدون علينا عدداً، ولا داعي لأن أذكر لكم هذا، ولكننا نمتاز عنهم بأننا نحارب تحت حماية. ومنذ دقيقة كنت

أقول حاربنا بنظام تام. ولست أرى شكاً في أن النصر سيكون حليفنا إذا أردتم».

ثم مشى حول المكان يتفقد الأحوال وهو يقول: «إن كل الأمور سائرة بانتظام».

وكان في الجهتين القصيرتين من البيت شرقاً وغرباً فتحتان فقط، وفي الجهة الجنوبية التي فيها الباب فتحتان أيضاً، وفي الجهة البحرية خمس، وقد كان عندنا نحو العشرين بندقية للرجال السبعة، وكان الحطب مكوماً أربعة أكوام – كالمناضد إن شئت، واحدة منها عند منتصف كل ضلع تقريباً، وقد وضع على كل منضدة من هذه، مقدار من الذخيرة وأربع بنادق محشوة معدة لمناولتها للمدافعين، وفي الوسط سيوف البحارة.

ثم قال الربان: «أطفئوا النار فقد ذهب البرد ولا يستحسن ترك الدخان يدخل في أعيننا».

وعلى ذلك أخرج ترلوني بنفسه موقد النار الحديدي ثم غمس الجمر في الرمل لإطفائه.

ثم استمر الربان يصدر أوامره قائلاً: «إن هوكنز لم يفطر بعد، فاذهب يا هوكنز لتفطر ثم عد إلى مكانك وكن نشطاً مملوءاً حياة يا بني الآن، فإن ذلك ضروري قبل أن يقتضي الأمر، وأنت يا هنتر مر على الجميع بدور من البراندي».

وفي أثناء ذلك كان الربان قد رتب خطة الدفاع في ذهنه ثم قال: «يا دكتور أرجوك أن تجعل مكانك عند الباب ترى منه دون أن تعرض نفسك، فكن دائماً في الداخل وليكن إطلاقك النار من المدخل،

وأنت يا هنتر الزم الطرف الشرقي هناك، وأنت يا جويس قف في الجهة الغربية يا رجلي، أما أنت يا سيد ترلوني فإنك أحكم الجميع في إطلاق الرصاص فلتكن أنت وغراي عند الطرف الشمالي ذي الفتحات الخمس، فإن الخطر أشد في هذه الجهة فإذا تمكنوا من الاقتراب منه أطلقوا النار علينا من منافذنا فإن حالتنا تصبح سيئة. وأنت يا هوكنز ليس لي ولك أي قيمة تذكر في إطلاق الرصاص، فلنقف لتعبئة ومساعدة من تلزم له المعونة».

وما أوشك حديث الربان أن يتم حتى انقشع البرد، ولم تكد الشمس تعلو حزام الأشجار التي كانت تكتنفنا حتى سلطت أشعتها الذهبية على المكان وانقشع الغمام وجف البخار دفعة واحدة، وسُرعان ما اشتدت الحرارة فصار الرمل محرقاً وابتدأ الصمغ يسيل من الكتل الخشبية التي بها البيت المحصن فخلعنا المعاطف والأردية، وفتحنا الجيوب حول العنق، وشمرنا الأكمام عن السواعد، ووقفنا هناك كل في المكان المعد له، تتقد قلوبنا حرارة وحميَّة.

فمرت بنا ساعة ونحن على ذلك الحال.

فقال الربان بتأثر: «قاتلهم الله، إن هذا الحال تشبه حالات سكون الهواء في البحر فصفر للريح يا غراي».

وفي هذه اللحظة تماماً وصلتنا أول أخبار الهجوم فقال جويس أستميحك يا سيدي هل أطلق إذا رأيت أحداً.

فأجاب الربان بصوت عال: «هكذا قلت لك من قبل».

فأجابه جويس بأدب وهدوء كالعادة: «شكراً لك سيدي».

حين مضت مدة ولم يحصل شيء جعلتنا تلك الملاحظة جميعاً

متحفزين مصغين بسمعنا، ومحدقين ببصرنا وقد قبض أصحاب البنادق على أسلحتهم بأيديهم بينما كان الربان واقفاً في وسط البيت المحصن مطبقاً فاه وعابساً بوجهه.

وما هي إلا ثوان قليلة حتى أطلق جويس بندقيته فجأة وقبل أن يذهب صدى طلقته، تكررت الطلقات من الخارج مراراً وتناثر الرصاص، واحدة بعد الأخرى، كالخط المتسلسل من الأوز وقد وجهت إلينا من كل صوب، من أطراف السياج، فأصابت الحصن عدة طلقات، ولكن لم تنفذ إليه واحدة منها، ولما انكشف الدخان وانقشع الغمام، ساد الهدوء والسكون حول الدريئة والأشجار المحيطة فصارت خالية من الناس كما كانت سابقاً، فما كان ليتحرك غصن، ولا يرى ضياء لأنبوبة بندقية ليدل على وجود أثر للعدو.

ثم سأل الربان قائلاً: «هل أصبت الرجل يا جويس؟».

فأجابه جويس قائلاً: «لا يا سيد لا أظن ذلك».

فتمتم الربان سمولت قائلاً: «إن قول الصدق لثاني الفضائل، املأ بندقيته يا هوكنز، وكم كان عدد الطلقات في وجهتك يا دكتور؟».

فقال الدكتور ليفزي: «إنــي أعرف بالتأكيد أن ثلاث طلقات صوبت إلينا من هذه الجهة، فقد رأيت الضوء ثلاث مرات، مرتين متقاربتين والثالثة تبعد عنهما قليلاً إلى وجهة الغرب».

فقال الربان: «أي ثلاث؛ وكم في وجهتك أيها السيد ترلوني؟».

لم يكن الجواب هنا سهلاً فقد أطلقت من الشمال – سبع على حساب تعداد السيد، وثماني أو تسع على حساب تعداد غراي؛ ومن الشرق والغرب أطلق عيار واحد فقط فكان من الواضح أن استئناف

الهجوم سيكون من الجهة الشمالية؛ وستكون مجرد مناوشة من الجهات الأخرى، ولكن الربان سمولت لم يغير شيئاً من ترتيبه فكانت حجته في ذلك أنه إذا نجح الثائرون في اختراق الدريئة فسيستحوذون على أي فتحة يجدونها غير محمية ويتصيدوننا كالجرذان داخل الحصن.

ولم يتركوا لنا الوقت الكافي، فلم يبتعدا عنا قليلاً حتى انقض علينا جماعة القراصنة من الغابة التي في الجهة الشمالية وركضوا مسرعين نحو الحصن صارخين بصوت عال، وفي الوقت نفسه صبوا علينا الرصاص من الغابة، فدخلت إحدى القذائف من الباب تصفر وهشمت بندقية الدكتور وكسرتها قطعاً صغيرة.

وتهافت البغاة على السياج كالقردة، وصار السيد وغراي يكرران عليهم الطلقات النارية حتى وقع ثلاثة منهم، أحدهم في الأمام داخل السياج والآخران في خارجه؛ ولكنه يظن أن واحداً كان خوفه أكبر من إصابته فإنه بعد ذلك فرّ مهرولاً واختفى في الحال بين الأشجار.

وقد انكفأ اثنان منهم على وجهيهما ودخل التراب أفواههم، وهرب آخر ودخل أربعة منهم حصوننا بينما كان يرى من الملجأ أن سبعة أو ثمانية منهم مجهزون بعدة بنادق وهم مستمرون بإصلاء الحصن ناراً حيث أصابته إلا أنها لم تجدهم نفعاً.

وقد كان الأربعة الذين هجموا علينا قد اقتحموا الردهة ووصلوا إلى البيت، وكانوا يصرخون وهم يركضون وكأن الرجال الذين بين الأشجار يرددون صدى صوتهم ليشجعوهم. وقد صُوبت طلقات عدة ولكنها كانت على عجل من الرماة حتى إنه لم تصب واحدة منها، وفي لحظة كان القراصنة الأربعة قد عبروا التل وصاروا فوقنا.

ثم أطل البحار جوب أندرسن برأسه من وسط الفتحة وكان يصرخ بصوت يشبه الرعد قائلاً: «صوبوا عليهم أيها الرجال جميعاً».

وفي الوقت ذاته أمسك أحد القراصنة بمقدمة بندقية هنتر واختطفها من يده وأخذها من الفتحة، وهوى بضربة قوية أوقعت هنتر المسكين فاقد الشعور على الأرض بينما كان ثالث يجري من دون سلاح حول المنزل وظهر عند الباب فجأة وطاح بسيفه البحري على الدكتور.

ثم تغير مركزنا كلية وانعكس الحال فمنذ لحظة كنا نطلق ونحن تحت حماية على عدو مستهدف في العراء، والآن صرنا نحن معرضين من دون حماية ولم يكن في طوقنا الرد على أحد منهم.

وقد أصبح البيت الخشبي مملوءاً بالدخان، وكان ذلك سبباً في نجاحنا النسبي، فصار يرن في أذنيّ الصراخ الدال على الاضطراب، وأضاء بريق طلقات المسدسات، بينما كان يزعجني أنين جريح بصوت عال.

فاح الربان: «اخرجوا أيها الفتيان وحاربوهم في العراء! بسيوف البحر!».

فأخذت سيفاً من الكومة وأخذ شخص آخر سيفاً مثله فجرحني عند مفاصل أصابعي جرحاً بليغاً، فاندفعت إلى الخارج من الباب إلى نور الشمس، وكان قد رآني شخص بالقرب مني لم أتبينه وكان أمامي تماماً الطبيب مقتفياً أثر الذي هجم عليه تحت التل، وعندما وقع عليه بصري كان قد هزم غريمه وأوقعه على ظهره شاجاً وجهه.

ثم صاح الربان قائلاً: «انتشروا حول البيت أيها الفتيان» وقد

أحسست بتغير في صوته رغم شدة الحالة التي اختلط فيها الحابل بالنابل.

وقاطعته على الفور من دون تبصر واتجهت إلى الشرق، رافعاً سيفي وأنا أعدو حول ركن المنزل، وفي اللحظة الثانية كنت أمام أندرسون وجهاً لوجه، فصرخ بصوت عال رافعاً سيفه فوق رأسه وهو يتألق ويبرق في ضوء الشمس. ولم يكن في الوقت متسع للخوف. ولكن حين كانت الضربة مهيئة للوقوع عليّ قفزت مسرعاً إلى جانب، فزلقت قدمي في الرمل الناعم فانحدرت إلى جانب التل.

وعندما كنت أعبر الباب، وكان باقي الثائرين قد اقتحموا الحواجز للقضاء علينا، وكان على رأس أحدهم قلنسوة حمراء، وقد تسلق أعلى الردهة وقذف بإحدى رجليه إلى الداخل واضعاً سيفه في فيه. هذا وكانت الفترة قصيرة حتى إني عندما انتصبت على قدمي كان كل واحد في الموضع الذي رأيته فيه، فكان الشخص الذي على رأسه القلنسوة الحمراء لا يزال في منتصف الطريق وابتدأ آخر يطل برأسه من فوق السياج، ولكن في هذه البرهة كانت المعركة قد انتهت وكتب لنا النصر فيها.

وقد انقض غراي الذي كان يتبعني عن قرب، على البحار قبل أن يفيق من ألم وقع الضربة التي همّ أن يهوي بها عليّ، وقتل آخر عند إحدى الفتحات وهو يحاول إطلاق النار على البيت وهو على الأرض صريعاً يئن من جروحه، والمسدس لا يزال يدخن وهو في يده، وثالث قد رأيته وقد أرداه الدكتور بضربة قوية، ولم يبق إلا واحد فقط من الأربعة الذين تسلقوا الجدار لم يعلم عنه شيئاً وهو بعد أن ترك خنجره على الأرض، صار يتسلق الجدار ليلوذ بالفرار من الموت.

ثم صاح الدكتور: «أطلقوا النار من داخل البيت، وأنتم أيها الفتيان ارجعوا إلى المكان المغطى».

ولكن لم يلتفت أحد إلى كلماته فلم تطلق رصاصة واحدة وكان آخر المهاجمين قد ولى مدبراً فنجا، ثم اختفى مع الباقين بين الأشجار، وما كادت تنقضي ثلاث ثوان حتى لم يبق أثر لجماعة المهاجمين سوى الخمسة الذين وقعوا على الأرض، أربعة في داخل السور وواحد في خارجه.

ثم جريت أنا والدكتور وغراي بسرعة للحماية؛ فقد يرجع من تبقى منهم حياً لأنهم تركوا بنادقهم. ومن المحتمل جداً استئناف الإطلاق في أي لحظة.

والآن قد انقشع الدخان من البيت وتبين لنا الثمن الذي دفعناه لانتصارنا، فقد كان هنتر مختبلاً بجوار فتحة وأما جويس فلن تقوم له قائمة بعد أن أصابته الرصاصة في رأسه، وفي أثناء ذلك كان السيد يسند الربان في الوسط وكلاهما مصفر كصاحبه.

وقال ترلوني: «إن الربان قد جرح».

ثم سأل سمولت قائلاً: «هل ولوا الأدبار؟».

فأجابه الدكتور قائلاً: «كن على يقين أن من استطاع ذلك قد فعل، إلا أن خمسة منهم لن يقوموا أبداً من رقادهم».

فصاح الربان: «خمسة! هذا خير، فإن خمسة مقابل ثلاثة تجعلنا نبقى أربعة مقابل تسعة، إنها لحالة أحسن مما كنا في البداية فقد كنا سبعة مقابل تسعة عشر حينئذ أو إن هذا كان اعتقادنا، فما كان أشدها وقعاً».

القسم الخامس

اقتحامي البحر

الفصل الثاني والعشرون

كيف بدأت اقتحام البحر

لم يكن ثمة رجعة للثائرين بعد ذلك، وأكثر من هذا لم تطلق رصاصة واحدة بعد من الغابات، فقد أخذوا جراية يومهم كما قال الربان، وصارت ملكية البيت لنا وحدنا، وخيم علينا السكون، ولهذا تيسر لنا معالجة الجرحى وتحضير الغداء، فطبخت أنا والسيد في الخارج رغم الأخطار التي كانت تتهددنا، ورغم أننا في الخارج فما كنا نفقه الحال التي كنا فيها، لهول ما كنا نسمعه من أنين الجرحى الذين كان يعالجهم الدكتور.

ولم يبق من الرجال الثمانية الذين وقعوا في أثناء المعركة إلا ثلاثة يدب فيهم دبيب الحياة وكان أحدهم القرصان الذي قتل عند الفتحة وهنتر والربان سمولت. وكان الأولان من هؤلاء في حكم الموتى، فقد زهقت روح الثائر وهو تحت مشرط الطبيب وأما هنتر فلم يعد إلى وعيه رغم ما بذلناه في معالجته. فقد بقي طول النهار يعالج سكرات الموت بصوت عال كما كان يفعل القرصان القديم في نزلنا عندما انتابته صرعة الموت، إلا أن هذا كان قد كسرت أضلعه من الضربة التي أصابته، وتهشمت جمجمة رأسه في أثناء سقوطه على الأرض، ولم يمض من الليلة الثانية إلا بعض الوقت حتى أسلم روحه إلى خالقه من دون ضجة ولا صخب.

وأما الربان فقد كانت جروحه بليغة، لكنها لم تكن خطرة، فلم يصب عضو منه إصابة خطرة، بل كسرت قذيفة أندرسون تزقوته – وقد كان جوب هو أول من أطلق عليه – ولمست رئته من دون أن تحدث بها ضرراً كبيراً، وقطعت الثانية بعض شرايين ساقه. وكان من المحقق شفاؤه حسب مشورة الطبيب، على أنه لم يسمح له أن يمشي مدة أسابيع أو يحرك ذراعه أو يتكلم أيضاً إذا أراد.

وما كان الجرح العرضي الذي أصابني في مفاصلي إلا كقرصة البرغوث وقد ضمده الطبيب بالجص وشد أذني فوق ذلك.

وبعد الغداء جلس السيد والدكتور بجانب الربان للمشاورة، وبعد أن فرغوا جميعاً من الحديث وكان الوقت بعد الظهر بقليل أخذ الدكتور قبعته ومسدسه وشد على وسطه حمائل السيف ووضع الرسم البياني في جيبه وحمل بندقيته على كتفه ثم اقتحم السياج من الجهة الشمالية وسار مسرعاً بين الأشجار.

وكنت أنا وغراي جالسين إلى الطرف الآخر من الحصن حتى لا تكون على مسمع من رؤسائنا في مشاورتهم. وما كاد غراي يخرج غليونه من فيه وينسى أن يعيده ثانياً إلى فمه، حتى اعترته دهشة نزلت عليه كالصاعقة لما رآه من حدوث ذلك فقال:

«بحق دافي جونس Davy Jones خبرني هل اختبل الدكتور».

فقلت: «لماذا، إن الدكتور آخر من يصاب بذلك من قومنا على ما أعتقد».

فقال غراي: «حسن يا زميل البحر، إذا لم يكن كذلك فأكون أنا المجنون وتذكر كلماتي هذه».

فرديت عليه: «إني أعتقد أن الدكتور له رأي خاص فإذا صح ظني فإنه ذاهب ليرى بن جن». وقد ظهر فيما بعد صدق حدثي، وفي الوقت ذاته كان البيت يتقد من شدة الحر، وكان الفناء الرملي الذي داخل السياج كالجمرة من شدة قيظ الظهيرة، فابتدأت تختمر في ذهني فكرة أخرى ظهر لي بعدها أنها لم تكن مطابقة للواقع مطلقاً: فكان بدايتها أني صرت أحسد الدكتور وهو يمشي بين ظلال الغابات الوارفة الباردة ومن حوله الطيور، يستنشق رائحة الصنوبر الزكية، بينما كنت ماكثاً هنا أتلظى بحرارة المكان، وتلتصق ملابسي بصمغ الأشجار، والدماء تحيط بي وأنا بين أجسام الموتى فسبب لي ذلك كراهية المكان لدرجة الخوف منه.

وكنت طول المدة شاغلاً بغسل البيت ثم غسل المواعين بعد الأكل، فكان هذا داعياً لازدياد الاشمئزاز والحسد في نفسي، وأخيراً بينما كنت بالقرب من كيس الخبز وبعيداً عن أعين المراقبين اتخذت أول التدابير لخلاصي حيث ملأت جيوب معطفي من الكعك.

سمني مجنوناً إذا شئت، فإني كنت على وشك الإقدام على مخاطرة بعمل سخيف، وكنت مصمماً على التنفيذ بكل ما في وسعي من الحيطة فكان الكعك يكفي لإبعاد ألم الجوع عني على الأقل لغاية اليوم الثاني إذا قدر وحدث حادث.

فاستحوذت على طقم من المسدسات وكان معي قبلاً مجمع بارود وشيء من الرصاص جعلتني أعتقد أن السلاح الذي معي يكفيني.

وأما الخطة التي رسمتها في ذهني فكانت لا بأس بها في حد

ذاتها، فقد عولت الذهاب إلى اللسان الرملي الذي يفصل المرفأ من جهة الشرق عن عرض البحر باحثاً عن الصخرة البيضاء التي رأيتها مساء البارحة، لأتحقق هل خبأ هناك بن جن قاربه أم لا. فإن ذلك عمل جدير بالبحث على ما أعتقد حتى الآن، إلا أني كنت واثقاً أنه لن يسمح لي أن أبرح الردهة، لذلك كانت خطتي أن أنسل من دون إذن عندما تغفل عني العين. هذه الطريقة السيئة هي التي قبحت العمل وأظهرته بمظهر خطأ ولكني كنت طفلاً وقد صممت، فلم يسعني إلا التنفيذ.

وقد هيأت مجرى الأحداث التي وقعت سنوح الفرصة، فكان السيد وغراي مشغولين في مساعدة الربان في ربط أربطته وكان الشاطئ رائقاً فعدوت من فوق الدريئة حتى وصلت إلى داخل الأشجار الكثيفة الملتفة داخل الغابات. وقبل أن يعملوا بغيابي كنت قد بعدت عنهم حتى صرت لا أسمع صياحهم إذا هم نادوني.

وكانت هذه الغلطة ثاني أخطائي الدالة على الحمق، وكانت أعظم ذنباً من الأولى إذ تركت رجلين مسلحين فقط لحراسة البيت. إنما كان رائدي في ذلك توخي عمل مساعدة لنجاة جماعتنا كما حاولت في المرة الأولى.

فيممت الشاطئ الشرقي للجزيرة لأني كنت أقصد الذهاب إلى شاطئ البحر من جهة اللسان متجنباً رؤيتهم لي من جهة الميناء، وكان ذلك وقت العصر، إلا أن الجو ما زال حاراً والشمس ما فتئت عالية.

وبينما كنت أسير متخللاً الأشجار الطويلة لم أكن أسمع هدير موج البحر المستمر فقط، بل كنت أسمع كذلك صوت حفيف أغصان

الأشجار وتساحق فروعها الذي دل على أن نسيم البحر ابتدأ يشتد عن قبل، ووشيكاً وصلت إليّ تموجات من الهواء البارد، وبعد قليل دخلت إلى حافة الغابة المكشوفة، فرأيت البحر منبطحاً أمامي حتى الأفق، وضوء الشمس منعكساً على بساطه الأزرق، والموج يتلاطم ويقذف بزبده على الشاطئ.

ولم يحصل في السابق أن رأيت البحر هادئاً حول جزيرة الكنز. فقد كانت الشمس متقدة في السماء فوق الرؤوس، وربما وقفت حركة الهواء واستوى سطح البحر وازرق لونه، ورغماً من كل ذلك فما كان ينقطع تحرك الاسطوانات الأفقية جيئة وذهاباً بطول الشاطئ الداخلي وهي تتلاطم ليلاً نهاراً. ولم يكن في اعتقادي أن بقعة من الجزيرة لا يسمع فيها صوت تلاطم هذه الأمواج العظيمة.

فصرت أمشي بجانب الأمواج وأنا ممتلئ سروراً حتى إذا ما أيقنت أني بلغت حداً كافياً في جهة الجنوب زحفت بحذر إلى قمة الرأس؛ تحت ستر الأعشاب المتكاثفة فحولت ظهري نحو البحر.

ووليت وجهي شطر المرسى وقد انتهى هبوب الريح كأنه أنفذ كل ما فيه من قوة بعد اشتداد هبوبه خلاف المعتاد. ثم تتابع بعد ذلك هواء ضعيف ورياح أخرى تختلف درجة هبوبها من الجهة الجنوبية والجهة الجنوبية الشرقية مكتسحة جبلاً من الضباب أمامها. وكانت الميناء من الجهة التي تهب عليها الريح من جزيرة الهيكل العظمي هادئة ساكنة، كما كانت عندما دخلناها أول مرة، وقد انعكست صورة الهسبنيولا في الماء الساكن كالمرآة، واضحة البكرة التي في طرف صاريها إلى خط الماء، وقد جعل علم القراصنة يخفق فوق صاريها.

وكان على مسافة غير بعيدة منا أحد القاربين، وكان سلفر جالساً في المؤخرة وكنت دائماً أتبينه بوضوح – بينما كان رجلان متكئين على حافة المؤخرة أحدهما كان لابساً قلنسوة حمراء وهو ذلك الوغد الذي رأيته منذ بضع ساعات متسلقاً السياج، وكان ظاهراً عليهم أنهم كانوا يتكلمون ويضحكون، على أني على هذا البعد – الذي يزيد قليلاً عن ميل – لم يكن في مقدوري أن أسمع كلمة مما يقال؛ وفي الحال ترامى لسماعي صوتاً إنسانياً بالغاً أشد درجات البشاعة، بيد أني تذكرت سريعاً صوت كابتن فلنت – وهو اسم الببغاء الذي آل إلى سلفر بعد أن كان ملكاً لفلنت الذي سمي باسمه – وزيادة على ذلك فإني موقن أني تبينت الطائر بريشه اللامع وهو واقف على رسغ سيده.

وبعد قليل أسرع «القارب الجذل» في ذهابه إلى الشاطئ ونزل الرجل ذو القلنسوة الحمراء ورفيقاه من الفتحة إلى عنبر الشركاء.

وفي هذا الوقت كانت الشمس قد غابت وراء «المنظار» وكلما ازداد تجمع الضباب كلما اشتد الظلام حلوكة، فوجدت أنه ينبغي عليّ أن لا أضيع وقتاً قبل أن أعثر على المركب في هذا المساء.

ولو أن الصخرة البيضاء كانت ظاهرة تماماً فوق الأعشاب، إلا أنها كانت تبعد نحو ثمن ميل خلف اللسان، ولذلك عانيت طويلاً حتى وصلت إليها ماشياً على أربع بين الأعشاب وذلك معظم المسافة، وما كاد يجن الليل حتى كنت وضعت يدي فعلاً على جوانبها الخشنة الملمس؟ وكان تحتها بالضبط هوة صغيرة نبت فيها عشب أخضر ويحجبها عن الأنظار ما ارتفع حولها من الجوانب، وما نبت فيها من الحشائش والأعشاب المتكاثفة – التي تنبت عادة تحت أشجار

الغابات – لا يزيد ارتفاعها عن الركبة، وقد كان في وسط هذا الوادي الصغير خيمة صغيرة من جلد الماعز كالتي يحملها النوَر (الغجر) معهم في بلاد الإنكليز.

فنزلت إلى هذا المكان ورفعت طرفاً من الخيمة فوجدت قارب بن جن المصنوع صناعة منزلية إذا جاز التعبير، فهو عبارة عن تقفيصة صنعت جوانبها من أغصان شجر غير مشذب قد شد عليها جلد ماعز جُعل الشعر إلى جهة الداخل، وهو صغير جداً حتى إنه يكاد ألا يسعني. وما كنت أتصور أنه يعوم برجل متوسط الجسم؟ وقد وضع في غوره لوح مستعرض واحد من الخشب – لجلوس الذي يجذف – وهو يساعد في مده، وله مجذاف مزدوج واحد لدفعه.

وقبل هذا كنت رأيت قارباً كالذي صنعه قدماء البريطانيين، ولا يمكن وصف قارب بن جن بأحسن من قولك إنه أشبه بأول وأبسط قارب صنعه الإنسان، إلا أنه كان فيه الميزة العظمى وهو خفته وقابليته للحمل.

والآن بما أني قد عثرت على القارب، ربما تظن أني اكتفيت بالهروب تلك المرة، فإن فكرة أخرى قامت بذهني، وقد تمكنت مني أي تمكن حتى إني كنت مصمماً على تنفيذها ولو بالتعارض مع الربان سمولت نفسه، وهي أن أذهب خلسة تحت جنح الظلام وأقطع حبال الهسبنيولا وأجعلها تذهب حيث يشاء الهوى، وقد تأكدت تماماً بأن الثائرين بعد انهزامهم هذا الصباح ليس أحب إليهم من أن يرفعوا مرساة السفينة ويقلعوا بها حيث شاؤوا، ورأيت أن الأفضل عدم تمكينهم من ذلك بتنفيذ هذه الفكرة إلى حيز الفعل؛ ولما رأيت أنهم

تركوا الحارس فوقها بدون قارب فكان من الممكن القيام بهذا العمل من دون أن أعرض نفسي لخطر كبير.

فجلست حتى عم الظلام وأكلت أكلة جيدة من البسكويت، وكانت الفرصة في هذه الليلة سانحة لإنفاذ غرضي بحيث لا تصدف مرة في كل عشرة آلاف ليلة، وقد عم الضباب بانتشاره جميع الأرجاء، فما كادت تتضاءل أشعة الشمس وتختفي حتى أرخى الليل سدوله وعم الظلام الحالك «جزيرة الكنز» وأخيراً عندما حملت القارب على كتفي وأنا خارج من الوادي أتعثر حيث كنت أتمشى رأيت نقطتين فقط في جميع المرفأ هما اللتان بقيتا ظاهرتين.

أحدهما البقعة التي كانت تضيء فيها النار العظيمة التي على الشاطئ التي رقد حولها القراصنة المهزومون يعاقرون الخمرة بالمستنقع وكانت الأخرى يدل عليها بصيص ضئيل من النور في الظلام القاتم حيث السفينة راسية، وقد أدارها التيار الناشئ عن المد – فصار مؤخرها الآن إلى جهتنا – وقد كان العنبر هو المكان الوحيد المضيء فيها وكان كل ما يرى هو انعكاس أشعة الضوء القوية المنبعثة من الشباك الذي في مؤخر السفينة على الضباب.

ولما كانت المياه قد تراجعت بالجزر فقد اضطررت أن أخوض مسافة طويلة في الرمل الذي يعلوه الماء، حيث كانت تغطى أقدامي فيه مراراً إلى الركبة إلى حين تمكنت من الوصول إلى حافة الماء المتراجع بالجزر، وبعد أن خضت فيه قليلاً وضعت بقوة وهمة قرقلي(*) على سطح الماء جاعلاً قعره إلى الأسفل.

* القرقل: Caracle، زورق من أماليد مجدولة تغشى بأدم أي جلد. /المترجم/.

الفصل الثالث والعشرون

تراجع الماء بالجزر

كان القرقل في غاية الأمان لركوب شخص واحد في مثل طولي ووزني، وكان ذا خفة في العوم ورشاقة في البحر، بيد أنه كان مصنوعاً من جذوع أشجار غير مشذبة ولا منتظمة الأوضاع، وجوانبها من العيدان الرخوة، فصارت بذلك من أصعب القوارب مراساً، وكيفما فعلت بها فإنها دائماً تتجه مع اتجاه الريح يلعب بها الهواء كما يشاء، فكانت أحسن مناورة لها حيثما تكثر من اللف والدوران، حتى إن بن جن نفسه أقر بأنها كانت «غريبة في سيرها حتى يعرف الإنسان طريقتها».

وأنا على يقين أني لم أعرف طريقة تسييرها، فقد كانت تتجه بي إلى كل جهة إلا الجهة التي كنت أقصدها، وكنت في أكثر الأوقات سائراً بالعرض، وإني لمتأكد أنه لولا تيار الجزر المتراجع لما تمكنت مطلقاً من الهسبنيولا راسية أمامي على مسافة ليست بعيدة ولا يحتمل أن أخطئها.

وأول ما بدت السفينة كانت كنقطة قاتمة لسواد أشد حلوكة من الظلام نفسه ثم بدأت صواريها تتبين لي، وبعد ذلك أخذ شكلها الخارجي يتوضح، وفي اللحظة الثانية لم أدرِ (لأنه كلما ابتعدت زادت سرعة تيار الماء المتراجع بالجزر) إلا وأنا ماسك للهوصر(*).

* الهوصر: Hawser حبل كبير تشد به السفينة إلى البحر. - (المترجم).

وكان حبل الهوصر مشدوداً كوتر لأن السفينة كانت تجذبه بقوة، وكان لتلاطم الأمواج حول السفينة صوت كخرير الغدير المنحدر من جبل. وكانت السفينة معلقة على ضربة واحدة مني بسيفي البحري الكبير حتى تقلع مع تيار الماء المتراجع بالجزر.

وقد كان كل شيء حسن إلى هذه اللحظة ولكنه خطر على بالي أن الهوصر الموثوق بالشد، إذ قطع فجأة، تكون خطورته كتحدي الجواد للرفس بضربة، وإني وثقت بنسبة عشرة لواحد أنه إذا بلغ مني الحمق هذه الدرجة وقطعت حبل الهسبنيولا وفصلتها عن المرساة فسأعرض نفسي والقرقل للخطر.

وإلى هنا أصبحت في حالة ارتباك تام متحيراً فيما أفعل، ولو لم يساعدني الحظ مرة أخرى على الأخص، لكنت تركت خطتي كلية، ولكن هبوب النسيم الذي بدا من الجنوب الشرقي والجنوب كان قد تغير بعد أن أرخى الليل سدوله، فتحول هبوبه إلى الجنوب الغربي. وبينما أنا شارد التفكير قام ريح ودفع الهسبنيولا إلى عكس سير التيار وقد سررت جداً عندما شعرت أن الهوصر قد حل وثاقه في يدي حتى أن اليد التي كانت قابضة على الحبل انغمست ثانياً في الماء.

وعلى ذلك عولت، فأخذت سكيني وفتحتها بأسناني وصرت أقطع الأمراس الواحد بعد الآخر، حتى أصبحت السفينة مرتبطة بجبلين فقط، ثم ظللت ساكناً هنيهة أنتظر ارتخاء الحبل مرة ثانية بهبوب الريح حتى أقطع المرسين الباقيين.

وفي أثناء هذا الوقت كنت أسمع صريخاً عالياً من العنبر. ولكن الحق يقال إن كل حواسي وتفكيري كانت منشغلة بأفكار أخرى

مشتتة حتى إنني لم أسمع كثيراً، ولكن لما فرغت مما كان يشغلني أصبحت ألتفت بانتباه.

وقد تبينت من هؤلاء واحداً وهو مراقب الحركة «هاندز» الذي كان ملقم المدفع عند فلنت في الأيام الماضية، وكان الثاني طبعاً صاحبنا ذو الطاقية الحمراء، والاثنان رغم شدة ترنحهما من كثرة السكر مستمرين في تعاطي الخمر، بل انه بينما كنت مصغياً فتح أحدهما شباك مؤخر السفينة وهو يصيح صياح السكارى ورمى شيئاً أظنه كان زجاجة فارغة ولم يكونا فقط في حالة سكر بل كانا في حالة غضب شديد أيضاً، وكانت السباب والشتائم تخرج من أفواههما كعواصف البرد، ومن آن لآخر كان يخيل إليّ من سماع أصواتهم التي كانت كالرعد إنها تكاد تنتهي بالملاكمة وكان الصوت عندما يصل إلى هذه الدرجة يتضاءل ويذهب الشجار مدة ثم تأتي أزمة أخرى تجدده ثم تذهب بلا نتيجة.

وكنت أرى على الشاطئ النور الساطع من النار العظيمة المتأجج لهيبها في المعسكر خلال الأشجار النابتة على الساحل وكان أحدهم يغني غنوة مملة عتيقة غير مشجية يغنيها البحارة عادة بمد وتلكؤ وارتعاش في الصوت في آخر شطر من الشعر والتي تظهر كأنها لا حد لطولها إلى أن ينفد صبر المغني، وقد سمعتها مراراً أثناء رحلتي وما زلت أذكر منها هذه الكلمات:

ولا يزال واحد من ملاحيها حياً.

وقد كانوا عند نزولهم البحر خمسة وسبعينا.

وقد كانت على ما أعتقد غنوة تناسب تماماً حالة جماعة قد عانوا مصائب مثل ما عانى هؤلاء في الصباح.

ولكن مما كنت قد خبرته رأيت أن إحساس هؤلاء القراصنة قد انعدم حتى أصبح لا أثر له وصارت حالة تأثرهم كحالة البحر الذي يعيشون فيه.

ثم هبّ الريح أخيراً ومالت السفينة واقتربت في الظلام فشعرت بتراخي الهوصر مرة أخرى فانتهزت الفرصة وبضربة قوية قطعت آخر الأمراس.

ولم يكن تأثير الريح شديداً على القرقل فاندفعت في الماء إلى مقدم الهسبنيولا، وفي الوقت نفسه بدأت السفينة تدور ببطء حول مركزها معاكسة سير التيار المائي.

فأجهدت نفسي بالعمل بقوة كالشيطان لأني منتظراً أن ينقلب بي القرقل في كل لحظة، ولما وجدت أني لا شك عاجز عن السير إلى الأمام صرت أدفع بنفسي إلى الخلف حتى أصبحت بعيداً عن جاري شديد الخطر – أي السفينة – وعندما كنت أدفع آخر دفعة اعترض يدي حبل رفيع كان متدلياً من فوق سطح المركب من الجهة التي تلي المؤخرة، فقبضت عليه في الحال. ولا يمكنني أن أقول السبب الذي جعلني أفعل ذلك فقد إلهاماً فقط في البدء ولكن ما كدت أقبض بيدي عليه حتى وجدته قوياً فألجأني حب الاستطلاع الذي أخذني لاستكشف الأمر فعولت على ان أطل من شباك العنبر إلى الداخل.

فصرت أبدل يداً فوق يد على الحبل وعندما وجدت نفسي قد اقتربت صعدت رغم الخطر الكبير الذي كان يهددني، وبذلك تمكنت من رؤية السقف وجزء من داخل العنبر، وفي هذا الوقت كانت السفينة وزميلتها الصغيرة تسيران سيراً حثيثاً فوق الماء، وبالفعل صرنا في محاذاة النار التي في الفسطاط وكانت السفينة تجتاز الموج

المتلاطم الذي لا يقاس، وما كنت لأفهم سبب عدم التفات الحارس إلا بعد أن رفعت رأسي فوق عتبة الشباك، فقد كانت نظرة واحدة كافية. ذلك أنني رأيت هاندز ورفيقه ممسكين ببعضهما وهما يتصارعان مصارعة مميتة وكل واحد منهما ممسك بعنق الآخر.

ثم نزلت على المقعد ثانياً وما كان ذلك لعجلة مني بل لأن القرقل كان على وشك الانقلاب، وما تمكنت من رؤية أي شيء سوى هذين الوغدين وهما في حالة غضب شديد وقد علت وجههما حمرة قاتمة وهما يتمايلان في ضوء السراج المدخن وقد أغمضت عيني لأرى وجهيهما في الظلام ثانياً.

وأخيراً انتهت الغنوة التي لا آخر لها وأنشد جميع من تبقى من القراصنة الذين عند نار الفسطاط بصوت عال تلك الأنشودة التي طالما سمعتها:

«خمسة عشر رجلاً على صندوق الرجل الميت
يو هو هو وزجاجة روم
نشرب ونرتع ونكل الباقي للشيطان
يو هو هو وزجاجة روم».

وفي حين كنت أفكر كيف كان حال الشراب والشيطان في هذه اللحظة يؤثر تأثيراً سيئاً في الرجلين اللذين في عنبر السفينة الهسبنيولا، إذ فوجئت على غرة بميل القرقل، وفي ذات اللحظة انحرفت كثيراً عن طريقها حتى خيل إليّ أنها غيرت طريقها وعجبت لزيادة سرعتها الفجائية.

وفي الحال فتحت عيني فرأيت حولي أمواجاً صغيرة يعلوها زبد وهي ذات صوت ولمعان ظاهرين وقد كانت الهسبنيولا التي كنت

أسير في إثرها تتعثر في سيرها؛ وكنت أرى أطراف ساريتها في ظلام الليل، ولما استمر نظري طويلاً تأكدت أنها كانت تسير إلى الجنوب.

ثم نظرت ورائي من فوق كتفي فقفز قلبي بين ضلوعي، فقد كان بريق نار الفسطاط ورائي، وصار اتجاه التيار عمودياً بالنسبة لما كان قبل، وهو يسوق معه السفينة العالية والقرقل الراقصة الصغيرة بجانبها، وكان البحر دائم الموج تطفو على وجهه فقاقيع عالية، وكان مستمراً في زئيره حتى يدخل ماؤه المتموج فتحة البحر.

وعلى حين غفلة مالت السفينة التي أمامي ميلة شديدة ربما بلغت عشرين درجة في انحرافها، وفي تلك اللحظة تتابع الصراخ من على ظهرها، وقد كنت أسمع صوت وقع الأقدام على سلم العنبر، وقد عرفت أن المصيبة التي داهمت الرجلين الذين لعبت برأسيهما الخمر قد شوشت على شجارهم وأفاقتهم من سكرهم.

فرقدت في قاع ذلك القرقل التعيس وأسلمت أمري بإخلاص إلى الخالق، وفي نهاية ممر البحر تأكدت أن الأمواج المتلاطمة ستدفعنا عند إحدى الصخور الناتئة في البحر حيث تضع حداً سريعاً لمصاعبي، ولو أني كنت أتحمل الموت إلا أني كنت أحتمل أن أرى اقتراب حتفي بعيني.

تراوح مكوثي في ذلك لساعات كنت أرتطم باستمرار بالأمواج ذهاباً وإياباً يبللني الماء المتطاير، ولم يفارقني مطلقاً شعوري بانتظاري للموت عند غشيان كل موجة، ثم بعد ذلك اعتراني التعب تدريجياً، ثم حصل لي خمود أفقد إحساسي مدة رغماً عن شدة اضطرابي، ثم تغلب عليّ النوم أخيراً، ورقدت في قرقلي التي كان يتجاذبها موج البحر وأنا أحلم بالبيت والنزل القديم لأمير البحر بنبو.

الفصل الرابع والعشرون

مباحرة القرقل

حين نهضت من النوم كان اليوم قد انبلج نهاره فوجدتني في القرقل تدفعني الأمواج المتلاطمة إلى طرف جزيرة الكنز الجنوبي الغربي، وقد ارتفعت الشمس لكنها كانت لا تزال مختبئة خلف تل المنظار العظيم الذي يكوّن من الجهة الموالية إليّ جرفاً هائلاً منحدراً إلى البحر.

وكان رأس هولبولين Haulbowline وتل ميزينماست Mizzenmast إلى جهة يميني من الخلف، وقد كان التل عارياً مظلماً، وأما الرأس فكان محاطاً بصخور يبلغ ارتفاعها نحو 40 أو 50 قدماً، تحتها كتل عظيمة من الصخور المهدمة، ولم أبعد عن الجزيرة إلى البحر أكثر من ربع الميل، حتى خطر لي أول شيء أن أجذف حتى أصل أرض الجزيرة.

وما أسرع أن زالت عني هذه الفكرة حيث كانت الأمواج المتقطعة بارتطامها على تلك الصخور الهادئة من الجبل تجعل الماء يتطاير وينصب محدثاً خريراً عالياً، وما كان دوي تلاطم الأمواج بالصخور ورشه الدائم التطاير ليهدأ لحظة واحدة، فرأيت أنه لو خاطرت بالاقتراب منه فأكون مثل قذف نفسي إلى الهلاك على

الشاطئ المسنن الصخور، أو إضاعة قوتي عبثاً في تسلق الصخور الكثيرة النتوء والبروز.

ولم يكن هذا كل شيء فقد رأيت وحوشاً عظيمة الحجم ملساء كالحلزون، تتدحرج من على الصخور المستوية، أو تترك نفسها تنحدر إلى البحر بصوت عال وكان كل أربعين أو ستين منها تنبح معاً حتى تردد الصخور نباحها.

ثم علمت بعد ذلك أن هذه الوحوش إنما هي أسود البحر، وإنها غير مؤذية ولا ضارة، ولكن بشاعة منظرها ووعورة الشاطئ وسرعة انحدار الأمواج كان فيها الكفاية لإرهابي وزهدي في أن أرسو عليها، حتى انني كنت أفضل أن أموت جوعاً على أن أواجه أخطاراً كهذه.

ثم ظهر لي أن أمامي سبيلاً آخر للنجاة، فإلى شمال رأس هولبولين تجد ميل الشاطئ نحو البحر قليلاً، فإذا تراجع الماء بالجزر رأيت لساناً طويلاً من الرمل الأصفر، وإلى شمال هذا نجد رأساً آخر – رأس الغابات الذي يلوح أكثر أماناً، وأدعى إلى الدعة من غيره.

وكان البحر منتفخاً انتفاخاً هائلاً مع هدوء، وقد جعل الهواء يهب باعتدال ولطف من الجنوب، ولم يكن هناك تعاكس بين تياري الهواء والماء، وكانت الأمواج ترتفع وتهبط بغير تكسر ولا إرغاء.

ولولا ذلك لأحصيت في عداد الهالكين منذ أمد بعيد؛ وكان من المستغرب جداً ما حدث من قدرة قرقلي الصغير من الاستمرار في هذا البحر بهذه السهولة وذلك الأمان، وكثيراً ما كنت أرى الموجة العظيمة الزرقاء وهي تهدر بجواري ثم تصعد مرتفعة فوق رأسي، بينما كنت راقداً في أسفل القرقل أترقب بعين واحدة من فوق العارضة، إلا

أن القرقل كان يقفز قليلاً، ثم يرقص كأنه موضوع على ملف دائر حلزوني، ثم يسقط من الجهة الأخرى في الحوض بخفة كما يفعل الطير.

وبعد قليل زادت شجاعتي كثيراً فجعلت أجرب مهارتي في التجذيف، بيد أن أقل تغيير في وضع الثقل كان ليحدث تغييراً كبيراً في سير القرقل، فما كدت أتحرك حتى أمسك القرقل عن حركة رقصه اللطيف، وانحدر على ميل موجة شديد الانحدار حتى أصابني الدوار، ثم ضرب بمقدمة الموجة الثانية فتناثر الماء من حوله متطايراً.

فتبللت ملابسي واضطربت أعصابي، ثم رجعت في الحال إلى مركزي الأول عندما اعتدل القرقل ثانياً في سيره، وجعل يسير بي الهوينا بلطف بين الأمواج، فأصبح واضحاً لي أنه ينبغي أن أتركه يسير كما يشاء، وعلى أي حال فما دمت لا أملك قيادة لي فلا أمل بعد في الوصول إلى الشاطئ.

فانتابتني المخاوف، ولكن مع هذا كنت مالكاً لحواسي، فتحركت بكل حذر وعناية، وجعلت أنزح الماء الذي في القرقل بقبعتي البحرية، وبعد ذلك رفعت عيني فوق العارضة وصرت أفكر كيف تمكن القرقل من النجاة من بين هذه الأمواج الشبيهة بالأسطوانات الضخمة.

فكنت أرى أن كل موجة بدل أن تكون كالجبل الناعم الأملس تظهر من الشاطئ أو من سطح السفينة، فقد كانت كسلسلة من الجبال في أرض يابسة، تكثر فيها القمم والأماكن السهلة والوديان، والقرقل نفسه ينقلب من جنب إلى جنب سائر بين منخفض المسالك متجنب الشديد الانحدار منه، مبتعد عن قمم الأمواج العالية.

فقلت لنفسي حسنُ! لقد أصبح واضحاً الآن أن أستمر في رقادي حيث أنا، وأن لا أخل توازن القرقل إلا أنه من الجلي أيضاً أنه في استطاعتي أن أضع المجذاف على أحد جانبيه ثم أدفعه مرة أو اثنين من وقت لآخر في المواضع الهينة الهادئة ابتغاء تحويله إلى اتجاه الأرض، وما حلت بذهني هذه الفكرة حتى ألقيت فيه عصا التيار، وكنت راقداً فيه على ذراعي في وضع متعب جداً وكنت أدفعه من لحظة إلى أخرى بلطف حتى أجعله يتجه نحو الشاطئ.

وعلى الرغم من مشقة هذا العمل وبطئه فقد كانت نتيجته ظاهرة لما قربت من رأس الغابات، ولو أني رأيت أني من دون شك سأتجاوزه، كنت قد سرت نحو الثلاثمئة قدم إلى الشرق، وقد كنت قريباً منه بالتحقيق، فأخذت أرى قمم الأشجار الخضراء، ينبعث منها النسيم المنعش ويدفعها الهواء فتتعانق، ثم شعرت أنه ينبغي لي أن أقصد الرأس الثاني بلا تردد.

وكانت الشمس عالية فاشتد عليّ العطش، واشتركت عوامل تأثير حرارة الشمس من فوق، وضوء الآلاف من خيوط أشعتها المنعكسة من الأمواج، وماء البحر الذي كان يغمرني ثم يجف عني تاركاً طبقة من الملح على شفتي، اشتركت كل هذه في إحراق حلقومي وجلب الألم إلى رأسي. وقد سبب منظر الأشجار وهي بالقرب مني الألم لشدة الأمل؛ إلا أني وجدت التيار قد أبعدني عن هذه النقطة، وما عتمت بعد هذا ان بلغت متسع البحر أمامي، حتى رأيت منظراً غيَّر ما بي من الأفكار.

رأيت الهسبنيولا أمامي مباشرة على مسافة لا تزيد على نصف

ميل منـي وقد نشرت شراعها، فأيقنـت أنـها لا محالـة مدركـة إياي، إلا أنني كنت مكتئباً لشدة احتياجي للماء، لحد لم أتمكن معه أن أجزم ما إذا كان ينبغي لـي أن أسر أو أتكدر لذلك، وقبل أن أصل إلى نتيجة كان قد تمكن منـي الاستغراب الشديد، فلم أستطع أن أعمل شيئاً إلا السكوت، والنظر إليها من شدة العجب.

وكان شراع سارية الهسبنيولا الكبير وشراعان صغيران والقماش الأبيض الجميل جميعها تبرق فـي ضوء الشمس كالثلج أو صفائح اللجين. ولما بصرت بها، كانت جميع شراعها معبأة بالريح، وكانت متجهة نحو الشمال الغربـي، فظننت أن الرجال الذين عليها كانوا ينوون أن يدوروا حول الجزيرة ذاهبين بها إلى الميناء ثانياً. وفي الحال سارت متجهة نحو الغرب حتى إننـي ظننت أنهم رأونـي وأرادوا أن يقتفوا أثري، ثم أصبحت أخيراً هدفاً للريح حيث صدها، فوقفت مدة حيث كانت، وشراعها تلاطم الريح.

فقلت إنهم لقوم بلداء ويغلب على ظني أنهم ما زالوا نائمين من شدة السكر، وتعجبت كيف تمكن الربان سمولت بشدته من أن يجعلهم يشتغلون بخفة ومهارة.

وكانت السفينة فـي أثناء ذلك قد مالت عن مهب الريح، ثم ملأت الريح أشرعتها ثانياً وسارت مسرعة مدة دقيقة أو أكثر ثم ترنحت فـي عين الريح فوقفت، وتكرر هذا مراراً، فكانت الهسبنيولا تسير إلى الأمام والخلف، وترتفع وتنخفض وتتجه إلى الجنوب والشرق والغرب، تارة تنقض وتارة تهجم، وعقب كل مرة تنتهي حيث ابتدأت، وقد بلغ صوت قرقعة قماش أشرعتها السماء وهي ثابتة في محلها.

فاتضح لي من ذلك أن ليس فيها أحد يدير سكانها. فإذا كان الأمر كـذلك فأين الرجلان؟ فإمـا أن يكـون بلـغ بهما السكر حداً جعلهما لا يفقهان شيئاً، أو أنهما فرا من على ظهرها، فخيل إليّ أنه لو أنني استطعت الصعود إلى ظهرها، لاقتدتها سالمة إلى ربانها.

وكان التيار يدفع السفينة والقرقل بسرعة واحدة، وأما سير الثاني فكان غير منتظم حتى إنه كان يستقر طويلاً فوق الموجة كأنما هو معلق بسلاسل تربطه به ما كان ليسبق أخته إن لم يكن يتأخر عنها؛ فإذا تمكنت من الجلوس فيه والتجديف لكان من المؤكد لي أن ألحق السفينة، إلا أن المشروع كان فيه نوع من المخاطرة المشجعة، وزادت الشجاعة فكرة وجود تلك الأمواج العظيمة بحذاء عنبر الملاحين الأمامي.

فانتصبت قائماً، وفي الحال رحبت بي موجة نثرت عليّ رشاشاً من السحابة التي أحدثتها فوقي إلا أن هذا ما كان ليثني عزمي، فجعلت أجدف بكل قوتي بغاية الاحتراس، متتبعاً الهسبنيولا التي كانت تسير بغير هدى. فغرف القرقل مرة مقداراً كبيراً من الماء فاضطررت لأن أقف لإخراج الماء منه، بينما كان قلبي يرتجف كالطير وهو يرفرف، ولكن بعد هذا خبرت طريقته، فصرت قادراً على قيادة قرقلي حيث أشاء بين الأمواج، إلا أن الأمواج صارت تعترض مقدمه، وتضرب بزبدها في وجهي.

وقد أصبح قرقلي الآن أسرع تحركه من السكونة(*)، فكنت أرى

* السكونة: (Schooner)، ضرب من السفن ذات شراعين في العادة. /المترجم/.

الشراع الآخر يلمع في الشمس أثناء تلاطم الدفة في الماء، ومع ذلك ما كان يظهر أحد فوق سطحها، وما كنت أرجح فقط بل كنت أفترض أنهم قد تركوها. فإذا لم يكن أحد راقد فيها من كثرة السكر، حيث يمكنني أن أتغلب عليهم، فربما تمكنت من عمل ما شئت بها.

واستمرت السفينة مدة في أسوأ مراكزها بالنسبة إليّ – من حيث وقوفها ثابتة، وكان رأسها متجهاً نحو الجنوب، مستمرة في تعرجها في السير طول المدة، وكلما انحدرت عن الريح عاودها الهواء فملأ أشرعتها ثانية وجعلها في لحظة مستهدفة للريح، فكما قلت كان هذا أسوأ مراكزها لديّ، لأنها كانت في هذه الحالة تظهر بلا حول ولا قوة بينما كان قماش شراعها يغرق كالمدفع، وكتل الخشب تتخبط وتتدحرج فوق سطحها. واستمرت تجري أمامي بدفع الريح العظيمة بالإضافة إلى سرعة التيار.

وفي الأخير وصلت مبتغاي، فقل الهواء بضع ثوان، وكان التيار يديرها تدريجياً، فكانت الهسبنيولا تدور حول محورها فقط، وأخيراً مكنتني من مؤخرها وكان شباك العنبر لا يزال مفتوحاً والسراج ما فتئ موضوعاً فوق المنضدة، وهو يضيء في رابعة النهار، وكان شراع ساريتها الكبرى متدلياً كالراية، فلولا التيار لكان سكونها عظيماً، وكنت قد أرهقت تعباً في اللحظة الأخيرة، إلا أني ضاعفت الآن جهودي وابتدأت أسير للحاق بها.

فما كادت المسافة تصل بيني وبينها نحو الثلاثمئة قدم، حتى هبت الريح ثانية فدفعها في اتجاه الميناء فابتعدت ثانية، وجعلت ترتفع وتنخفض فوق الماء كالخطاف.

فأدركني اليأس في البدء، ولكن السرور عاودني ثانياً، حيث ارتدت راجعة حتى صارت محاذية لي – فما زالت تدور حتى قطعت نصف المسافة التي بيننا ثم ثلثها ثم ثلاثة أرباعها، فكنت أرى الأمواج تضطرب تحت الجزء الأمامي منها، فظهرت أمامي ذات ارتفاع شاهق من مركزي وأنا منخفض عنها في القرقل.

وما كان عندي وقت للتفكير – حتى للقيام بأي عمل ينجيني، فقد كنت فوق قمة موجة، بينما كانت السفينة تقترب مني وهي معلقة فوق موجة أخرى فصار العود الخشبي الذي في مقدم السفينة فوق رأسي فانتصبت قائماً على قدمي وقفزت إلى سطحها دافعاً القرقل بقدمي في الماء، وأمسكت بيدي الخشبة الممدودة في مقدم السفينة واضعاً قدمي بين دعامة الخشبة الممتدة والحبل الذي يشد الشراع، وبينما كنت قابضاً بيدي وقد نال مني الإعياء سمعت صدمة خفيفة أنبأتني أن السفينة قد أغرقت القرقل بتلك اللطمة، فإذا بي وقد قطع عليّ خط الرجعة فوق الهسبنيولا.

الفصل الخامس والعشرون

إنزالي راية القرصان(*)

ما إن استقريت على تلك الخشبة الممدودة من مقدم السفينة حتى ملأ الهواء الشراع الأمامي الصغير وكان يلوح في الهواء، ثم خبط واندفع إلى الجهة الأخرى محدثاً صوتاً شديداً أو فرقعة عظيمة كصوت المدفع. فعم الاهتزاز جميع أنحاء السفينة حتى أسفلها، وفي اللحظة الثانية كانت الأشرعة الأخرى لا تزال مملوءة بالريح بينما عاد الشراع الأمامي الصغير إلى حالته الأولى من السكون.

وقد أوشك ذلك أن يوقعني في البحر، ولم أتردد لحظة واحدة في الزحف إلى مكاني الأول فوق الخشبة الممتدة عند مقدم السفينة حيث أوقعت نفسي على سطح السفينة مندفعاً برأسي.

وكنت إلى ما يلي الشراع الأمامي الأكبر الذي كانت الريح تضرب فيه، وكان جزء من السطح الخلفي مختفياً عن بصري وما كان أحد يُرى على السطح، وكانت آثار أقدام كثيرة ظاهرة على الألواح التي لوثها البحارة المتمردون بينما كانت زجاجة فارغة مكسورة رقبتها تتحدر من ناحية إلى أخرى فكانت كشيء يجري في الميزاب الذي ينصرف منه الماء الذي فوق سطح السفينة.

---

* راية القرصان: Jally Roger، راية سوداء تمثل جمجمة بيضاء وعظمين متصالبين.

ثم أصبحت الهسبنيولا هدفاً تاماً للريح، وقرقعت الأشرعة الصغيرة خلفي، وصارت الدفة تتحرك ذات اليمين وذات اليسار، ثم اهتزت السفينة هزة شديدة.

وفي الوقت ذاته تحرك الشراع الأكبر إلى الداخل وكان القماش يضرب بالأخشاب ويحدث بذلك صوتاً قوياً، ثم تبين لي بعد ذلك الجزء الخلفي من سطح السفينة.

وكنت متأكداً من وجود الحارسين، فكان ذو القلنسوة الحمراء ملقى على ظهره وقد تصلبت أعضاؤه وامتد ذراعه حتى أصبح كالمصلوب، وقد فتح شفتيه فظهرت أسنانه، وقد استند أ. هانذر إلى حافة السفينة، واضعاً ذقنه على صدره، وكانت يداه مفتوحتين بجانبه على سطح السفينة، وقد ابيضّ لون وجهه الذي لوّحه تأثير الجو فصار لونه كالشمعة.

وظلت السفينة مدة وهي تارة تخب في سيرها وطوراً تميل ذات اليمين وذات اليسار كالجواد الجموح، وكانت أشرعتها تمتلئ بالريح ساعة فتسير في طريقها السوي برهة، ثم تعود فتغيره مرة أخرى وشراعها مستمر في تأرجحه إلى الأمام والخلف حتى صارت السارية تقرقع من شدة الضغط عليها، ومن آن لآخر كانت تغمرنا سحابة مطر من الموج المتناثر على حافة السفينة أو يعبث بمقدم السفينة تلاطم الأمواج الزاخرة. فكان الجو وأنا في هذه السفينة الثابتة أشد تأثيراً مما كنت أشعر به وأنا في القرقل المصنوع باليد ذا الجوانب الرخوة الذي صار مستقره قاع البحر.

وكان ذو الطاقية الحمراء يتدحرج إلى الأمام والخلف كلما

توثبت السفينة، ولكن منظره كان بالغاً من القبح، ولم يكن تغير شيء من وضعه وقد كشر عن نابه باستمرار، وجعل يهتز اهتزازاً شديداً. ويظهر أن هانذر كان يكمش عند كل قفزة ثم يستقر على سطح السفينة، وكانت أرجله تبتعد عن الحافة تدريجياً، فكان كل جسمه مستمراً في تحوله إلى مؤخرة السفينة، حتى إن وجهه أخذ في الابتعاد حتى اختفى عني، وأخيراً ما كنت أرى منه إلا أذنه وخصلة من شعر أحد عارضيه والهواء يلعب بها.

وفي الوقت ذاته رأيت حولهما على ألواح أرض السفينة بقعاً من دم داكن، فتأكدت أنهما تطاحنا وهما غاضبان من تأثير السكر.

وبينما كنت مستغرقاً في ساعة سكون، وكانت السفينة ثابتة إذ دار أ. هانذر بجسمه قليلاً ورجع إلى مكانه وهو يئن بصوت منخفض، وقد أثر في قلبي أنينه الدال على شدة ألمه وضعفه المتناهي، الذي جعله يفتح فاه، بيد أنني ما ذكرت الكلام الذي سمعته في برميل التفاح حتى ذهبت مني كل شفقة ورحمة.

فسرت متجهاً نحو مؤخرة السفينة حتى وصلت إلى السارية الكبرى فناديت متهكماً قائلاً: «تعال إليّ يا سيد هانذر».

فأدار مقلتيه بجهد إلا أن حالته كانت سيئة لدرجة أنه لم يكن في مقدوره أن يلفظ بكلمة تدل على الاستغراب، فكان كل ما نطقه هو لفظة براندي.

ثم خطر ببالي ألا أضيع الفرصة، فرفعت طرف قماش الشراع المدلى على سطح السفينة وذهبت إلى الخلف ثم نزلت إلى عنبر الملاحين الخلفي.

فكان منظر العنبر بالغاً حد الفوضى والاستهتار، فقد فتحت الصناديق المغلقة، وكسرت المحلات الموصدة ابتغاء البحث عن الرسم البياني، وقد انتشر الوحل على أديم أرض السفينة، حيث كان الأوغاد يجلسون للشرب والمداولة فيما بينهم بعد انقلابهم من تجوالهم، وخوضهم المستنقعات والأدغال التي تكتنف معسكرهم، كما تلوثت الحواجز المنقوشة بالطلاء الناصع البياض، من قذارة أيديهم الملطخة، وتشوهت حوافيها المذهبة وكانت عشرات من الزجاجات الفارغة تتخبط في أركان السفينة وهي تهتز. وكان كتاب من كتب الدكتور الطبية مفتوحاً فوق منضدة، وقد مزق على ما أظن لاستعماله في إيقاد غلايينهم، كل هذا والسراج لا يزال موقداً، وقد امتزج ضوؤه بدخان قاتم اللون.

ثم نزلت إلى خزانة المؤن فوجدت أن جميع البراميل قد أخذت كما أنهم شربوا عدداً كبيراً من الزجاجات ورموا بها بعيداً، ولا ريب عندي في أنه لم يفق منهم أحد من سكره ساعة واحدة مذ كان بدء تمردهم.

وبينما أنا ماض في بحثي إذ عثرت بزجاجة فيها بقية من البراندي فأخذتها لأجل هانذر، وأخذت شيئاً من الكعك لنفسي، ومقداراً من الفاكهة المحفوظة وعنقوداً كبيراً من العنب المجفف وقطعة من الجبن. ثم جمعت هذه الأشياء وصعدت بها إلى سطح السفينة ووضعتها خلف مقبض الدفة وعلى بعد من هاندز بحيث أصبح بمأمن منه، ثم ذهبت إلى مكان الماء وشربت حتى ارتويت، ثم بعد ذلك أعطيت هاندز البراندي.

ولا بـد أن يكـون شـرب نحـو جـدول مـن البرانـدي قبـل أن يرفـع الزجاجة عن فيه.

ثم قال: «اي والله ما كان يعوزني إلا شيء من هذا!».

وكنت قد جلست في أحد الأركان وأخذت في تناول الطعام.

ثم سألته ما إذا كانت أصابته ذات خطر.

فدمدم أو بالأحرى نبح كالكلب.

وقال: «لـو أن الطبيب هنـا علـى سطح السفينة لتم لـي الشفاء من الصدمة العصبية المزدوجة، ولكنـي سيئ الحظ كما ترى وهذا هو الذي أشكوه؛ وأما ذاك الوغد فلا بأس عليه فهو اليوم ميت بلا شك، ثم أضاف على ذلك وهو يشير إلى الرجل ذي القلنسوة الحمراء قائلاً: «إنه لم يكن بحاراً مطلقاً على أي حال، ومن أين أتيت أنت؟».

فقلت: «حسن إني أتيت لاستلم السفينة يا سيد هاندز فاعتبرني من الآن رئيسك لحين صدور أوامر أخرى».

فنظر إليّ شذرا ولم ينطق ببنت شفة، وقد عاود وجهَه شيء من الاحمرار مع كون مظاهر المرض الشديد كانت لا تزال بادية عليه، وكان ما يزال مستمراً في دفع نفسه وإسنادها كلما اهتزت السفينة.

ثم قلت بهذه المناسبة: «إني لا أسمح برفع العلم الأسود يا سيد هاندز، وإني مستميحك عذراً في أن أنزل ذلك العلم، فإن عدمه خير من بقائه».

ثم رفعت طرف الشراع وأسرعت إلى حبل العلم الأسود الممقوت فأنزلته وقذفت به إلى اليم.

وقلت وأنا ألوح بقبعتي في الهواء: «فليحيا الملك! وهذه آخرة الربان سلفر».

فجعل الرجل يراقبني بمكر واهتمام وهو معتمد ذقنه على صدره.

ثم قال أخيراً: «أظن أيها الربان هوكنز أن الذي تريده هو أن تذهب بالسفينة لترسو على الشاطئ الآن؛ فهلم بنا نتكلم في الموضوع».

فقلت: «نعم يا سيدي هاندز تكلم بكل ارتياح» ثم ذهبت لإتمام بقية طعامي بشهية زائدة.

فابتدأ يقول وهو يخبط بخفة وضعف على الجثة الهامدة: «هذا الرجل اسمه أوبريال وهو أيرلندي، وقد رفع وإياي الشراع قاصدين الإقلاع بها والرجوع إلى حيث ابتدأنا، حسن هو الآن ميت – إنه ميت كالكرش ولا أعرف من الذي سيبحر بالسفينة، ولست أرى أنك قادر على ذلك بغير إرشادي ومعاونتي، فعليك إذاً أن تعطيني خبزاً وشراباً وقطعة قماش أو منديلاً قديماً لأضمد به جراحي، وإني مرشدك كيف تسيرها وهذا كل ما أوجز قوله لك بصراحة».

فقلت له: «إني مخبرك بشيء واحد وهو أني لست ذاهباً إلى ميناء الربان كيد، فإني أقصد الذهاب إلى المدخل الشمالي» وأرسو بها بهدوء هناك.

فصاح قائلاً: «حقاً لقد نطقت بالصدق، وإني لست بذلك الغبي اللئيم بعد ذلك، فإنه يمكنني أن أفهم، أليس كذلك فقد بلوت حظي، وها أنا راجع بصفقة المغبون، وأنت الذي في يدك قيادتي، فهل نذهب

إلى المدخل الشمالي؟ لم، لا خيار لي مطلقاً! فإني سأعاونك لتسير إلى قفص الإعدام وبالله إني لفاعل ذلك».

وكان الأمر على ما يرام، فقد كان معقولاً واتفقنا على ذلك في الحال، وفي غضون ثلاث دقائق كنا قد أقلعنا بالسفينة وسرنا مع الريح حول شاطئ جزيرة الكنز بسهولة تامة ولنا أمل في الوصول إلى الجهة الشمالية قبل الظهر فنعبر إلى المدخل الشمالي قبل ارتفاع الماء حتى نرسو بسلام وننتظر حتى يذهب الجزر بالماء ليتيسر لنا النزول إلى البر.

ثم ربطت ذراع الدفة ونزلت إلى صندوقي وأخرجت منه منديلاً حريرياً ناعماً كان لأمي، وقد ساعدته في ربط فخذه المجروح، وبعد أن أكل قليلاً وشرب جرعتين من البراندي، دب فيه دبيب الحياة، وجلس معتدلاً عن ذي قبل وصار صوته عالياً واضحاً، وأضحى على العموم شخصاً آخر بالمرة.

وساعدتنا الريح كثيراً فكنا نسير أمامها كالطير، وشاطئ الجزيرة يمر بنا كلمح البصر، والمنظر يتغير أمامنا كل دقيقة، وسُرعان ما برحنا الأرض العالية وسرنا بجوار أرض سهلة رملية تتخللها أشجار قليلة قصيرة من الصنوبر وبعد قليل ابتعدنا أيضاً ودرنا حول التل الصخري في شمال الجزيرة.

وقد سرّتني رئاستي الجديدة كثيراً، وطاب لي الاستمتاع بالجو الرائق ذي الشمس المشرقة وبمناظر الشاطئ المختلفة، وصار في حوزتي أشياء كثيرة، وقد ارتاح ضميري الذي كان يؤنبني على تركي رفاقي بفضل ما أحرزته من نصر باهر، وأمسيت لا ينقصني شيء

أرغب فيه، لولا نظرات مراقب الحركة التي كانت تترسم اثري بابتسام أينما ذهبت على سطح السفينة، وكانت تلك الابتسامات التي لا طائل تحتها، تدل على الألم والضعف – فهي ابتسامة رجل هرم أنهكه التعب، وكان تصرفه ينمُ عن خيانة وسخرية، وكان أوضح دليل على ذلك ما كان من شدة مراقبته لي وأنا ماض في عملي.

الفصل السادس والعشرون

أ. هاندز

كانت الريح ملائمة تماماً لهدفنا، فقد اتجه هبوبها إلى ناحية الغرب، فكان سيرنا من ركن الجزيرة الشمالي الشرقي إلى زاوية المدخل الشمالي، وكذلك الأمر عندما لا يكون باستطاعتنا الرسو، ولم نكن لنجسر على الوصول بالسفينة إلى الساحل، حتى يرتفع الماء بالمد، وقد أعلمني مراقب الحركة هاندز كيف أرسو بها، فتم لي ذلك بعد أن حاولت مراراً، ثم جلسنا سوياً لتناول الطعام دفعة أخرى، وقد قال أخيراً وهو يبتسم ابتسامته المريبة:

«أيها الربان هذا أوبريان رفيقنا القديم، وأظن أنه ينبغي لك أن تقذفه من على سطح السفينة، وما اعتدت الاهتمام بمثل هذا، بيد أنني غير مسؤول عن موته، ولكني لست أرى في بقائه هنا تزيناً للمكان، ولا أحسب سيدي إلا معي في ذلك؟».

فأجبته: «إني لا أقوى على قذفه، وإني سوى ذلك كاره القيام بهذه المهمة، وأرى شخصياً أن يظل راقداً في مكانه كما هو».

ثم مضى في حديثه وهو يغمز بطرفه قائلاً: «إن الهسبنيولا لسفينة منحوسة الطالع، فقد أدى حظها العاثر إلى قتل عدد وفير من بحارتها، فقضى أكثر ملاحيها ضحية شؤمها مذ ركبنا البحر في

برستول، حتى إنني ما شهدت سفينة أسوأ منها حظاً، فهذا أوبريان جثة هامدة، أليس كذلك؟ بيد أنني لست من أهل العلم، أما أنت ففتى قد أخذت بنصيب من القراءة والكتابة والحساب، فهل لك أن تخبرني صراحة ما إذا كنت تعتقد بأن الرجل إذا مات أدركه الفناء إلى الأبد، أم أنك ترى بأنه سوف يُبعث خلقاً جديداً».

فأجبته: «يمكنك أن تقتل الجسد، أما الروح فلا سلطان لك على مسها بسوء يا سيد هاندز» وتابعت القول: «إن أوبريان هناك في العالم الآخر وربما يتوقعنا».

فأجاب: «آه، تعساً لهذا، فلا فائدة لنا اليوم إذا ما قتلت جماعات، حيث إن ذلك مجرد ضياع للوقت ما داموا سيبعثون مرة أخرى، بيد أن اختباري يدلني على أنه لا قيمة للأرواح وإني منتظر ما عساه أن يصيبني من هذه الأرواح يا جيم، وها أنت قد حدثتني بمزيد الحرية، فهل لك بأن تشفق عليّ وتنزل إلى العنبر فتحضر لي زجاجة من النبيذ، فإن تأثير البراندي شديد عليّ».

ثم ظهر لي بأن تردد مراقب الحركة لم يكن بالأمر العادي، وتبينت بأن لا صحة مطلقاً لما زعمه من إيثار النبيذ على البراندي، فلا بد أن يكون المقصود غرضاً آخر، فكان من الواضح أنه أراد أن أغادر سطح السفينة، بيد أنني ما عرفت لذلك سبباً بالمرة، ثم أن عينيَّ الرجل ما كانتا لتقويا مطلقاً على التحديق بي، فكانتا تختلجان أماماً وخلفاً وصعوداً وهبوطاً، فتارة يقلب بصره في السماء، وطوراً يحدق بجثة أوبريان الهامدة وكان لا ينفك ساعة عن الابتسام، ثم

يخرج لسانه بشكل يدل دلالة واضحة على شدة إجرامه وعظيم اضطرابه، حتى أن الطفل الصغير ما كان ليشك في عزمه على الغدر، بيد أنني كنت سريع الجواب، ثقة مني بما ينجم عن ذلك من جزيل الفائدة حتى يمكنني بغاية السهولة أن أضفي ما يتنازع قلبي من خلجات الشك في أمره.

فسألته ما إذا كان يريد مقداراً من النبيذ.

وقلت إن هذا الخير له وأبقى، ثم استفهمت منه عما إذا كان يريد أن يشرب من الأحمر أم الأبيض.

فأجاب: «كلاهما عندي سواء ما دمت توافيني بكمية كثيرة، وما الفرق؟».

فأجبته: «حسن يا سيد هاندز، فإني موافيك إياه من يسار السفينة، مع أني سأجثم كثيراً حتى أحصل عليه».

ثم هرولت بعد ذلك إلى السلم الذي يصل إلى العنبر، متعمداً أن أحدث ضوضاء عالية بقدر ما أستطيع حيث خلعت نعلي، وانسللت بخفة مسرعاً من دون أن يسمعني على سلم العنبر الأمامي فتسلقته، وأطللت برأسي من عنبر الملاحين وأنا موقن أنه لا يتوقع أن يجدني هناك، ومع ذلك فقد أخذت بأسباب الحذر، ولا ريب فقد تحققت كل شكوكي.

ماذا كان الوضع هناك: زحف الرجل من موضعه على يديه، ورغماً من كون ساقه كانت تؤلمه كثيراً عندما كان يتحرك – فإني كنت أسمعه يئن – وهو يجر نفسه بسرعة قاطعاً سطح السفينة؛ وفي

نصف دقيقة كان قد وصل إلى مكان تصريف الماء وأخرج سكيناً كبيراً، أو بالأحرى سيفاً قصيراً من وسط حبل مطوي، وكان ملوثاً بالدماء حتى مقبضه، فجعل ينظر إليه لحظة، وهو يقرض على أنيابه ثم اختبر حده براحة يده ومن ثم أخفاه تحت معطفه القصير، ورجع إلى مكانه القديم، إلى جوار حافة السفينة.

وقد كان هذا كل ما أرت معرفته، فقد أضحى هاندز قادراً على التحرك من مكان إلى آخر، ولقد أصبح الآن مسلحاً، أما وقد وقفت حجرة في سبيله فلا بد أنه عزم الآن على التخلص مني، وعوّل على افتراسي. ولست أدري ماذا عساه كان يقصد بعد القضاء عليّ، ولعله كان يريد محاولة الزحف إلى طرف الجزيرة الآخر، من المدخل الشمالي إلى المعسكر بين المستنقعات، أو لعله قصد أن يطلق المدفع حتى يسمعه رفاقه ويأتوا لمعاونته، بيد أنني لم أوت علم الغيب.

ولكني شعرت بأنه يمكنني الاعتماد عليه في شيء واحد تشترك فيه مصالحنا جميعاً، وذلك بشأن إرساء السفينة، فكل منا كان يروم أن تصل سالمة في مكان أمين، حتى إذا ما أتى الوقت أمكن إخراجها منه بسهولة تامة وبأقل المخاطر، وأيقنت بأني لن أستهدف للخطر قبل تمام هذا.

وما كان التفكير في ذلك، ليكف يدي عن العمل وجسمي عن الحركة، فقد ذهبت خلسة إلى العنبر ولبست حذائي، ثم أخذت أول زجاجة نبيذ وقعت في يدي، وظهرتُ أمامه فوق سطح السفينة وهي في يدي متخذها سبباً في ذلك.

وما أدركت هاندز حتى رأيته طريحاً كما تركته، منكمشاً في موضعه، مسبلاً عينيه، وكأن بصره، لا يقوى على الضوء، فرفع نظره إليّ عندما أتيت، ثم كسر رقبة الزجاجة بمهارة خبير، وشرب جرعة كبيرة، ثم ردد النخب المعتاد وهو يشرب «حظ الجميع»، ثم سكت برهة وأخرج عوداً من التبغ ورجاني أن أقطع له منه قطعة ليمضغها.

وقال: «اقطع لي قطعة من هذا فليس معي سكين، وليس في قوة كما كنت، آه يا جيم، يا جيم إني سئمت المكث هنا فاقطع لي قطعة، فإني من المشتاقين إلى الرجوع إلى داري البعيدة بلا شك».

فقلت له: «حسن، إني سأقطع لك جزءاً من التبغ، ولو أنني مكانك، وشعرت بضعف في جسمي لأكثرت من الصلاة والدعاء شأن المسيحي التقي».

فقال: «لماذا؟ أخبرني الآن لماذا».

فأجبته مستنكراً: «تقول لماذا؛ وقد كنت تسألني الآن بشأن الأموات، فأنت رجل خائن عشت في الضلال وفعل المحرمات والكذب وسفك الدماء، فهذا رجل قتلته وهو ملقى تحت قدميك حتى هذه اللحظة، ثم تسألني لماذا؟ الرحمة عليك يا هاندز».

وكان كلامي شيء من الحمية لأني كنت أفكر في السيف الملوث بالدم الذي أخفاه في جيبه، وأتأمل نواياه السيئة حيث أراد أن يقضي عليّ، أما هو فقد شرب جرعة كبيرة من النبيذ، وصار يتكلم بتؤدة غير اعتيادية قائلاً:

«جُبتُ البحار منذ ثلاثين عاماً رأيت خلالها الطيب والخبيث

والخير والشر، وشهدت الجو المعتدل والجو المضطرب، ونفاذ المؤن، وأشرفت على الطعان والنزال وغير ذلك، وبناء عليه أخبرك أني ما رأيت قط خيراً ينتج خيراً، ينتج خيراً، فالفائز البادئ بالشر والأذى، وأن لا خوف من الأموات، هذه مثلي وهي لا تزال كذلك»، ثم قال وقد غير صوته فجأة: «والآن اصغ إليّ، كفانا هذا الهذيان، إن المد قد أصلح لنا الحال، فافعل ما آمرك به أيها الربان هوكنز ونحن ندخل إلى الشاطئ بسلام ونتنهي».

فما انتهى من كلامه حتى كان قد بقي لنا مسافة لا تتجاوز الميلين، إلا أن الملاحة صارت في غاية الدقة، فإن الدخول إلى هذه الميناء الشمالية بالإضافة لكونه قليل العمق وضيق، كان متعرجاً إلى الشرق والغرب، حتى أنه يتوجب على السفينة أن تُسيِّر باعتناء ومهارة حتى تدخل إليها، وأعتقد أني كنت مساعداً ماهراً وسريعاً في الحركة، وإني متأكد أن هاندز كان مرشد قناة حاذق، فإننا صرنا نسير من هنا إلى هنا ونحن نلامس السواحل، إلا أننا مع هذا كنا في غاية الاحتراس والدقة حتى كان مرآنا يسر الناظرين.

فما كدنا نتعدى قمم التلال التي على القناة، حتى انطبقت الأرض وراءنا، وقد كانت شواطئ المدخل الشمالي كثيرة الأشجار مثل شواطئ الميناء الجنوبية، إلا أن المسافة بين جانبي المدخل كانت أطول وأضيق، فهي أشبه بمصب النهر المتسع، وقد رأينا أمامنا في الطرف الجنوبي بقايا سفينة غارقة وهي بحالة يرثى لها، ويظهر أنها كانت سفينة عظيمة ذات ثلاثة صواري وقد تعرضت لتقلبات الجو

مدة طويلة حتى نبتت على جوانبها الحشائش البحرية وغطت سطحها النباتات والأعشاب التي تنمو على الشواطئ، ثم هي أينعت فيها وأزهرت، فما كان أشد تأثير هذا المنظر علينا، إلا أنه كان دليلاً على سكون المرفأ التام.

قال هاندز: «انظر هناك الآن، فإن هذه نقطة جميلة لإرساء السفينة فيها، فهي بقعة رملية مسطحة وليس فيها أثر مشي القطة، وحولها الأشجار من كل جانب، والزهر ثابت على سطح تلك السفينة القديمة فكأنها حديقة غناء».

ثم سألته: «وكيف نخرجها بعد أن ترسو في هذا المكان؟».

فأجاب: «وهل في ذلك من صعوبة؟ فما عليك إذا أردت إلا أن تربط حبلاً إلى شجرة صنوبر على الشاطئ الثاني عندما يهبط الماء، وتربط طرفه الآخر على السحاب، ثم تنتظر حتى يأتي المد، فعندما يرتفع الماء تشد الحبل بغاية السهولة، والآن قف هنا يا صبي، فقد اقتربنا من البقعة الآن، فقلل من سرعة السفينة، فهي مسرعة إلى اليمين» وكان يقول: «هكذا، اعتدل، إلى اليمين، إلى اليسار قليلاً، اعتدل، اعتدل».

فصار يصدر الأوامر هكذا، وجعلت أطيعه طاعة عمياء، حتى صاح أخيراً قائلاً: «إلى اليسار يا صبي»، فأمسكت بيد الدرفة وقد دارت السفينة مسرعة، ودخلت في الشاطئ القليل الماء المخشب.

وقد أشغلني سروري بهذه المناورة حتى تركت مراقبتي الشديدة لمراقب الحركة، وحتى في تلك اللحظة كنت مهتماً ومنتظراً رسو

السفينة فنسيت الخطر المحدق بي ووقفت أنظر من فوق اللوحة التي تلي يد الدرفة، وأراقب الأمواج التي تتطاير من مقدم السفينة؛ وكنت على وشك الوقوع في يده بلا عناء، لولا حدوث اضطراب جعلني ألفت رأسي: فربما كان هذا بسبب سماعي أزيزاً أو أني رأيت بطرف عيني خيالاً، وربما كان مجرد إلهام كما يحصل للقطط؛ ولكن على أي حال، رأيت عندما ألتفت خلفي أن هاندز قد قطع نصف الطريق وهو آت إليّ والسكين في يده اليمنى.

ولا بد أن نكون قد صرخنا نحن الاثنين عندما تقابلت أعيننا، إلا أن صوتي كان صوتاً خائفاً، وكان صوته خواراً كخوار الثور المهاجم، وفي اللحظة ذاتها قذف بنفسه إلى الأمام وقفزت إلى جنب متجهاً نحو المؤخرة، وبينما أنا أفعل ذلك تركت يد الدرفة فاتجهت بسرعة مع الريح، وأظن أن هذا كان سبباً في نجاة حياتي، فقد ضربت الدرفة هاندز في صدره وطرحته لحظة فاقد الصواب.

وقبل أن يفيق من أثر الصدمة، كنت قد خرجت سالماً من الركن الذي دُفعت إليه، فصار جميع السطح خالياً أمامي، فوقفت إزاء السارية الكبرى تماماً وأخرجت مسدسي من جيبي ثم أحكمت التصويب نحوه، مع أنه قد اعتدل وصار يتبعني، ثم أنزلت الزناد، فوقع إلا أنني لم أر ضوءاً للطلق، ولا سمعت له صوتاً، فقد أفسد ماء البحر حشوه، فلعنت نفسي لإهمالي، ولو أنني أعدت تعبئة سلاحي الوحيد وأتممت إعداده لما وقعت في هذا المحظور ولا صرت كشاة تجي أمام جزارها.

مـع كونـه كـان جريحـاً إلا أننـي اسـتغربت سـرعة حركتـه، فكـان شعره الأشعث يتدلى على وجهه، وكان وجهه أحمر كالعلم لفرط عجلته وحـدة غيظـه، ومـا كـان الوقـت ليسـاعدني لأجـرب مسدسـي الثـانـي، أو بالأحرى لم أكن راغباً في ذلك، حيث اعتقدت بأن ذلك لا يجدي نفعاً. وقد كـان واضـحاً لـي أن هنـاك شـيء واحـد، وهـو أنـه لا ينبغـي لـي أن أتقهقر أمامه لئلا يصدمني بلكمة في مقدمة السفينة كما كاد يفعل عند المؤخرة منذ لحظة، فإذا تمكن منـي وأنـا كذلك فهو لا بد مـدخل ثمانيـة أو تسـعة إنشـات مـن السكين الملطـخ بالـدماء فـي جسـمي، فيفرّق بينـي وبين الحياة، فوضعت راحتي على السارية الكبرى، التـي كانـت عظيمـة الحجم مائلة إلى الضخامة وانتظرت، وكانت أعصابي فـي غايـة التـوتر من شدة الاضطراب.

فلما رآنـي قاصداً الصعود وقف أيضـاً، ثـم مرت لحظـة أو اثنتـان وهو يتظاهر بالحركة وأنا أهم فوق السلم في كل دفعة، وقد كان ذلك كاللعـب الـذي كنـت ألعبـه كثيـراً فـي منزلنـا علـى صـخور ملجـأ التـل الأسـود Black Hill Cave بيد أنـه لا ريـب عنـدي فـي أن قلبـي لـم يسبق لـه أن خفق بهذه الشدة، ومع ذلك فكل ما يمكننـي قولـه إنهـا لعبـة خطرة، وقد ظننت أنـه يمكننـي الثبـات فيهـا أمـام بحـار طـاعن فـي السـن مجروح الفخذ كهذا. الأمر الذي زادنـي شجاعة بلا ريب، حتـى صـرت أفكر فـي الخاتمـة التـي تنتهـي بهـا هـذه المنـاورة، بيـد أننـي كنـت أرى أنـه في استطاعتي تطويل المناورة إلا أنه ما كان لـي أمل فـي النجاة أخيراً.

هذا، وبينمـا كنـا علـى هـذه الحـال إذ لطمـت الهسبنيولا الأرض،

وتمايلت وهي فوق الرمل، ثم استدارت ومالت إلى ناحية بلغت درجة الميل فيها 45 درجة، ودخلها نحو بنشيون Puncheon من الماء، وصارت المياه في داخلها كأنها بركة بين السطح والحافة.

فانقلبنا كلانا وتدحرجنا نحو مجرى الماء، وكانت جثة ذي الطاقية الحمراء تنحدر وراءنا وقد امتد ذراعاه كما كانا، وكنا متقاربين لدرجة أن رأسي أتت تحت قدمي مراقب الحركة الذي لكزها بقدمه لكزة جعلت أسناني تقرقع. ورغماً من اللطمة وغيرها فإني كنت أول من انتصب قائماً على قدميه، وأما هاندز فقد اختبل في الجثة الهامدة. وإن ميل السفينة الفجائي قد جعل سطحها غير صالح للعدو، فكان ينبغي لي أن أبحث عن مكان أنجو منه، وأن يكون ذلك في الحال لأن خصمي يكاد يلامسني. وفي أسرع من رجع الصدى كنت قد نفذت ما خطر لي وتسلقت فوق الأمراس التي تدعم السارية الأمامية، وجعلت أبدل يداً فوق أخرى بدون أن أحرّك شفة أو أردد نفساً حتى جلست عند التقاطع الضيق.

ولقد أنجتني السرعة في اتخاذ الحيطة للنجاة. حيث ضرب أ. هاندز السكين تحت قدمي بنحو نصف قدم، وأنا مجد في تسلقي ثم وقف باهتا، وفمه مفتوح ووجهه مرفوع إليّ فكان تمثالاً متقناً للاستغراب وخيبة الأمل.

فلما اتسع أمامي الوقت، انتهزت الفرصة لأعيد تعبئة مسدسي وأعد الآخر للعمل حتى استوثق الأمان، فابتدأت في إخراج حشو الآخر وإعداده من جديد.

وقد أزعجت هاندز عمليتي هذه، وجعلته يضطرب دفعة واحدة، فابتدأ يرى أنه أبدل من حظه نحساً، وبعد أن تردد تردداً ظاهراً أمسك أيضاً بأمراس السارية ببطء متألماً وصار يتسلقها بجهد واضعاً المدية في فيه وكان ذلك بغاية البطء وشدة التؤدة وهو يجهد نفسه في رفع ساقه المجروحة، فما كاد يصل إلى ثلث الطريق حتى كنت قد أتممت ترتيبي، ثم خاطبته وأنا أمسك في كل يد مسدساً وقلت: «إذا صعدت درجة أخرى يا سيد هاندز فإني جاعل مخك يطير في الهواء!» وأردفت القول: «إن الأموات لا تعض».

فوقف في الحال، وقد رأيت من حركات وجهه أنه كان يفكر، وكانت عمليته في غاية البطء والإجهاد، حتى إني صرت أسخر منه وأنا متمعن بملاذي الجديد، ثم تكلم أخيراً بعد جهد، وكان وجهه ما زال ينم عن شدة الاضطراب، فلأجل الكلام تحتم عليه إخراج الخنجر من فيه ليتمكن من الحديث، إلا أنه لم يتحرك منه شيء عدا ذلك.

فقال: «يا جيم أعتقد أن كلانا غدر زميله، فهلم بنا نتعاقد على عهد، أني كنت على وشك التغلب عليك لولا رشاقتك، ولكنني عاثر الجد لا حظّ لي وإني مخبرك أني سأضرب ضربة بحار ماهر وهي لا بد مودية بصبي مثلك يا جيم».

فكنت أسمع كلامه وأنا أبتسم غير مكترث كأني أشرب ماء، وأنا في غروري كالديك الذي صعد فوق الجدار، وإذا بيده اليمنى قد ارتفعت فوق كتفه، ثم سمعت صوتاً كالسهم خرج يغني في الهواء، فشعرت على حين غرة بضربة ثم ألم حاد، وإذا بي قد اشتبك كتفي

بالصـارية، وفـي أثنـاء شـعوري بـالألم الشـديد والمفاجـأة الغريبـة التـي حصلت فـي تلك اللحظـة – ولا يمكننـي أن أقول إن هذا كـان بـوعيي لأنـي متأكد أن الإصـابة كانت من دون عمد – فإن مسدسـيّ الاثنين أفلتا ووقعا من يدي ولكنهما لم يقعا وحدهما، فقد فكت قبضـة الرجل من الحبل وهو يصيح صياح مختنق، ثم سقط ورأسه إلـى أسفل فـي الماء.

الفصل السابع والعشرون

قطع ذات الثمانية

أصبحت الصواري مرتفعة فوق الماء بسبب ميل السفينة، وكنت وأنا في مقعدي فوق التقاطع الضيق لا أطل على شيء سوى الخليج من تحتي، وأما هاندز الذي لم يكن مرتفعاً حيث أنا، كان أقرب مني بالضرورة إلى السفينة، وقد سقط بيني وبين الحافة. ثم طفا مرة على سطح الماء وقد علا شدقيه زبد من الماء والدم، ثم غطس إلى الأبد. فلما هدأت الأمواج كنت أراه مستقراً مكوماً في قاع البحر الصافي اللامع المنعكس في ظل جوانب السفينة، وقد أحاطت بجسمه سمكة أو اثنتان وكان في بعض الأوقات يظهر كأنه يتحفز للقيام نظراً لاهتزاز الماء، ولكنه كان ميتاً بلا شك، فقد أصيب بالرصاص، ثم غرق فصار طعمة للأسماك في نفس المكان الذي أراد أن يقتلني فيه.

فما كدت أتحقق من ذلك حتى بدأت أشعر بدوار ودوخان وخوف، وكان الدم الساخن يجري في ظهري وصدري، وقد شعرت بوخز السكين في المكان الذي ألصقتني به إلى الصارية كأنها قطعة من الحديد المحمي بالنار في سخونته، وليس هذا كل ما أزعجني، فقد كان في وسعي تحمل هذه الآلام بلا تذمر، وإنما كان خوفي الأكثر من وقوعي من فوق التقاطع الضيق في الماء الأخضر الراكد بجانب مراقب الحركة.

فتمسكت بكلتا يدي حتى آلمتني أظافري، وكنت أطبق عيني كأني أغطي الأخطار بذلك. ثم رجعت إلى صوابي، وقد هدأ روعي وخف نبضي، فصرت مالكاً لحواسي.

فخطر لي في البدء أن أخرج الخنجر، ولكني حسبت أن يكون قد نفذ إلى غور بعيد في جسمي، أو أن أعصابي لم تكن تساعدني على ذلك، ثم خيل إليّ أني أخرجته بشدة قوية إلا أنها كانت عادية بحيث تمكنني من إخراجه، وبالفعل كانت السكين قد أصابتني في أبعد مكان يمكن إصابتي فيه؛ فقد كانت عالقة بجزء بسيط من جلدي فلما أخرجتها قُطع ذلك الجزء، فجرى الدم متدفقاً، ولكني تمالكت نفسي ثانية وبقيت معلقاً من معطفي وقميصي فقط.

وقد تخلصت من هذين أيضاً بشدة فجائية، ثم نزلت إلى السطح بوساطة أمراس الجانب الأيمن من السفينة. فلم يكن ثمة ما يحملني على المخاطرة وأنا في هذا الاضطراب من النزول على الأمراس المعلقة في الهواء التي تلي الجهة الأخرى، التي سقط منها أ. هاندز منذ قليل.

فنزلت في العنبر وعملت كل ما في وسعي لتضميد جرحي، فكان يؤلمني جداً ويتدفق دماً كثيراً، إلا أنه لم يكن عميقاً ولا بليغاً وما كان ليسبب لي أذى عندما استعمل ذراعي، ثم نظرت حولي وبما أن السفينة أصبحت ملكي بكل معنى الكلمة، فقد صرت أفكر في تخليصها من آخر ركابها وهو – أوبريان الميت.

فقد كان مُلقى بجوار حافة السفينة كما ذكرت، حيث كان راقداً مثل اللعبة البشعة غير المستظرفة، فكان جسمه في الحجم كجسم

الأحياء بالفعل ولكن ما أبعد الفرق بين لونه ولون الأحياء وحسن منظرهم؛ فكان وهو في هذا المركز يسهل عليّ فعل ما أريد معه، وبما أن المخاطر المحزنة التي مرت بي قد أبعدت عني كل وجل من الأموات، فقد جذبته من صدريته كما يُحملُ كيس النخالة وألقيته بدفعة قوية في اليم من على سطح السفينة، فسمع له صوت عندما اصطدم في الماء، وأما طاقيته الحمراء فقد اقتلعت وبقيت طافية فوق سطح الماء، وبعد أن هدأ اضطراب البحر رأيته هو وهاندز راقدين بجوار بعضها وكلاهما يتموج مع حركة الماء، وكان أوبريان أصلع الرأس مع كونه شاباً، فكان راقداً ورأسه الصلعاء متقاطعة مع ركبتي قاتله بينما كانت الأسماك سريعة الحركة تجري من فوقهما.

فصرت وحدي فوق السفينة، وكان المد قد بدأ في الرجوع، والشمس على وشك الغروب حتى إن الظلال المنبعثة من أشجار الصنوبر كانت ظاهرة على سطح الماء في المرفأ، وكانت آثارها تُرى متقطعة على سطح السفينة، وقد نشطت حركة نسيم الليل، ومع أن التلال وقممها كانت تحجزه من الشرق إلا أن مجموع الأمراس التي في القلوع والصواري كانت تهتز بأزيز ضئيل وكذلك كانت الشراع تلوح في الهواء.

ثم بعد ذلك بدأت أرى أن السفينة ما برحت في خطر، فأنزلت الشرع الصغيرة على السطح ولكن الشراع الأكبر لم يكن بالأمر الهين، وكان من الطبيعي تدلي الشراع الكبير إلى خارج السفينة جهة البحر عندما مالت السفينة، وقد غطس طرفه نحو قدم أو قدمين في الماء. وكان هذا في نظري أكبر خطراً، حيث كان الضغط شديداً حتى لم

أتجاسر على إصلاحه، وأخيراً قطعت بسكين أمراس الشراع، فوقع الجزء الأعلى من الشراع في الحال، وصار جسم عظيم منتفخ من القماش يسبح في الماء، ورغم معاناتي في شدها فما في استطاعتي إنقاذها من ميلتها، وكان هذا كل ما في استطاعتي فعله، وقد فوّضت فيما عدا هذا أمر السفينة للحظ كما أسلمت له أمري.

وفي هذه اللحظة عم الظلام كل المرفأ – وكانت آخر الأشعة على ما أذكر تضيء من بين الألواح الخشبية وتتلألأ كالجواهر على سطح السفينة الغارقة. وقد ابتدأت أشعر بالبرد، وكان الماء يتراجع بسرعة بتأثير الجزر إلى جهة البحر وكانت السفينة مائلة على أحد جانبيها.

فزحفتُ إلى أمام وتطلعت، فظهر لي الماء غير ضحل؛ ثم أمسكت الحبل المقطوع كآخر ضمان لي وتدليت من فوق سطح السفينة بهدوء، فلم يبلغ الماء أكثر من خصري وكان الرمل ثابتاً تعلوه آثار التموج، فخضت حتى وصلت إلى الشاطئ جذلاً وقد تركت الهسبنيولا مائلة على جنب، وشراعها الأكبر منشور على سطح الماء في الخليج.

وكانت الشمس ساعتئذ قد اختفت خلف الأفق تقريباً، وكان للنسيم اعتلال وهو يتخلل أشجار الصنوبر المتمايلة في الغسق.

وقد تركت البحر بعد طول هذا العناء، بيد أنني لم أنقلب صفر اليدين وإنما رجعت بالسفينة سالمة بعد أن طهرت سطحها من القراصنة وأعددتها ليركب جماعتنا لتقلع بهم إلى البحر، فلم أكن لأستطيب شيئاً مثل عودتي ثانياً إلى الدريئة لأفاخر بما أصبته من

الظفر، صحيح أنهم سيوجهون إليّ سهام اللوم؛ بيد أن استرداد الهسبنيولا يكون أفضل رد لإسكاتهم جميعاً، وكان يطربني أن يعرف الكابتن سمولت أني ما ضيعت وقتي سدى.

وقد كان السرور يشملني إذا فكرت في ذلك، فاتجهت نحو الحصن حيث كان رفاقي، وكنت أذكر جيداً أن النهر الذي يلي الشرق، ويصب في مرفأ الربان كيد يجري من التل ذي القمتين الذي على يساري، فاتجهت إلى تلك الجهة حتى أتمكن من عبور المجرى قبل أن يتسع، وكانت الغابة مفتوحة امامي، وبعد أن سرت في أسفل التل درت حول زاويته النهائية، وخضت بعد ذلك بمسافة قصيرة في ماء حتى نصف ساقي، وأنا أجتاز الطريق المغمور بالماء.

وقد وصلت الآن إلى قرب المكان الذي قابلت فيه بن جن الفار؛ ثم جعلت أسير حذراً محترساً ملتفاً إلى كل جهة، وكان الليل ينشر ذوائبه بسرعة، وما تمكنت من العبور بين الرأسين حتى بَصُرت بشعاع نار تتقد منعكسة إلى السماء القاتمة الظلام، حيث حكمت بأن رجل يطهي عشاءه ومع ذلك فقد استغربت في نفسي كيف ساغ له أن يظهر نفسه بهذه الكيفية من غير احتراس، فما دام قد تسنى لي أن أراه على هذا البعد فلا ريب في أن سلفر لا بد أن يراه من معسكره على الشاطئ بين المستنقعات.

ثم جعل الليل يمد على الأرض رواقاً يقصر فيه قاب العين، فكان كل ما أستطيعه هو أن أسير متلمساً سبيلي على قدر الاستطاعة إلى المكان الذي أقصده، وكانت التلال من خلفي والمنظار على يميني وكأنما ضؤلت في نظري، وكانت النجوم قليلة

العدد، غير متألقة البريق، فكنت أسير وسط أعشاب، وأنحدر في وهاد رملية أثناء تجوالي في تلك المنطقة.

وقد رأيت ضوءاً بدد حجب الظلام من حولي، فرفعت بصري، وشهدت القمر قد أجرى ليقته الفضية البيضاء على قمة المنظار، وما رفعت بصري حتى رأيت جرمه الفضي الكبير يتحرك سابحاً في القبة الزرقاء بين الأشجار فوق البقعة المنخفضة، فأيقنت أنه البدر.

وقد ساعدني هذا الضوء في الإسراع بقطع الباقي من رحلتي، فتارة كنت أتئد في السير، وطوراً أعدو مسرعاً، حتى قربت من الدريئة، وقد عيل صبري، ولكنني ما انتهيت إلى أول الأجمة التي أمامه حتى دلتني فطنتي على وجوب التؤدة والاحتراس أكثر من قبل مخافة أن تنتهي بي خاتمة المطاف ويقتلني أحد رفاقي برصاصة على غير علم منه.

وكان البدر لا يزال مستمراً في ارتفاعه إلى كبد السماء، حتى مسى ضوؤه الساطع يشمل الأجزاء المنبسطة من الغابة، وقد رأيت أمامي تماماً، ضوءاً أحمر متلألئ بين الأشجار، وكان لونه أحمر حاراً، وهو يقتم من لحظة إلى أخرى كأنه نار موقدة للفرح، وقد بدأ سعيرها يخبو من الجمر.

وما استطعت أن أدرك كنه ما في الأمر وقد كانت حياتي متوقفة عليه. ولما انتهيت إلى الموضع أخيراً، كان القمر قد أضاء طرفه الغربي، أما بقية جهاته، والمنزل المحصن، فكانت لا تزال محتجبة تحت أستار الظلام الذي تتخلله خيوط من ضوء فضي، وقد أوقدت نار عظيمة إلى الجانب الآخر من الحصن، وقد تحول وقودها

جمراً كان يخالف في منظره ضوء القمر الباهت الساكن، وما كنت لتسمع صوتاً ولا حركة سوى عبث النسيم.

فوقفت برهة وقد تملكتني الدهشة المشوبة بالخوف، فما اعتدنا أن نوقد مثل هذه النيران الكبيرة، حرصاً منا على اتباع أوامر الربان، وكان يحب الاقتصاد في الوقود، وأشفقت أن يكون دهم صحبي أمر أثناء غيابي، فسرت وأنا على أشد ما أكون خوفاً وحذراً.

ثم اقتحمت السياج من مكان مناسب، حيث كان الظلام شديداً.

وحتى يكون تحقيقي صحيحاً، حبوت على يدي وركبتي من دون أن أجعل أحداً يشعر بي، ذاهباً إلى زاوية البيت، وكنت كلما اقتربت منه يزول الاضطراب عن قلبي، ولم يكن الصوت الذي سمعته ساراً فقد اشتكيت منه مراراً، إلا أني في هذا الوقت كان يحبب إليّ سماع أصوات رفاقي وهم يغطون بصوت عال وهم آمنون في نومهم، وكان صوت الحارس وهو يقول: «كل شيء حسن» أحب إليّ من أي شيء.

وفي ذات الوقت، كنت متأكداً من أمر واحد، وهو أنهم ما كانوا يحسنون الحراسة مطلقاً، فإذا كان سلفر وصبيته هم الذين كانوا يزحفون إليهم، لما بقي واحد منهم حياً حتى الصباح، فخطر في ذهني أن هذا كان نتيجة الجرح الذي ألم بالطبيب، وقد لمت نفسي كثيراً لتركي إياهم وعددهم القليل جداً لا يمكنهم من الحراسة.

وفي هذا الوقت كنت قد وصلت إلى الباب ووقفت، فكان كل المكان مظلماً في الداخل، حتى أنه ما كان يمكنني تمييز أي شيء بالعين. وأما الأصوات فكان لا يسمع منها إلا غطيط النائمين المستمر، وأحياناً حركات تقلبهم وتحريك أفواههم بصوت خافت.

دخلت بتأن وأنا رافع يدي إلى الأمام (فكرت في نفسي وأنا أبتسم) إنه ينبغي لي أن أرقد في موضعي وأتمتع بمفاجآتي إياهم عندما يجدونني في الصباح.

فاختبطت قدمي بجسم لين – فكانت ساق رجل نائم، فانقلب وزمجر إلا أنه لم يستيقظ من نومه.

وعلى حين غفلة سمعت صراخاً في وسط الظلام «قطع ذات الثمانية! قطع ذات الثمانية! قطع ذات ثمانية! قطع ذات ثمانية! قطع ذات ثمانية!» واستمر تكرار هذه الألفاظ بلا انقطاع ولا تغيير كصوت الطاحون الصغير المستمر.

فكان ذلك ببغاء سلفر الأخضر اللون المسمى كابتن فلنت! كان الصوت الذي سمعته صوت هذا الببغاء وهو ينقر قطعة من غلاف الشجر، فقد كان حارساً أكثر يقظة من الآدميين فقد أعلن حضوري بذلك التكرار الممل.

ولم يكن لديّ متسع من الوقت لتدبير حالي فقد استيقظ النائمون لسماع صوت الببغاء الحاد فصاح سلفر ساخطاً: «من الذي يسير؟».

فأدبرت وهممت بالهرب فصدمت شخصاً بقوة ثم رجعت إلى الخلف فإذا أنا قد وقعت بين أحضان آخر قد ضم عليّ ذراعيه وأمسكني بقوة.

فقال سلفر: «أحضر لي مشعلة يا ديك» قال هذا عندما استوثق من وجودي في حوزتهم.

وقد رجع أحدهم وكان قد خرج من ردهة البيت وفي يده جمرة مشتعلة.

القسم السادس

الكابتن سلفر

الفصل الثامن والعشرون

في معسكر العدو

أضاءت نار الشعلة داخل البيت المحصن فتحققت أسوأ مخاوفي، فقد وقع البيت وما فيه من المؤن في حوزة لصوص البحر فكان فيه برميل الكونياك ولحم الخنزير والخبز، وقد ضاعف أتراحي ما رأيته من عدم وجود أي أسير، فحكمت أن أصحابي هلكوا جميعاً فاشتد خفقان قلبي شجى «وأسى» لأني لم أكن موجوداً لاستشهد معهم.

فكان كل من بقي من القراصنة ستة لم يبق أحد عداهم حياً، وأجاب خمسة منهم النداء الفجائي، وقد علت وجوههم الحمرة والانتفاخ، من تأثير نومهم المبكر من شدة السكر، وأما سادسهم فقد عجز عن القيام فاستند إلى مرفقه فقط وكان مصفر الوجه وقد شد حول رأسه رباطاً ملوثاً بالدماء يدل على أن به جرح حديث لم يضمد إلا أخيراً؛ ولا زلت أذكر الرجل الذي أصيب برصاصة وفر هارباً داخل الغابات يوم الهجوم العظيم، ويغلب على ظني أنه هذا.

وقد جلس الببغاء على كتف جون وجعل ينقر ريشه، وقد علت سلفر صفرة وارتسمت على محياه سيماء التعب أكثر من المعتاد، وكان لا يزال مرتدياً بذلته التي كان يلبسها عندما أدى رسالته إلا أنها

صارت أقذر مما كانت، فقد تلوثت بالطين ومزقتها العيدان الحادة المدببة.

وأخيراً قال: «عجب هذا هو جيم هوكنز والله قد انسل بيننا، آه؟ حسن لقد أقبل إلينا آمناً».

وبعد ذلك جلس فوق برميل الكونياك وأخذ يملأ غليونه بالتبغ.

وقال: «أعطني الشعلة يا ديك»، ولما فرغ من ايقاده قال: «يكفيني هذا يا ولدي ضع الشعلة بين كومة الحطب، وأحضروا أيها المحترمون أيضاً ولا داعي لوقوفكم لأجل السيد هوكنز فإنه مسامحكم بالتأكيد»، ثم أردف وهو يضغط التبغ في غليونه: «لقد أتيت إلينا يا جيم وصرت بيننا، إن ذلك ليدهش جون الهرم المسكين، ويسره أي مسرة، لقد كنت يا بني بالغاً حتى الغاية من الرشاقة عندما وقع بصري عليك لأول مرة، بيد أنني لا أراك كذلك الآن، فإن اليوم بعيد».

فلم أجبه على شيء من هذا كما هو المفروض فقد أوقفوني مستنداً بظهري إلى الحائط، فتماسكت في موضعي، وجعلت أحدق في وجه سلفر متظاهراً بالشجاعة، والحقيقة أن مقراض اليأس كان قد أكل حبات فؤادي.

ثم أخذ سلفر نفساً أو نفسين من غليونه، وهو في شدة الارتياح وبعد ذلك استأنف حديثه قائلاً:

«التفت يا جيم فإنك الآن بين يدي وإني كاشف لك عن شيء من ضميري، فلا أكتمك يا بني إني كنت أشعر نحوك بشيء من الميل والعطف لأن هناك شبهاً بيني وبينك يوم كنت فتى غضاً جميل

الاهاب، وكنت أريد أن تشترك معنا وتأخذ نصيبك مثلنا ثم تموت سيداً محترماً، والآن يا ديكي لا بد لك من ذلك، إن الربان سمولت بحار ماهر كما أقر وأعترف إلى الأبد، إلا أنه شديد المعاملة دقيق في نظامه فهو يقول دائماً: «إن الواجب هو الواجب» وإنه لمحق في ذلك، هذا ما كان من شأن الربان فأفهمه جيداً، أما الدكتور نفسه فقد طار لبه عليك حتى إنه قال: «إنك لغلام جاحد» وخلاصة القول إنه لا يمكنك اللحاق بأصحابك كما أخبرتك لأنهم لا يقبلونك بينهم. وأنه إن لم تكوّن بنفسك وحدك بحارة لسفينة فلا مفر من انضمامك إلى الربان سلفر».

فسرني ما سمعته من الأبناء إلى الآن، حيث عرفت أن صحبي لا يزالون أحياء، بيد أنني لم أصدق ما ذهب إليه سلفر من أن جماعة «الحجرة» – الكابين – قد أهاج سخطهم تركي لهم فانسررت بما سمعته.

ثم استمر سلفر في كلامه حيث قال: «لست بقائل شيئاً عن وجودك بين أيدينا بكل تأكيد، ولما كنت على ثقة من أن التهديد لا يجدي فإني تارك لك حرية التفكير والمناقشة، فإذا لذلك العمل معنا فأهلاً وسهلاً، وإلا فأنت حر في الرفض، ونحن مع ذلك نرحب بك يا صاح، ولست أحسب في العالمين أحداً يقول خيراً مما قلت لك!».

فسألت بصوت الخائف المضطرب ما إذا كان يسمح أن أجاوب باذا .. وفي أثناء ذلك كنت أشعر أني مهدد بالقتل في كل لحظة؛ فقد علت وجهي الحمرة وصار قلبي يدق بشدة في صدري.

فقال سلفر: «ليس أحد يستحثك يا بني، فهوّن عليك، فإنه ليلذ لي اجتماعك بنا».

فقلت وقد زادت شجاعتي نوعاً ما: «حسن، إذا كان لي حق الخيار فينبغي لي أن أعرف ماذا حدث، ولماذا أنتم هنا الآن وأين أصحابي».

فكرر أحد القراصنة وهو يزوم بقوة هذه الجملة: «ماذا وماذا!»؛ «آه، إن من يعرف هذا سيكون ذا حظ جيد».

فصاح سلفر في وجه المتكلم وهو عابس وقال: «ألا فلتلزم الصمت حتى تسأل يا صاح» ثم التفت إلي وأجابني بلطف واحترام قائلاً: «قد أتى البارحة صباحاً الدكتور ليفزي ومعه علم الهدنة أثناء الخفرة الأولى وقال: «أيها الربان سلفر لقد هلكتم، فقد ذهبت السفينة، وقد يكون ذلك قد حدث ونحن نشرب شيئاً من الخمر ونردد غنوة، فأنا لا أنكر ذلك، وأقل الأمور أننا لن نرقب شيئاً، ثم نظرنا فوجدنا أن السفينة قد ذهبت، وإني مؤكد لك بأني ما رأيت في حياتي جماعة أكثر منا سخافة، ولو أني مراهن أنكم أقل الجميع سخافة». وتابع الدكتور: «حسن دعنا نتساوم»، فتساومنا وها نحن الآن كما ترى: عندنا المؤن والكونياك والبيت المحصن والأحطاب التي جمعتموها بحزمكم، وبعبارة أخرى جميع محتويات السفينة من السارية إلى أسفل السفينة، أما هم فقد خرجوا إلى الخلاء، ولا أعرف لهم مقراً».

ثم سحب بعض أنفاس من غليونه بهدوء، وقال متمماً حديثه: «ولكي تتأكد بأن شرطاً خاصاً قد وضع بشأنك في المعاهدة،

فإني مخبرك بنص آخر بما ورد بها من كلمات، ذلك إني عندما سألتهم عن عدد من تبقى من رجالهم، أجابوني بقولهم أربعة وواحد منهم جريح، أما الغلام فلا علم لنا بمقره لعنة الله عليه، ونحن لا نهتم بشأنه فقد مللنا أعماله، وهذه يا بني هي ألفاظ الطبيب بشأنك».

فسألته ما إذا كان هذا كل ما في الأمر.

فقال سلفر: «هذا كل ما يهمك يا بني؟».

ثم عدت فسألته ما إذا كان لي الخيار في تقدير مصيري بنفسي.

فأجاب سلفر بقوله: «لك أن تختار ما تشاء يا بني وكن واثقاً من ذلك».

فقلت بكل حماسة: «حسن إني لست بذاك الغبي، فإني أعرف جيداً ما ينبغي عليّ أن أفعل فدع المكاره يستطير شرها، فما كان هذا ليهمني، فقد رأيت قوماً كثيرين يموتون من وقت ما صرت بينكم، إلا أنه ينبغي لي أن أذكر لكم مسألة أو مسألتين، أولاً، إن مركزكم اليوم لشديد الخطر، فقد فقدتم السفينة وفقدتم الكنز وفقدتم الرجال، وبالإجمال قد أضعتم كل شيء، وإذا أردتم أن تعرفوا من فعل هذا – فإنه إياي! فقد كنت في برميل التفاح في الليلة التي رأينا فيها الأرض، وقد سمعتكم أنت يا جون وديك جونسون وهاندز الذي صار البحر مقره الآن، وقد أخبرت أصحابي بكل كلمة قبل فوات الفرصة، وأما السفينة فإني أنا الذي قطعت أمراسها، وأنا الذي قتلت الرجلين اللذين تركتموهما فوق سطحها، وأنا الذي أتيت بها إلى

مكان لا تعرفونه مطلقاً ولن يستطيع أحد منكم ذلك، أنتم تضحكون مني، بيد أنني قد قمت بأهم الأعمال من البدء، وإني لا أخافكم أكثر مما أخاف الذباب، فسواء قتلتموني أم أطلقتموني فهناك شيء واحد أريد أن أقوله لكم ولا أزيد عنه، ما فات مات وما هو آت آت، فأنتم لا بد يوماً واقفون بين يدي القضاء لتعطوا حساباً عما فعلتموه من القرصنة، فإذا أنتم قتلتموني، فأي فائدة تجنونها من قتل نفس أكثر مما قتلتم؟ فالأولى لكم أن تبقوا عليّ ليكون لكم مني شاهد ينجيكم من الشنق».

ثم أمسكت عن الحديث لأن تنفسي كاد يحتبس من كثرة الكلام، وقد دهشت لما رأيتهم كالأغنام لا ينطقون، وقد حبسوا أبصارهم عليّ كالأغنام، وبينما هم لا زالوا محدقين بي، عدت إلى استئناف الحديث مرة أخرى.

فقلت: «والآن يا سيد سلفر أعتقد أنك أفضل القوم، فإذا حصل شيء غير محمود أرجو أن تخبر الدكتور كيف كانت حالتي أثناء ذلك».

فقال سلفر: «إني سأحفظ هذا في ذهني» وقد قال ما قاله بشكل غريب أعجزني إدراك حقيقة مرماه، ما إذا كان قوله هذا على سبيل السخرية مني، أو أن الرجل كان قد أعجب لشجاعتي.

فصاح البحار الهرم ذو الوجه الأدغم – مورغان – الذي كنت رأيته في حانة لونغ جون في ميناء بروستول قائلاً: «وإني أضيف إلى ذلك أنه هو الذي أهلك الكلب الأسود».

فقال طاهي السفينة: «حسن اسمع، والله لأزيدن على ذلك مسألة أخرى، فإنه هو الصبي الذي استحوذ على الرسم البياني من بلي بونز، وخلاصة الأمر قد اختلفنا في الرأي بالنسبة لجيم هوكنز؟».

فصاح مورغان مقسماً وهو يقول: «لا! أيفعل ما فعل ثم ينجو سالماً من بيننا!».

ثم قفز منتصباً وامتشق مديته كأن عمره عشرون عاماً.

فصاح به سلفر: «كفى يا هذا! فمن أنت، ألست توم مورغان؟ هل ذهب بك الغرور لأن تتوهم أنك الرئيس هنا، فوالله لأرهقنك من أمرك عسراً، فما عليك إلا أن تمضي في مقاطعتي، حتى يصيبك ما أصاب أول الذاهبين قبلك وآخرهم في الثلاثين عاماً الماضية، فلقد دفن بعضهم في المقابر ومات بعضهم ورب السماء قتيلاً، ومعظمهم أمسى للأسماك طعاماً سائغاً، فما واجهني أحد أو جابهني بسوء ثم طابت له الحياة بعد ذلك، فخذ نفسك بهذا يا توم مورغان ممسياً ومصبحاً».

وكان مورغان صامتاً في تلك الأثناء، بيد أنني سمعت تمتمة بصوت أجش.

فصاح أحدهم: «إن توم لمحق».

وصاح آخر: «إني انتظرت طويلاً حتى عيل صبري»، وقال ثالث: «إني أفضل الشنق عن منعك إياي يا جون سلفر».

ثم هدد سلفر وقد انحنى إلى الأمام؛ واستقام على ساقه، وأمسك

غليونه في يمناه وقال: «هل يريد أحد منكم أيها الأفاضل أن ينازعني رئاستي؟ اذكروا لي اسم الرجل الذي تريدون أن يخلفني، فإني متنازل عنها لمن يريدها، فما أنا بمحتمل أكثر من ذلك، وقد عمَّرت من دون أن يعترضني غلام حانة في وجهي في آخر أيامي، وقد أمال قبعته على رأسه؟ كلكم يعرف الواجب وكلكم رجال محترمون بالنسبة للمهنة وأنا مستعد لذلك، فليتناول من شاء منكم سكيناً، ويجرب ليرى ما إذا كنت لا أبقر بها بطنه قبل نفاذ ما في هذا الغليون من التبغ؟».

فلم يتحرك أحد، ولا جرُأ امرؤ على جواب.

فأردف وهو يدخل غليونه في فمه قائلاً: «أهذا دينكم؟ فأنتم قوم لا نصيب لكم في الخير، ولا أنتم بأهل قتال هل تفهمون إنجليزية الملك جورج؟ أنا الرئيس هنا بالانتخاب ولأني أكثركم كفاءة بما لا يقاس، فأنتم لا قدرة لكم على القتال، كما يفعل الرجال المحترمون، إذا يتحتم عليكم وأيم الحق أن تطيعوني. إني أحب هذا الصبي فما رأيت صبياً أحسن منه مطلقاً، فهو أكثر رجولية من أي رجلين من الموجودين منكم في هذا المنزل وأيكم أعني بقولي، فدعوني بعد الساعة أرى من منكم يجسر على مسه بسوء، وأنا أعني ما أقول».

فأعقب ذلك صمت طويل، وقد ظللت مستنداً إلى الحائط وقلبي شديد الخفقان، إلا أن شعاعاً من الأمل كان قد نفذ إلى صدري، واستند سلفر أيضاً إلى الجدران مكتوف الساعدين وغليونه في جانب من فيه، وهو صامت مطرق كأنما هو في معبد، إلا أن عينيه كانتا سريعتي الاختلاج، وكان ينظر من طرف خفي إلى أتباعه عسيري

القياد العنيدين، الكثيري الإزعاج، وقد أخذوا في الابتعاد تدريجياً إلى طرف المنزل الآخر، وكنت لا أنفك أسمع صوت همسهم المستمر الذي يشابهه خرير النهر الجاري، فكانوا يحدجون بأبصارهم نحونا تباعاً، وكان ضوء الشعلة إذا وقع على وجوههم المضطربة دلني بأنهم إنما يوجهون نظراتهم إلى سلفر لا إليّ.

فلاحظ سلفر ذلك منهم وقال: «يلوح لي بأن عندكم لحديثاً طويلاً تتكلمون فيه، فارفعوا أصواتكم لأسمع ما تقولون وإلا فأنتم وحدكم الملومون».

فأجاب أحدهم قائلاً: «معذرة يا سيدي يجب أن تتساهل قليلاً في بعض القواعد وتشدد في الأخرى، إن القوم غير مرتاحين وإنهم لا يوافقون على هذا التهديد وهم محقون في ذلك كالجماعات الأخرى كما أقول لك بكل حرية وإني أستميحك عذراً يا سيدي في أننا لا ننكر عليك رئاستك الآن، إلا أنني أقول بين رفاقي بأن لنا الحق في عقد مجلس».

ثم سلّم هذا الرجل سلاماً عسكرياً نظامياً، ومشى ببرود إلى جهة الباب ثم ذهب خارج المنزل، وكان هذا الرجل طويلاً قبيح المنظر أصفر العينين يبلغ من العمر خمساً وثلاثين عاماً ثم تبعه الآخرون الواحد بعد الآخر، وكان كل منهم يسلم ويخرج معتذراً، فقال أحدهم: «حسب القواعد» وقال مورغان: «مجلس البحارة العاديين» وهكذا كان كل يقول ملحوظة حتى تركوني أنا وسلفر وحيدين في ضوء الشعلة.

فأبعد طاهي البحر في الحال غليونه من فمه.

وقال وهو يهمس بغاية التأني والسكون بصوت لا يكاد يُسمع: «انظر هنا الآن يا جيم هوكنز إنك على شفا جُرف الهلاك وما أبشع منظر العذاب هذا الذي رأيته؛ إنهم يريدون خلعي. ولكن أفهم أني سأقف بجانبك في السراء والضراء، وما عولت على ذلك إلا بعد أن قلت ما قلت، فأنا على وشك أن أخسر كل شيء وينتهي الأمر بشنقي وأرى أنك الشخص الذي يعتمد عليه، فأنا اليوم أناجي نفسي قائلاً! ينبغي لك يا نفس أن تحرصي على مؤازرة هوكنز وإني واقف بجانبك يا هوكنز فإنك آخر ورقة بيدي – هذه استعارة من لعب الورق – وبالله إن جون سيكون لك ظهيراً فنج شاهدك ينجك من الموت».

وبعد أن صرت أفهم قليلاً سألته: «هل تقصد أن كل شيء قد ضاع؟».

فأجاب قائلاً: «نعم بالله أقصد ذلك، فقد ذهبت السفينة ففقدنا بفقدها كل شيء فلما نظرت إلى الخليج يا جيم هوكنز ورأيت أن السفينة قد ذهبت، مع أني شديد المراس، فإني يئست، أما هؤلاء فإنهم جبناء ضعاف العقول، وإني باذل غاية جهدي في إنقاذ حياتك من التهلكة، ولكن انظر يا جيم – بدقة وتأني – يجب عليك أن تعمل على إنقاذ جون من الشنق».

فاختبلت في أمري، لأن الأمر الذي يطلبه مني لم يكن فيه شيء من الأمل – وهو رئيس العصابة وشيخ القراصنة طول المدة.

فقلت: «إني سأعمل كل ما أستطيع».

فصاح جون الطويل قائلاً: «إنها لمساومة عدني بصراحة وشجاعة فبالله سيكون لي منها مخرج».

وجعل يقفز حتى وصل الباب الذي كان ظاهراً من بين الأحطاب المكومة ثم أوقد غليونه.

وأجاب قائلاً: «افهم حديثي يا جيم إن لي رأساً فوق كتفي وإني في جانب السيد الان وأراني واثقاً من أنك قد أتيت بالسفينة إلى الشاطئ سالمة الآن، إلا أني لا أعرف كيف فعلت ذلك ولكنني متأكد من سلامتها، وأظن أن هاندز وأوبريان قد انقلبا وديعين، وإنني ما كنت أعتقد فيهم سيئاً وافهم هذا إني لا أريد أن أسألك أسئلة، ولن أصرح لهم بسؤالك فإني أعرف الرأي الحصيف وأعرف الصبي الناضج، فإني وإياك مع صغر سنك يمكننا أن نعمل أشياء كبيرة إذا نحن تحالفنا معاً».

ثم ملأ كوبة صغيرة من الكونياك الذي في البرميل وقال: «ألا تذوق شيئاً من هذا يا صاح؟» فلما امتنعت قال: «حسن إني سأشرب قليلاً يا جيم فإني أحتاج قليلاً نظراً لهذا الاضطراب الذي عمّ رجالي، وبمناسبة كلامي عن الاضطراب لماذا أعطاني الدكتور الرسم البياني يا جيم؟».

فظهرت على وجهي آثار الاستغراب غير المتصنع حتى إنه لم ير داعياً لأن يسألني أسئلة أخرى.

وقال: «حسن إن فعل، مع أن هذا لا يمكن أن يكون من دون

سبب، ولا شك عندي في ذلك، فإنه لا بد أن يكون وراء الأكمة ما وراءها إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً».

ثم أخذ جرعة من الكونياك وهو يهز رأسه كالرجل الذي يتوقع السوء.

الفصل التاسع والعشرون

الرقعة السوداء ثانية

استمر مجلس القراصنة منعقداً مدة، ثم دخل أحدُهم البيت مكرراً تحيته العسكرية التي كانت تدل على شيء من التهكم، وطلب التصريح له بأن يأخذ الشعلة، فأجابه سلفر إلى طلبه بكل اختصار، ثم خرج هذا الرسول منسحباً، وتركنا في الظلام منفردين.

ثم خاطبني سلفر بقوله: «لقد بدأ النسيم يشتد قِرَّة يا جيم وكان الرجل قد بدأ يعاملني بكل مودة، وبغير كلفة».

فالتفت إلى الفتحة القريبة مني ونظرت منها، فإذا بالأحطاب قد احترقت تماماً وأمسى سعيرها في غاية الانخفاض وخبا ضوؤها فكان هذا هو الباعث للمتآمرين على طلب شعلة نار، حيث كانوا مجتمعين على بعد نصف ميل من الدريئة، وكان أحدهم رافعاً الضوء في يده، وقد ركع آخر على ركبتيه في وسطهم، ورأيت نصل سكين مسلولاً وهو يتألق بألوان مختلفة وقد انعكس عليه ضوء القمر والشعلة، بينما أطرق الباقون برؤوسهم إلى الأمام، وكأنهم يراقبون هذه المناورة الأخيرة، وقد أمكنني بعد عناء كبير أن أرى معه كتاباً بجانب السكين التي في يده، فاستغربت وجود مثل هذا الكتاب معهم، لعدم اتفاقه مع طبيعتهم، وإذ بي قد رأيت ذلك الجاثم قد استقام على قدميه، ثم أخذ سائر الجماعة يتقدمون نحو البيت.

فقلت: «ها هم آتون» ثم رجعت إلى مكاني الأول، حيث فطنت إلى أن رؤيتهم لي وأنا أراقبهم إنما هي مذرية بحقي.

فقال سلفر وهو منشرح الصدر: «حسن دعهم يأتون يا بني – دعهم يأتون، فلا يزال بعد في القوس منزع».

ثم فتح الباب ودخل الرجال الخمسة ودفعوا واحداً منهم للتقدم فكان منظره مدعاة للضحك في غير هذا الظرف، حينما تراه يتقدم بغاية البطء وهو يتردد في كل خطوة يتقدمها إلى الأمام، إلا أنه كان رافعاً يده اليمنى التي مدها أمامه وهي منقبضة.

فصاح سلفر قائلاً: «تقدم يا بني فإني لا آكلك، أعطني ما عندك يا رجل فإني حافظ للقواعد بلا شك وإني لا أؤذي رسولاً».

فلما رأى القرصان هذا التشجيع تقدم إلى الأمام بنشاط وسلّم بيده شيئاً إلى سلفر ثم انسحب إلى الوراء بين رفاقه بسرعة كبيرة ورشاقة فائقة.

فحدّق طاهي البحر فيما أعطي له، ثم قال: «الرقعة السوداء! هذا ما توقعت، فمن أين لكم هذه الورقة؟ لقد قطعتموها من الإنجيل، فيا لفرط غباوتكم! تمزقون ورق الإنجيل!».

فقال مورغان: «آه، هكذا، هكذا! أما أخبرتكم من قبل؟ ألم أقل لكم بأن لا فائدة من عملكم».

بيد أن سلفر مضى في حديثه: «حسن، لقد قررتم الأمر فيما بينكم وإني واثق من أنكم ستشنقون، ومن ذلك الغبي الذي كان معه الإنجيل؟».

فأجابه واحد منهم: «إنه ديك».

فقال سلفر: «هل هو ديك؟ فحينئذ يجب على ديك أن يستغفر ويصلي، فإنه بالتحقيق قد تبين له شيء من حظه».

وهنا اشترك الرجل الطويل أصفر العينين في الحديث.

قال: «دع عنك هذا الكلام يا جون سلفر إن هؤلاء القوم قد أعطوك الإنذار وهم مجتمعون في مجلس رسمي؛ فما عليك إلا أن تفتحه كما يقضي الواجب وترى ما كُتب فيه ثم تتكلم».

فأجاب طاهي البحر قائلاً: «شكراً لك يا جورج فلقد عرفتك محباً للإسراع في عملك، مستظهراً للقواعد على ما أحب، هذا حسن، فماذا تريدون الآن على أي حال؟ آه! مخلوع هل هذا خطك يا جورج؟ طبعاً فأنت على وشك أن تخلفني في ترؤس هذه الجماعة، ثم بعد ذلك تصبح ربّاناً، فلا شيء من الغرابة في مظهرك، ألا أعطني الشعلة فقد خبت نار غليوني».

فقال جورج: «هلم نناقشك الحساب وكفاك هذراً بنا، فإنك لرجل غريب الأطوار وعملك أقوى دليل على ذلك، أما الآن فقد دالت دولتك، فلا محيض لك اليوم من النزول عن هذا البرميل لتشترك معنا في انتخاب رئيس جديد».

فأجاب سلفر باحتقار: «ظننتك على علم بالقواعد كما ادعيت، وعلى كل حال فإذا جهلتم أنتم القوانين فإني أعرفها، وإني ثابت في مكاني وأنا لا أزال ربّانكم، ويجب أن تفهموا ذلك تماماً – وسأظل رئيسكم حتى تذكروا شكواكم أمامي، ثم إني أجيبكم وأناقشكم، ثم بعد ذلك نرى، وعليه فإن رقعتكم السوداء لا تساوي في نظري قطعة من الكعك».

فأجاب جورج قائلاً: «آه، يجب ألا يتبادر إلى ذهنك شيء من ذلك فقد أجمعنا على أنك قد خربت هذه الرحلة، ولسنا نحسب أن لك من الشجاعة ما تجسر معه على نفي هذه الحقيقة، هذا من جهة، ومن الجهة الأخرى، فقد سرحت العدو من هذا الشرك بلا مقابل، ولا قبل لي على معرفة السر في ذلك بيد أنه يخيل إليّ بالتأكيد أنهم كانوا يريدون ذلك. ثالثاً، إنك منعتنا من الذهاب إليهم وهم سائرون، وإني عارف بما تنطوي عليه نفسك يا سلفر، فأنت ترمي إلى الاستئثار بالغنيمة، وهذا هو خطؤك الكبير، أما الأمر الرابع فهو مسألة هذا الصبي».

وهنا سألهم جون سلفر ما إذا كان هذا كل ما في الأمر.

فأجاب جورج قائلاً: «حسبنا هذا، فإن عبثك، لا بد سيؤدي بنا إلى الشنق والتهلكة».

فقال سلفر: «حسن، التفتوا إليّ فإني مجيبكم على هذه النقط الأربع الواحدة بعد الأخرى؛ فأنتم تزعمون أني خربت أمور الرحلة، فهل أنا السبب فيما حدث؟ لا بأس، أنتم تعلمون جميعاً ماذا كنت أريد، وتعرفون ما إذا كان قد تحقق ذلك أم لا، ألم نكن جميعاً أحياء أصحاء على سطح السفينة ومعنا الكنز في مطمور السفينة، حسن من الذي أغضبني؟ من الذي قيد يدي وأنا الرئيس عدلاً؟ ومن الذي أعطاني الرقعة السوداء – أي الإنذار – في اليوم الذي نزلنا فيه إلى البر وابتدأ هذا الرقص؟ آه، إنه لرقص جميل – وإني معكم كما ترون – وتراني قوياً كالمزمار القرني في طرف حبل في مكان الشنق بمدينة لندن، فمن إذاً هو الذي فعل ذلك؟ لماذا كان أندرسون وهاندز وأنت يا

جورج مري! وأنت رئيس ذلك المجلس الذي كان يتداول؛ وقد ذهبت بك الوقاحة لأن ترشح نفسك رئيساً بدلاً عني، فأنت الذي غررت بنا، وإن هذا ليكفي لهدم جميع ما بنيته من الخزعبلات».

ثم وقف سلفر قليلاً، فتبينت على وجوه جورج وإخوانه أثر كلمات سلفر التي فاه بها.

ثم أردف المتهم قائلاً: «هذا ما كان من شأن التهمة الأولى» وجعل يمسح العرق عن جبينه، حيث كان يتكلم باهتمام وشدة، حتى أن أركان المنزل كانت تهتز أثناء حديثه، ثم قال: «عجباً، إنه ليؤلمني أن أصرح لكم بكل الحقيقة ليس لكم عقل ولا ذاكرة، وإني لأتعجب كيف جسرتم على ترك أمهاتكم والتغرير بأنفسكم في سفر البحر، البحر! أيها الرجال المحترمون، لقد كان الأولى لكم أن تكونوا خياطين».

فقاطعه مورغان بالقول: «ألا أمضِ في حديثك يا جون وأجبنا على بقية الأسئلة».

فأجاب جون: «هل تريدون جواباً على المسائل الأخرى، إنها لمجموعة طيبة أليس كذلك؟ أنتم تقولون بأن هذه الرحلة أفسدت عليكم، ولو أنكم عرفتم كيف فسدت، لأدرككم العجب، فقد كنا قريبين من المشنقة حتى أن عنقي كانت تجمد في مكانها عندما أتذكر ذلك المنظر، فإنكم قد رأيتموه والمشنوقون مغللون بالسلاسل تحوم حولهم الطيور، والبحارة يشيرون إليهم وهم سائرون مع تيار المد فيقول أحدهم من هذا؟ جون سلفر كنت أعرفه جيداً، هكذا يجاوب الآخر، وكنتم تسمعون السلاسل وهي تشنشن وأنتم تمرون بجانبها، هذا هو

مركزنا الآن فإن كل ابن أنثى منا عليه أن يشكر نفسه ويشكر هاندز وأندرسن وأولئك الأوغاد الذين أفسدوا علينا الأمر، وأما إذا أردتم أن تعرفوا الجواب على المسألة الرابعة بشأن هذا الغلام، فإني سائلكم، أليس هو كالوديعة المرهونة بين أيدينا، وهل يجمل لنا أن نضيع رهينة كهذه؟ بلى، ما كنا لنفعل شيئاً من ذلك، فلعله آخر رجاء لنا، ولست بمستغرب ذلك – أفهل نقتل هذا الغلام؟ لست بفاعل هذا أيها الرفاق. آه، هناك المسألة الثالثة إنها تحتاج إلى حديث طويل، ولست أحسبكم مقدرين تلك النعمة الجزيلة؟ وهي أن يتردد عليكم دكتور متخرج من الكلية لعيادتكم يومياً وأنت يا جورج مهشم الرأس أو أنت يا مري وقد كنت تنتفض من قشعريرة الحمى التي كنت مصاباً بها منذ ست ساعات فقط، ولا تزال عيناك مصفرتين كالليمون حتى الساعة، فما قولكم في هذه النعمة؟ لعلكم كنت لا تتوقعون أن شخصاً آخر سيأتي لنا، ولم يكن قد مضى زمن طويل، وسوف نرى من الذي يسر عندما يجد رهينه بين يديه، أما المسألة الثانية من حيث قبولي المساومة – فأنتم الذين طلبتم قبولها بإلحاح وتوسل، وقد تملككم اليأس – وكنتم على وشك الموت جوعاً وأنا معكم، ولكن كل هذا غير مهم عندكم، فانظروا وتدبروا، فهذه هي الأسباب».

وقد ألقى على الأرض بقطعة ورق صفراء عرفت في الحال بأنها هي الرسم بعينه وقد رسمت عليها ثلاثة صلبان بالمداد الأحمر، وهي التي وجدتها في قاع صندوق القبطان البحري، مطوية في قطعة من المشمع، ولقد أعجزني إدراك السر الذي حدا بالطبيب لأن يعطيها لسلفر.

ولـو أنــه أعجزنــي فهـم السـر فــي وجودهـا مـع سـلفر، بيـد أن ظهورها كـان كـالحلم عند من بقـي حياً مـن القراصـنة، فقد قفزوا عليها كالقطة على الجرذ، فظلوا يتخاطفونها تباعاً، وهم يقسمون ويصيحون، ويضحكون كالأطفال وهم يتفحصونها، فكنت إذا رأيتهم لم تتوهم بأنهم قد ظفروا بالـذهب فقط، ولكنـك كنـت تحسـب أنهـم نقلـوه إلـى السـفينة وأقلعوا به في اليم سالمين.

ثم قال أحدهم: «أجل، لا ريب في أن هذا هو خط فلنت بنفسه، فهذه إمضاؤه، وعلى مسافة منها تجد علامته التي كان يضعها دائماً».

وقـال جـورج: «مـا أجملهـا! ولكـن كيـف نـذهب بـه ولـيس معنـا سفينة؟».

ثم قفز سلفر فجأة وهو يستند إلـى الحـائط وصـاح: «إنـي أنـذرك يـا جـورج الآن، فـإذا نطقـت بكلمـة أخـرى فـإني سـأدعوك لمبـارزتي، عجباً، وأنا لي معرفة ذلك، فهل لك في إجابتي على هذا السؤال أنت ومـن معـك، الـذي سبَّب تـداخلكم ضـياع السفينة، لعنـة الله علـيكم! ولا نزاع عندي فـي أنك اليوم عـاجز عن إجابتي إلـى سؤالي، فـلا أقل من أن تحتشم في حديثك يا مري».

وقال مورغان الهرم: «هذا معقول وحق الآن».

ثـم قـال طـاهي البحـر: «أظنـه حسـناً إن أضـعتم السـفينة، وأنـا وجـدت الكنـز فـأي أفضـل؟ إنــي لأسـتقيل الآن ولتنتخبـوا مـن تشـاؤون ليكون رئيساً عليكم أما أنا فقد انتهى أمري».

فصـاحوا جميعـاً: «يـا سـلفر! نريـد الطـاهي إلـى الأبـد! الطـاهي رئيسنا وربّاننا!».

وصاح الطاهي قائلاً: «إذا هذا هو رأي الجميع يا جورج، أظن ينبغي لك أن تنتظر فرصة أخرى حتى يأتي لك الدور يا صاح، ومن حسن حظك إني لست ممن ينتقمون لأنفسهم، فإني لا أحب هذا مطلقاً، الآن أيها الرفاق ما لكم ولهذه الرقعة السوداء؟ أليست هي الآن عديمة الجدوى؟ إن ديك قد أساء حظ نفسه وأتلف الإنجيل وهذا كل ما فعل».

فأجاب ديك وهو يزوم وكانت تظهر علامة الافتراض من سوء عمله قائلاً: «أيكفي أن أقبل الكتاب الآن أليس كذلك؟».

فأجاب سلفر مستهزئاً: «ماذا بقي من هذا الإنجيل بعد التمزيق الذي حصل له، لا أظن ذلك فهو الآن لا يمتاز عن أي كتاب من كتب الأغاني».

فصاح ديك وهو مملوء فرحاً: «أليس هو كذلك؟ حسن، إنه يستحق الاحتفاظ به على أي حال».

ثم قال سلفر: «خذ هذه للتفكهة بها» ورمى إليّ بالورقة.

وكانت ورقة مستديرة في حجم الكورون أحد وجهيها أبيض من دون كتابة وكانت هذه هي آخر صحائف الكتاب والوجه الآخر كان فيه سطر أو سطرين من سفر الرؤيا – وكان بين هذه الكلمات الألفاظ التالية وقد علقت بذهني جيداً (وفي الخارج كلاب وقتلة) وكان الوجه المطبوع قد سُود بهباب الخشب المحروق وصار على وشك الزوال ولوّث يدي، وأما الوجه الأبيض فقد كتب عليه بذات نوع المداد كلمة (مخلوع) وإني لمحتفظ بهذه الورقة حتى هذه اللحظة إلا أنه لم يبقَ فيها أثر كتابة أو خدوش صغيرة كالتي تحدث من تأثير حك الظفر بها.

وكان هذا آخر أعمال الليلة، وبعد أن شربنا دوراً من الخمر رقدنا للنوم، ثم عيّن سلفر جورج مري حارساً تلك الليلة وكان هذا كل ما أظهره من الانتقام، وهدده بالموت إذا شك في أمانته.

ولم أنم إلا بعد زمن طويل، فشهد الله إن فكري كان منشغلاً بالرجل الذي قتلته بعد ظهر هذا اليوم بينما كنت في أشد الأخطار، إضافة إلى الدور الذي لعبته مع سلفر حتى صرت أرى سلفر مرتبطاً معي – فمن جهة كان يلم شعث المتمردين، ومن جهة أخرى يعمل لصالحنا – الأمر الذي يقرب من المستحيل لكي ينجي حياته بذلك، أما هو فقد نام نوماً هادئاً وغط بصوت عال، إلا أني كنت أشفق عليه مهما كان شريراً في نفسه، عندما كنت أتخيل الأهوال التي تحوم به والمشنقة التي تنتظره.

الفصل الثلاثون

كلمة الشرف

نهضت – أو بالأحرى نهض جميعنا، لأني كنت أرى أن الحارس ذاته قائماً يتمغط وينفض عن نفسه غبار النوم في مكان خفارته بجوار الباب – حيث سمعنا صوتاً ينادي متلطفاً من حافة الغابة قائلاً:

«يا أهل البيت المحصن، يا هوي، هذا هو الدكتور».

ولقد كان هو الدكتور نفسه، ولو أنني كنت في غاية الطرب لسماع هذا الصوت، بيد أن سروري كان مشوباً بشيء آخر، حيث تذكرت ما كان من عدم طاعتي، وانسلالي من بين أصحابي على غير علم منهم، فلما عرفت بأن نتيجة عملي هي التي ساقتني إلى هذا المكان، بين هؤلاء القوم، تكتنفني تلك الأخطار، خُيل إليّ بأني غير قادر على لقائه، لشدة ما انتابني من عوامل الخجل.

ولا بد أن يكون الدكتور قد استيقظ والليل والصبح خيطان، حيث كان النهار على وشك البزوغ، فلما أسرعت وذهبت إلى الثغرة لأبصره الفيته واقفاً، كما وقف سلفر من قبل، يحفه نطاق من الضباب الممتد حتى منتصف الطريق.

فصاح سلفر وقد أفاق من نومه تماماً، ولاحت عليه علائم الإنسانية وقال: «ألا عِم صباحاً يا دكتور، لقد بكرت بكور الغراب في

هذا الصباح الجميل، والطيور المبكرة هي التي تحظى برزقها على ما جاء في سائر الأمثال، فأنشط يا جورج وساعد الدكتور ليفزي على العبور إلى هنا، أما حالة مرضاك يا دكتور فهي مرضية، وصحتهم جيدة وسرورهم عظيم».

وهكذا كان مستمراً في حديثه وهو واقف فوق قمة التل وعكازه تحت إبطه، وقد استند بيده إلى كتلة حطب البيت – فكان هذا كما كان من قبل في صوته وحركاته وطريقة كلامه.

واستمر في حديثه قائلاً: «عندنا ما يدهشك يا دكتور، فإن عندنا لشخص غريب، هو! هو! نزل بنا ضيفاً وإنه لفي صحة جيدة وقد نام نوماً هادئاً مطمئناً، وقد كان نومه إلى جواري فبتنا متلاصقين طوال الليل».

وكان الدكتور ليفري ساعتئذ قد عبر الدريئة وصار قريباً من الطاهي، وقد لاحظت نغمة صوته تتغير وهو يسأل مستفسراً ما إذا كنت أنا المقصود بالحديث.

فأجابه سلفر قائلاً: «إنه جيم بلا ريب».

فجمد الدكتور في موضعه لساعته، ولو أنه لم ينبث ببنت شفة ولم يتحرك إلا بعد مضي بضع ثوان.

ثم قال بعد ذلك: «حسن، حسن، الواجب أولاً ثم المباسطة بعد ذلك على رأيك يا سلفر، فهلم نعالج مرضاك أولاً».

وبعد لحظة من دخوله الحصن، ابتسم لي ابتسامة، وأخذ يعالج مرضاه، وما كان يظهر عليه أي وجل منهم، مع أنه كان ينبغي له أن يتأكد من أن حياته كانت مهددة في كل لحظة من هؤلاء المكرة

الغادرين، بيد أنه جعل يتفقد مرضاه كما لو كان يعود مرضى أسرة إنجليزية مهذبة هادئة، ولا شك عندي في أن حسن معاملته كان لها كبير أثر على أولئك الرجال، وقد كانوا يعاملونه كأنه لم يحصل شيء، وكأنما الدكتور لا يزال طبيب السفينة وكأنهم لا يزالون مخلدين إلى السكينة، منتظمين في عملهم.

ثم قال للذي كان رابطاً رأسه: «إن حالتك في تحسن يا صاح ولو إن امرءا كان قاب قوسين أو أدنى من الموت، فلتكون أنت ذلك الرجل ولا بد أن رأسك صلبة كالفولاذ»، ثم عطف على جورج وسأل عن حاله، وقال: «إن لونك ليدل على تقدم صحتك بلا نزاع، ولا عجب فقد كان كبدك مقلوباً يا رجل، فهل تعاطيت ذلك الدواء؟ هل تعاطاه يا رجال؟».

فأجاب مورغان قائلاً: «نعم يا سيدي إنه قد أخذه بكل تأكيد».

فقال الدكتور ليفزي بطرقته الظريفة: «بما إني طبيب القراصنة أو طبيب السجن لأني أفضل هذه التسمية، فقد حتم عليّ شرفي أن لا أضيع منكم شخصاً لأجل الملك جورج (بارك الله فيه) ولأجل المشنقة» فجعل الأوغاد ينظرون إلى بعضهم، بيد أنهم سمعوا كلمته التي وقعت موقعها وهم صامتون.

وقال واحد منهم: «إن ديك منحرف المزاج».

فأجاب الدكتور: «هل هو حقاً منحرف المزاج ألا تقدم إليّ يا ديك وأرني لسانك، لا، إني مستغرب ذلك، فإن لسانه يصلح لإرهاب الفرنسيين، إنه حمى ثانية».

قال مورغان: «آه، هكذا إن هذا نتيجة إتلاف الإنجيل».

فأجاب الدكتور: «هذا نتيجة غباوتكم، وعدم تمييزكم الهواء الصالح من الهواء الفاسد، والأرض الجافة من المستنقع المملوء بالمضار، وإني أعتقد أنكم ستدفعون ثمناً غالياً قبل شفائكم من هذه الملاريا ولو ان هذا رأي فقط، فهل تعسكرون في مستنقع؟ إني مستغرب لك يا سلفر فإنك أقل منهم حمقاً على العموم بيد أنه يظهر عليك أنك لا تفهم قواعد مبادئ حفظ الصحة».

وبعد أن أتم الدكتور عيادته لهم جميعاً ووصف لهم العلاج اللازم وهم خاضعون خضوعاً مضحكاً أشبه بخضوع الأطفال الذين يتعلمون مجاناً، منهم الثوار المجرمين والقراصنة – أردف بقوله: «حسن، يكفي ما عمل هذا اليوم، والآن أريد أن أتكلم مع هذا الغلام».

قال ذلك وهز رأسه مشيراً إلى جهتي بغير اكتراث.

وكان جورج مري بجوار الباب يبصق ويقيئ من أثر الدواء الكريه الطعم الذي تعاطاه؛ فلما سمع أول كلمة من طلب الدكتور التفت إلى الخلف محمر الوجه وصاح: «لا» وتبع ذلك بقسم.

فلطم سلفر البرميل براحة كفه وصاح: «سكوت» ثم نظر إليه نظرة مخيفة كالأسد، واستمر قائلاً بطريقته المعهودة: «كنت أفكر في ذلك يا دكتور لأني أعلم مقدار حبك لهذا الصبي؛ وإننا جميعاً لشاكرون لك فضلك وشفقتك بكل احترام وإننا واضعون بك ثقتنا فنحن نتعاطى دواءك كأنه السحر، وقد فكرت في طريقة تناسبنا جميعاً، وأنت يا هوكنز أعطيني كلمة الشرف أن لا تهرب لكونك شاباً محترماً – إنك شاب محترم رغم كونك ولدت فقيراً».

وقد أعطيت ذلك العهد المطلوب في الحال.

ثم أردف سلفر بعد ذلك: «اخرج إلى خارج الدريئة، فإذا انتهيت إلى هناك، وافيتك بالغلام. وأعتقد أنه في مقدوركما الكلام من بين خلل السياج، ولك السلام يا سيدي ، وبلغ احترامي للسيد وللربان سمولت».

وما كاد الدكتور يخرج من المنزل حتى دوى المكان بعلامات الاشمئزاز وعدم الموافقة التي ما كان ليحجبها إلا نظرات سلفر المخيفة، وقد كان سلفر معتبراً بينهم علناً بأنه ذو وجهين – أي أنه يسعى ليعقد صلحاً خاصاً لنفسه – ليضحي فيه بمصالح رفاقه الذين يصبحون فريسة لغدره، وبالاختصار فقد كان هذا الأمر الحاصل واضحاً لديّ تماماً في هذه الحالة حتى إني ما كنت أتصور كيف كان يتجنب غضبهم، إلا أنه كان أكثر كفاءة منهم، وقد جعله انتصاره في الليلة الماضية يسيطر على عقولهم بشدة وكان يسميهم بلهاء وأغبياء قائلاً بإنه ينبغي له أن يحادث الدكتور، ورمى الرسم في وجوههم، وسألهم إذا كانوا يستطيعون فسخ المعاهدة في اليوم الذي كانوا مزمعين أن يبحثوا فيه عن الكنز.

وصاح مقسماً: «لا وأيم الحق إننا سنفسخ المعاهدة عند سنوح الفرصة، ولأستمرن في مخادعة هذا الدكتور حتى ذلك الوقت، ولو ألجأني الأمر لأن أمسح بالبراندي نعليه».

ثم أمر بإيقاد النار وسار إلى الخارج متكئاً على عصاه، واضعاً يده الأخرى فوق كتفي، تاركاً رفاقه في حالة اضطراب، وكان قد أسكتهم بالكلام لا بالإقناع.

ثم قال: «تمهل يا بني فإنهم لا بد محيطون بنا في لمح البصر إذا رأونا مسرعين».

فسرنا فوق الرمل حتى انتهينا إلى حيث كان الدكتور ينتظرنا في الجانب الآخر من الدريئة، وعندما صرنا قريبين منه بحيث يمكنه معها سماع حديثنا، وقف هناك سلفر.

وقال: «أيها الدكتور يجب أن تلاحظ هؤلاء الذين هنا أيضاً وسيخبرك الصبي بكل شيء، وكيف أنني نجيت حياته وقد أوشك القوم أن يخلعوني من أجل ذلك، إن الإنسان يا دكتور إذا كان يقود سفينة وكانت الريح قريبةً منه مثلي – وهو يلعب بآخر رمق من حياته، فلا أحسب بأنه كثير عليك والحالة هذه أن ترفه عنه بكلمة طيبة وكن واثقاً أنهم لا يبغون سفك دمي وحدي الآن – بل يردون رأس هذا الغلام أيضاً، فأرجو أن تحسن الكلام في حقي يا دكتور حتى يكون لي شيء من الأمل لأستمر في هذا وذلك رحمة منكم».

وقد تحول سلفر الأن رجلاً آخر بعد أن أدار ظهره إلى إخوانه والبيت المحصن؛ وقد ظهر لي أن صدغيه غارا في وجهه وأن صوته صار مضطرباً، ولم يكن هنالك من هو أشد منه حسرة.

فسأل الدكتور ليفزي: «ألست خائفاً يا جون؟» فأجاب وهو يقصع أصابعه قائلاً: «إني لست جباناً يا دكتور، لست كذلك – لست بهذه الدرجة، ولو أنني كذلك ما كنت أقول إلا إني أقر بأني أخشى المشنقة؛ إنك رجل طيب وصادق وما رأيت رجلاً أحسن منك! بيد أنك لن تنسى ما فعلته معك من الخير كما أنك لا تنسى الشر كما أعتقد؛

وإنـي سـأبتعد وأتركك والغـلام وحـدكما؛ وإنـك لتـذكرها حسـنة لـي أيضـاً، فإنها مسألة خطيرة».

وبعد أن قال هذا ابتعد إلى الخلف قليلاً حتى صار لا يستطيع سماع حديثنا وجلس على جذمور – بقية الشيء أو القصوب – شجرة وجعـل يصـفر، وصـار يلتفـت تـارة إلينـا وطـوراً ينظـر إلـى الأوغـاد المضطربين وهم يروحون ويغدون فوق الرمال بين النار – التي كانوا يزيـدونها لهبـاً – والبيـت الـذي كـانوا يـأتون منـه بلحـم الخنزيـر المملـح والخبز لفطورهم.

وقال الدكتور وهو مكتئب ها أنت ذا يا جيم وإنك يا بني لا بد جاني ثمرة غرسك فوالله إن قلبي لا يهاودني في لومك إلا أني سأقول هـذا سـواء أكـان حلـواً أو مـراً: «لمـا كـان الربـان سـمولت فـي صـحة وعافيـة لـم تتجاسـر علـى الهروب، ولمـا مـرض لـم تمنعـك نفسـك مـن ارتكاب هذه المخزاة وإن هذا والله إلا الجبن بعينه».

وإني أقر أني عندما سمعت هذا ابتدأت أبكي وقلت: «يا دكتور أرجـوك أن تخفـف عنـي فكفـاني لـومي لنفسـي، إن حيـاتي ذاهبـة لا محالة ولولا وقفة سلفر لكنت الآن في عداد الأموات، ولتتأكد يا دكتور بـأني أقبـل المـوت – بـل أقـول إنـي أسـتحقه – ولكـن الـذي أخشـاه هـو التعذيب، فإذا وصل الأمر إلى أن يعذبوني...».

فقاطعني الدكتور وقد تغير صوته قائلاً: «يا جيم يا جيم إنـي لأكره لك هذا هلم إليّ ونحن نهرب من وجههم».

فقلت: «لقد وعدت يا دكتور».

فصـاح بـي الـدكتور قـائلاً: «إنمـا أعـرف ذلـك، ولكـن لـيس أمامنـا

الآن إلا هذا، وإني محتمل عنك عار هذا اللوم يا بني، فما أنا بتاركك تبقى هنا، فما عليك إلا أن تقفز قفزة واحدة فتصبح في الخارج، ثم بعد ذلك نعدو كالغزلان».

فأجبت: «لا، لست بفاعل، أنت تعرف جيداً أنك لا ترضى بهذا، لا أنت ولا السيد ولا الربان، ولست أنا بفاعل ذلك، إن سلفر قد ائتمنني وأنا قد عاهدته وإني لا محالة راجع إليه، إلا أنك لم تدعني أتمم يا دكتور، فإذا صار الأمر إلى تعذيبي فإني مخبرك بمقر السفينة، فقد استحوذت عليها بمساعدة الحظ وعظيم المخاطرة، وإنك لتجدها راسية في المدخل الشمالي على الشاطئ الجنوبي تحت علامة الماء تماماً. وعندما يكون المد في منتصفه تجدها في الأرض اليابسة».

فصاح الدكتور متعجباً: «السفينة».

فشرحت له مخاطرتي بسرعة، فكان يصغي إليّ إلى أن انتهيت وهو صامت لا ينطق.

فلما فرغت من القصة قال هذه الملاحظة:

«إن في ذلك لنوعاً من القدر، فأنت تنقذنا في كل خطوة، وهل تظن أننا ندعك تخسر صفقتك؟ فإن هذا ليكون جزاء سيئاً يا بني، فأنت الذي كشفت المؤامرة، وأنت الذي عثرت على بن جن – وهذا خير ما فعلت وما ستفعل في حياتك حتى لو عمرت إلى التسعين، آه يا أبو الآلهة. وبمناسبة ذكر بن جن لماذا هو السوء بنفسه؟» ثم أردف مخاطباً سلفر قائلاً: «إني أنصحك يا سلفر بألا تكثر من الإسراع في بحثك عن الكنز».

فقال سلفر: «لماذا يا سيدي، أليس لي أن أبذل جهد المستطيع في هذا السبيل، فإن فعلت أكون عاملاً على إنقاذ حياة هذا الصبي وحياتي أيضاً بلا ريب».

فأجاب الدكتور: «حسناً يا سلفر إذا كان الأمر كذلك فإني مخبرك بشيء آخر فوق هذا وهو أنكم ستلاقون الهلاك قبل العثور عليه».

فقال سلفر: «إن حديثك يا دكتور ليجمع بين كبر المعنى وصغره في آن واحد، فعم كنت تبحث عندما تركت المنزل المحصن؟ وما الذي حدا بك لأن تعطيني الرسم؟ إنه لا علم لي بشيء من ذلك حتى الساعة، ومع كل فأنا لا أزال عاملاً بأوامرك، منقاداً لها انقياداً أعمى من غير أن أحظى من فمك بكلمة تذهب عني أذى اليأس، وأغلب ظني أن وراء الأكمة ما وراءها، فإن لم تفصح لي عن ذات صدرك؛ فلا أقل من أن تصرح لي بذلك حتى أترك دفة الأمور».

فأجاب الدكتور مازحاً: «ليس لي من الحق أن أصرح لك بأكثر مما صرحت، لأن السر ليس سري كما تعلم ولو أنه كان كذلك لما ضننت عليك به وشرفي، بيد أنني مظاهرك على قدر استطاعتي، لأني أشفق أن يظنني الربان غير شريف بلا نزاع، وأني أعدك أولاً بشيء من الأمل، فإذا نجونا سالمين من هذا المأزق فإني باذل جهدي في نجاتك، ما دام ذلك لا يكلفني ارتكاب الكذب والتزوير» فطفح وجه سلفر بالأمل، وقال: «ما كنت يا سيدي لتقدر على أكثر من ذلك حتى لو كنت والدتي».

ثم أردف الدكتور قائلاً: «هذه أحد المنحات، أما الثانية فهي

نصيحة مني إليك، وتلك أن أحتفظ بالغلام، ونحن مستعدون لمساعدتك، وإني ذاهب للسعي في مصلحتك، وأنت تعلم من هذا ما إذا كنت ألقى الكلام على عواهنه أم لا، والآن استودعك الله يا جيم».

ثم صافحني الدكتور ليفزي من بين خلل السياج وأومأ إلى سلفر برأسه وسار نحو الغابات باشر الوجه.

الفصل الحادي والثلاثون

التفتيش عن الكنز
- مؤشر فلنت -

حين انفردنا وحدنا خاطبني سلفر قائلاً: «إذا نحن تعاونا على الخلاص، فلن أنس لك هذا، لقد رأيت الدكتور يحرضك على الهرب - بطرف عينه، ورأيتك بوضوح وأنت ترفض، وإن هذا لما يزيد مركزك رفعة في نظري، وهو أول بريق من الأمل ينزل بقلبي منذ فشل الهجوم وإني مقر لك به، والآن يا جيم فإننا سنذهب للبحث عن الكنز بدون معرفة التفاصيل على الرغم مني، ولهذا يجب أن يعضد بعضنا الآخر حتى يمكننا تنجية حياتنا رغم القدر والحظ».

وفي هذه اللحظة نادانا رجل من جهة النار قائلاً: «الفطور قد أعد» فجلسنا من دون انتظام على الرمل نأكل من الكعك واللحم القديد المشوي، وكانوا قد أوقدوا ناراً تكفي لشواء ثور، وقد اشتد سعيرها لدرجة أنه صار يتعذر الاقتراب منها إلا من جهة هبوب الريح، وحتى من تلك الجهة يجب أن يكون الإنسان في غاية الاحتراس، وقد أسرفوا كل الإسراف كعادتهم فطهوا طعاماً يبلغ ثلاثة أمثال ما يمكننا أكله، وقد رمى واحد منهم ما تبقى من طعامه في النار وهو يضحك بغير داع، ثم زاد ضحكاً عندما زاد التهاب النار من جراء ذلك، وما رأيت

في خيالي قوماً أكثر تبذيراً من هؤلاء، فهم لا يدخرون لغدهم شيئاً وأحسن وصف لهم أنهم يعيشون من يدهم إلى فمهم، ومع أنهم كانوا يسرفون في طعامهم وينامون أثناء خفرتهم فقد كانوا شجعاناً في المعارك. إلا أنهم ما كانوا ليصلحوا في موقعة إذا طال عليهم الأمد.

وما كان حتى سلفر ليجرؤ على أن يلوم واحداً منهم على فرط لامبالاتهم، وقد جعل يزدرد طعامه وعلى كتفه كابتن فلنت، وقد أعجبت لهذا كثيراً لأني ما رأيته قط أكثر مخادعة مما كان في تلك اللحظة. ثم خاطبهم بقوله:

«يا إخواني، إنه لمن حسن حظكم وجود رجل مثلي بينكم ليرشدكم بحصيف رأيه، فها أنا قد ظفرت بما أريد، ولا ريب عندي في أن جماعة الدكتور قد استحوذت على السفينة، ولكن لا علم لي بمكانها، فإذا نحن وجدنا الكنز وجب علينا أن نبحث عنها بهمة، واعلموا يا إخوان أن الكفة الراجحة إنما هي للجماعة التي تحوز على السفينة» وكان يتحدث وفمه مملوء بلحم الخنزير المملح الساخن، فأعاد إليهم ثقتهم به، ثم أصلح ذات البين بينه وبينهم، حتى أدركتني خلجات من الشك في أمره.

ثم استمر قائلاً: «أما بالنسبة لهذا الرهين فإن هذا هو آخر حديث له معهم على ما أظن، وإني قد وقفت على ما أردته من الأخبار، فشكراً له على ذلك، وقد قضي الأمر، وإني سأربطه معي عندما نذهب في سبيل البحث عن الكنز، ونحن لا بد محتفظون به احتفاظنا بالذهب، ولسوف ينفعنا في وقت الحاجة لا محالة، وعندما

نستحوذ على السفينة والكنز معاً ونقلع بهما إلى اليم وقد ملا الفرح قلوبنا فسنبحث في مسألة السيد هوكنز وسنعطيه نصيبه من الكنز بكل تأكيد جزاء معروفه».

ولا عجب فقد صار القوم في غاية الانشراح، أما أنا فقد اكتأبت، فلو نجح المشروع الذي رسمه سلفر الذي مثل دوره جيداً مع الفريقين، فهو لا بد منفذه بلا تردد، فقد كان محتفظاً بعلائقه مع الطرفين، وهو لا بد مفضل المال والحرية مع القرصنة، على نجاته من الشنق وهي أكثر مما يرجوه، إذا هو انضم إلينا.

وحتى لو أنه قُدر واضطر للانضمام إلى جهة الدكتور ليفزي، فما أشد الخطر الذي يصبح فيه كلانا! وما أفظع تلك اللحظة، ساعة ينقلب رفاقه ضدنا فنضطر بالضرورة لأن نقف كلانا منفردين للدفاع عن حياتنا العزيزة، وأن هو إلا رجل ذو ساق واحدة، وما أنا إلا صبي صغير، أما أعداؤنا فخمسة من أقوياء البحارة.

أضف إلى هذا الخوف المزدوج، تصرف جماعتي المبهم، من تركهم الدريئة، الذي أعياني إدراك سببه، وتنازلهم عن الرسم، بالإضافة إلى ما كان من إنذار الدكتور الغامض لسلفر إذ قال: «إنكم ستلاقون الهلاك قبل العثور عليه»، ولك أن تدرك كيف أنني لم أجد للفطور لذة، سيما وقد كنت على أهبة الذهاب مع سجاني في ذهابهم للبحث عن الكنز.

وكان منظرنا غريباً لمن يرانا في ذلك الحين، فكانت جميع ملابسنا ملابس بحارة قذرة، وهم جميعاً، إلا أنا بالضرورة، مدججون

بالسلاح، فكان سلفر معه بندقيتين إحداهما أمامه والأخرى وراء ظهره، بالإضافة إلى السكين الكبيرة التي كانت معلقة في وسطه، ومسدس في كل جيب من جيوب معطفه الكبير المربع الذيل، أضف إلى هذا رؤية كابتن فلنت واقفاً على كتف سلفر وهو يردد ألفاظاً بحرية من دون مضمون، وقد شد حبلاً إلى وسطي فجعلت أتبع طاهي البحر مطيعاً وكان يقبض على الطرف الآخر من الحبل مرة بيده ومرة بأسنانه الحادة فكنت بذلك مسحوباً كالدب الذي يرقص.

وأما الرجال الآخرون فكانوا يحملون أشياء مختلفة، فبعضهم كان يحمل معاول وجواريف وكانت هذه أول الضروريات التي أنزلوها معهم إلى البحر من الهسبنيولا؛ وبعضهم كان يحمل لحم خنزير وخبزاً وبرانديا لأجل الغداء، وكانت كل المؤن مما خزناه، وقد أخذت ألاحظ تحقق ما ذهب إليه سلفر في حديثه مع رفاقه القراصنة بالأمس، فلو أنه لم يتساوم مع الدكتور لعاش وأصحابه على الماء والخبز، وعلى ما عساهم يتصيدونه بعد تركهم السفينة، أما الماء فلم يكن بالغذاء الشهي عندهم، والبحارة لا يحسنون الصيد عادة، أضف إلى هذا أنه إذا قلّت مؤونتهم من الطعام، فمن المرجح أن يتلاشى ما لديهم من البارود.

هذا وبعد أن أخذنا أهبتنا على ما ذكرت، ذهبنا جميعاً، وبرفقتنا الرجل المهشم الرأس، وكان ينبغي له أن يلوذ بالظل، وسرنا حتى وصلنا الشاطئ حيث كان القاربان في انتظارنا، وقد ظهرت على القاربين نتائج سكر البحارة، فكان أحدهما مهشم العارضة، وقد امتلأ

كلاهما بالأوحال بعد أن جف عنهما أثر الماء، وكان ينبغي لنا أن نأخذهما طمعاً في النجاة، فوزعنا الرجال عليهم واتجهنا إلى قلب الميناء.

وبينما كنا نجذف دارت المناقشة حول الرسم، حيث إن الصليب الذي بالمداد الأحمر كان كبيراً جداً لدرجة يصبح معها عديم الفائدة، أما الألفاظ التي في ظاهر المذكرة فقد كانت مضللة، كما يتذكر القارئ بيانها.

شجرة طويلة، كتف المناظر، الاتجاه الشمالي للجهة الشمالية الشرقية.

جزيرة الهيكل العظمي شرقي الجنوب الشرقي في الجهة الشرقية.

عشرة أقدام.

فكانت الشجرة الطويلة هي العلامة المهمة، وكانت الميناء أمامنا محدودة بهضبة يبلغ ارتفاعها من 200 إلى 300 قدم، تتصل من جهة الشمال بكتف المنظار المتدرج الانحدار من الجهة الجنوبية، ثم يرتفع ثانياً من الجهة الجنوبية حتى يكوّن قمة التل العالية المسماة سارية المظين Mizzen Mast وقد نبتت فوق الهضبة أشجار كثيفة من الصنوبر مختلفة الطول، وكان يتخلل هذه الأشجار أشجار أخرى من فصائل مختلفة تزيد في الطول عما جاورها بنحو الأربعين أو الخمسين قدماً، فأيّ هذه كان يقصد الربان فلنت بقوله: «الشجرة الطويلة» وهذا لا يمكن تعيينه بالضرورة إلا في نفس النقطة بالبوصلة.

وعلى هذا الحال كان كل رجل من الذين فوق القاربين قد اتخذ لنفسه رفيقاً قبل أن نصل إلى منتصف الطريق، وأما جون الطويل فكان يهز كتفيه وحده ويأمرهم بالانتظار حتى يصلوا إلى هناك.

وكنا نجذف على مهل حسب أمر سلفر حتى لا يرهقنا العناء قبل الأوان، وبعد أن قطعنا مسافة طويلة، رسونا عند مصب النهر الثاني – الذي يجري بين منحدر مملوء بالأشجار متصل بالمنظار ثم انعطفنا إلى يسارنا، وابتدأنا نصعد الميل المؤدي إلى الهضبة.

وقد عاق سيرنا في أول الطريق ليونة الأرض ذات المستنقعات النابتة فيها الأعشاب ثم صار التل يرتفع تدريجياً، حتى أصبحت الأرض صخرية تحت أقدامنا وتغير منظر الغابات وشكلها فصار متسعاً أمامنا فكان الجزء الذي بلغناه من أجمل بقاع الجزيرة، حيث تبدل الحشيش بأغصان أشجار ذات عرف فيَّاح، وأعشاب مزهرة يانعة، وكانت آجام من أشجار جوزة الطيب الخضراء، وخطوط من أشجار الصنوبر الحمراء ذات الظل الوارف منتشرة هنا وهناك، وكانت رائحة أثمار الأشجار تمتزج برائحة زهر الثانية والهواء بذلك كان منعشاً كثير الحركة.

وقد انتشرت الجماعة على شكل مروحة وهم يصرخون ويطفرون في كل مكان وناحية، وقد تبعهم على مسافة بعيدة منهم سلفر وإياي – وهو يسحبني بحبل، وقد جعل يحرث الأرض بعكازة، وهو يجاهد في سيرة فوق مزلج شديد الانزلاق، ولولا مساعدتي إياه من آن إلى آخر لزلت به القدم وسقط إلى الخلف في انحدار التل.

وما قطعنا نصف ميل وأشرفنا على الوصول إلى جهة الهضبة، حتى صاح رجل بصوت مرتفع كمن مسه سوء، وكان مصدره من أقصى موضع على يسارنا، وقد جعل صراخه يقرع أسماعنا باستمرار، فأسرع الباقون نحوه وهم يركضون.

فقال مورغان الهرم وهو ماض في عدوه: «لا يمكن أن يكون قد وجد الكنز، فإن هذا على القمة تماماً» وقد تحققنا صحة قوله لما وصلنا المكان.

وكان الرجل قد عثر بهيكل عظمي لإنسان، وبعض آثار من الملابس البالية، ملقاة على أديم الأرض عند جذع شجرة صنوبر ضخمة، وكانت بعض النباتات المتسلقة قد اختلطت بالهيكل، ورفعت بعض العظام الصغيرة، ولا ريب عندي في أن قشعريرة سرت إلى سائر قلوبنا من هول المشهد.

فقال جورج مري وهو أكثر الجميع إقداماً، وكان قد ذهب بالقرب منه وجعل يمتحن الملابس البالية: «إنه كان بحاراً، وعلى أي حال فإن هذا قماش بحارة جيد النوع».

وأعقب سلفر: «إن قولك لشبيه بالحق تماماً ، لعلك لا تنتظر أن تجد هنا مطراناً على ما أعتقد، ولكن كيف وجدتم حاله ووضع العظام فهل كان طبيعياً؟».

وبالفعل فإنك لا تكاد تلقي نظرة أخرى على حاله ووضع الجثة حتى تتحقق بأنه ليس بعادي، ولولا بعض تغيرات موضوعية حوله (نتيجة انقضاض الطيور التي كانت تأكل من لحمه أو من جراء نسج

النباتات المتسلقة) فكان الرجل مطروحاً وممدداً على طول قامته وقد اتجهت قدماه إلى جهة، وارتفعت يداه فوق رأسه كالغواص، وهما يتجهان في الجهة المقابلة لاتجاه قدميه تماماً.

ثم قال سلفر: «إني لن أهتم لهذا الغبي، فهذا بيت الإبرة، وها هي قمة جزيرة الهيكل العظمي بارزة كالسن، وما عليكم إلا أن تمدوا خطاً يمر بطول هذه العظام».

ولما أخذوا بأوامره، ووجدوا أن الجسم كان يتجه نحو الجزيرة تماماً، وكان اتجاه الإبرة إلى جنوب الجنوب الشرقي بانحراف إلى الشرق؛ فصاح الطاهي قائلاً:

«هذا ما فكرت، فإن هذا هو المؤشر، وفوقه تماماً تجدون النجمة القطبية والنقود اللطيفة وأيضاً الكنز ولكن يا الله! فإن قلبي ليثلج عندما أذكر فلنت فإن هذا الشيء من مداعبته بلا شك، وإني مراهن بحياتي أنه كان هنا ووحده مع هؤلاء الستة، ثم قتلهم جميعاً، وسحب جثة هذا الرجل إلى هنا ووضعه بإحكام وعيَّن اتجاهه بالبوصلة، فإن صاحب هذه العظام الطويلة، وذلك الشعر الأصفر، لا بد أن يكون الأرديس Allardyce فهل تذكر الأرديس يا توم مورغان؟».

فأجاب مورغان: «نعم، نعم إني لأذكره، فإنه مدين لي ببعض النقود بكل تأكيد وقد أخذ معه سكينتي عندما نزل إلى الشاطئ».

وقال آخر: «وبمناسبة ذكر السكاكين فلماذا لم تجد سكينة بجواره؟ فما كان فلنت بالرجل الذي يأخذ الأسلاب من جيوب البحارة، ولا أحسب الطيور إلا تاركة إياها».

فصاح سلفر: «بالتفويض، إن هذا لحقيقي».

ثم قال مري وهو يبحث بين العظام: «إني لا أرى شيئاً بقي حتى ولو قطعة من العملة النحاسية ولا علبة دخان، وإن هذا غير عادي ولا مستحسن كما تقول، فورب السماء يا إخوان لو أن فلنت لا يزال حياً لأرانا يوماً عبوساً مخيفاً، شره سيكون مستطيراً، فقد كان البحارة الذين فتك بهم ستة، بيد أنه أصارهم رفاتاً سحيقاً وصعيداً جرُزاً».

فقال مورغان: «إني رأيته ميتاً بعيني هاتين، فإن بلي بونز أدخلني عليه، فكان راقداً وفي عينيه قطع من النبات».

ثم قال الرجل الذي كان رابطاً رأسه: «إنه قد مات بلا شك ودُفن ولكن إذا كان في استطاعة الأرواح أن تسير فإن روح فلنت أول من تفعل هذا، يا لهفي إن فلنت قد مات ميتة رديئة! ».

فصاح آخر: «لقد كان فلنت ساعة موته يصيح تارة في شدة من الغضب، وكان طوراً يزمجر طالباً الروم، وساعة كان يغني أغنية (الخمسة عشر رجلاً) وكانت هذه أغنيته الوحيدة التي لا يترنم بغيرها يا إخوان، وإني مُصدقكم القول بأني أمسيتُ كارهاً لسماع تلك الأغنية منذ ذلك العهد، فقد كان الحر شديداً ساعتئذ، وكانت النافذة مفتوحة، فكانت ألفاظها تطن واضحة في مسمعي، مع أن فلنت كان يعالج سكرات الموت».

ثم قال سلفر: «هلموا، هلموا ودعوا عنكم هذا الحديث فقد مات فلنت ولا ظنة عندي اليوم في أنه يستطيع المشي وهذا ما أعرفه جيداً،

وعلى الأقل فهو لا يمشي في النهار وتأكدوا بأن القطة تموت من كثرة التفكير مع طول عمرها فأولى لكم أن تبحثوا عن الدبلون – عملة إسبانية –».

وبدأنا في البحث بكل همة، رغم حرارة الشمس وشدة ضوء النهار وصار القراصنة لا يسيرون منفردين في الغابة، بل مجتمعين، وكانوا لا يتكلمون إلا همساً، فقد أزعجهم الوهن وأقلق راحتهم الوجل من القرصان الميت.

الفصل الثاني والثلاثون

التفتيش عن الكنز
- الصوت المنبعث من بين الأشجار -

حينما وصلت المجموعة قمة المرتفع جلسوا جميعاً على الأرض لفرط ما أصابهم من الهول ولكي يستريح سلفر والضعاف منهم من مشقة السير.

وكانت الهضبة ذات ميل وانخفاض من جهة الغرب، وكان في استطاعتنا أن نرى متسعاً كبيراً من خلال المكان الذي وقفنا فيه، فكنا نرى أمامنا من خلال قمم الأشجار «رأس الغابات» وتحته الأمواج من جميع الجهات وكنا لا نرى خلفنا الميناء وجزيرة الهيكل العظمي فقط بل كنا نرى أيضاً بكل وضوح – اللسان والأرض المنخفضة التي من الجهة الشرقية – ومتسعاً عظيماً من البحر من جهة الشرق، وكنا نرى المنظار مرتفعاً عالياً فوقنا تماماً، ثم إنك ترى بعض أشجار الصنوبر النابتة في تلك الناحية، ومن الجهة الأخرى كنت ترى سواد الأرض ذات المنحدرات السحيقة، وما كنت تسمع سوى هدير الأمواج وصوت ارتطامها على الشاطئ، هي تظهر عالية في جميع أنحاء الجزيرة، وصوت الحشرات التي لا حصر لها بين الأعشاب، وما كنت ترى إنساناً ولا سفينة فوق سطح اليم، ولقد زاد اتساع المنظر المنبسط

أمامنا من أثر الوحشة في نفوسنا. وقد استند سلفر لبعض قراءات البوصلة للجهات أثناء جلوسه وقال: «إني أرى ثلاث شجرات طوال على خط مستقيم من جزيرة الهيكل العظمي وإني لا أظن أن المقصود بلفظة كتف المنظار هو تلك النقطة السفلى التي هناك، وحينئذ فقد صار العثور بالكنز في غاية السهولة، حتى على الطفل، والآن لنتناول الغداء أولاً».

ففهم مورغان وقال: «لست على رأيك في ذلك، إن التفكير في حالة فلنت أزعجتني».

فقال سلفر: «آه حسن، إني أشكر حسن طالعك يا بني فإن فلنت قد مات».

وقال قرصان ثالث وهو يهز كتفه: «كان عفريتاً قبيح المنظر، أزرق اللون».

ثم أضاف ميري قائلاً: «وهذا يبين كيف أهلكه شرب الروم، أزرق! هذا صحيح فإنه كان أزرق».

وقد جعلوا يخفضون من أصواتهم تدريجياً مذ شهدوا الهيكل العظمي وأخذ منهم الفكر كل مأخذ، حتى أمسوا لا يتكلمون إلا همساً، فكان صوت حديثهم يؤثر على سكون الغابات، وأنا لكذلك إذ نزل بسمعنا على حين غرة صوت رفيع عالي متهدج رفع صاحبه عقيرته مغنياً تلك الأغنية المعروفة بنغمتها المتداولة:

«خمسة عشر رجلاً على صدر الميت.

يو هو هو وزجاجة روم!».

ولم أرَ في حياتي قوماً أصابهم الخوف والفزع أكثر من هؤلاء

القراصنة في تلك اللحظة، فقد هرب الدم من وجوههم بسرعة السحر، وقفز بعضهم على قدميه، وأمسك بعضهم البعض بقوة، وأما مورغان فخر طريحاً على الأرض.

فصاح ميري: «فلنت قد مات».

ثم وقف الغناء فجأة كما بدأ وقد قُطع في وسط النغمة كما ولو كان قد وضع أحد يده فوق فم المغني وكتمه، وبينما كنت آتياً من بعيد بين الجو المُشمس متخللاً قمم الأشجار الخضراء، ظننت أن الصوت كان لطيفاً جميلاً بينما كان تأثيره على رفاقي أشد غرابة.

ثم قال سلفر وهو يعالج شفتيه الصلبتين للكلام: «إن هذا لا يُرضي، استعدوا للمسير، إن هذا ابتداء تأثير شرب الروم، وإنه لا يمكنني تسمية هذا الشخص الذي يغني، إلا أنه إنسان يريد أن يرفع صوته بالتدريج – وهو شخص له لحم ودم بلا نزاع».

وقد عاودته شجاعته عندما تكلم، وكذلك ارتد إليه دم وجهه، ثم ثاب الباقون إلى رشدهم قليلاً وأنصتوا إلى تشجيعه وإذ بذلك الصوت قد صاح ثانية – ولم يكن غناء في هذه المرة بل كان ينادي على بعد بصوت خافض، كان له صدى أقل ضآلة رددته صخور وشقوق المنظار.

كان الصوت ينادي داربي ماغراو Darby Magrau هذه هي الألفاظ التي تضعف الصوت – داربي ماغراو! وكان هذا يتكرر مراراً عديدة، ثم يرتفع قليلاً ثم يقسم قسماً لم أذكره ويقول: «احذر الروم يا داربي».

فوقف القراصنة كأنهم قد ثبتوا في أديم الثرى، وكادت عيونهم

تطير من رؤوسهم، وقد ظلوا يحدقون إلى الأمام بعد أن مضى مدة على سماعهم للصوت، وقد علتهم علائم الوجل والاضطراب.

ثم صاح قائلاً: «إن في هذا لدليلاً واضحاً على ما ذهبنا إليه، فهلموا بالرحيل».

فناح مورغان قائلاً: «أجل لقد كانت هذه آخر كلمات فلنت فوق ظهر السفينة».

وكان ديك قد أخرج الإنجيل وصار يصلي وهو يتعوذ مسرعاً بصوت غير فصيح وكان الفتى قد تربى تربية حسنة لو لم يتخذ البحر مهنة ويقع بين رفاق سوء كهؤلاء.

ولم تكن بوادر الهزيمة قد ظهرت على سلفر حتى الساعة، بيد أني كنت أسمع أسنانه تصطك في رأسه، إلا أنه لم يكن قد سلم بعد.

وقال بصوت منخفض: «ليس في هذه الجزيرة أحد قد سمع أبداً بداربي ليس أحد من زملاء البحر موجوداً سوانا».

ثم صاح قائلاً: «يا رفاقي، إني أتيت للبحث عن الكنز وليس ليهزمني إنسان أو عفريت، إني لم أكن أخشى فلنت في حياته، وبالله القوي لأواجهنه ميتاً، إن هنا لسبعمئة ألف جنيهاً، على مسافة لا تتجاوز ربع ميل من هذا المكان، فمتى كان الرجل المحترم منا ليولي ظهره ولو إلى مقدار من الدولارات كهذا خوفاً من بحار هرم، أزرق الوجه – عدا عن كونه ميتاً أيضاً؟».

ولكن لم تبد علامة الارتياح على أتباعه، وبالعكس كان خوفهم ينمو ويزداد مع ألفاظه التي ما كانت لتدل على الاحترام للأرواح.

وقد ملأ الخوف قلوب الباقين حتى منعهم عن الجواب، فلو أنهم

تجاسروا على الهرب أفراداً لفعلوا، إلا أن الخوف جعلهم يظلون مجتمعين وهم أشد ما يكونوا ملاصقة لجون، كما لو كانوا يحتمون بجرأته، أما هو فقد أحسن مجالدة ضعفه حتى حظي بالنصر عليه.

فقال: «أروح هي؟ قد يكون الأمر كذلك، بيد أنني لا أعرف إلا أمراً واحداً وهو وجود صدى للصوت، ولا يعرف أحد رجلاً رأى روحاً ذات ظل، أما وقد كان الأمر كذلك، فما معنى وجود صدى لصوته؟ هذا ما أريد أن أعرفه، وإني لواثق كل الثقة من أن الأمر ليس بطبعي بلا نزاع».

ولقد كانت حجته هذه واهية جداً في نظري، إلا أنك لا تستطيع أن تعرف ما يؤثر في الذين يعتقدون في الخرافات، وقد عجبت كثيراً عندما رأيت أن هذا قد هوّن على جورج مري.

فقال: «حسن، إن الأمر لكذلك، فإن لك لرأساً فوق كتفيك يا جون، ولا شك في ذلك يا رفاق! وإن هؤلاء القوم لمضللون على ما أعتقد وإذا فكرنا فإن الصوت يشبه صوت فلنت، وهذا ما أنا مسلم به، بيد أنه لم يبلغ في وضوحه صوت فلنت، وبعد، إنه يشبه صوت شخص آخر – أشبه بصوت شخص آخر».

ثم صاح سلفر قائلاً: «بقوة الرب إنه بن جن!».

فقال مورغان وهو ينتصب على ركبتيه: «أجل إن قولك لشبيه بالحق، فهو لا بد أن يكون بن جن».

ثم اعترض ديك قائلاً: «لا يغلظن عليكم حديثي فإني أقول بأن بن جن وفلنت ليسا موجدين هنا بجسميهما».

ولكن البحارة الكبار السن قابلوا ملاحظته بازدراء.

فصاح مري: «لماذا، فما كان أحدنا ليهمه بن جن سواء كان حياً أو ميتاً».

فأدركني العجب لما رأيته من رجوع الشجاعة إلى قلوبهم وعودة دم الحياة إلى الانتشار على وجوههم، فسرعان ما صاروا يتحدثون مع بعض من غير أن يصمتوا إلا أثناء إصغائهم للكلام، وبعد هذا بقليل لم يسمعوا صوتاً بعد ذلك، حملوا أدواتهم على أكتافهم واستأنفوا المسير ثانية، فكان مري سائراً أمامهم ومعه بوصلة سلفر حتى يجعلهم يسرون في خط مستقيم من جزيرة الهيكل العظمي ، وقد صدق في قوله بأن لا أحد يهتم ببن جن حياً أكان أو ميتاً.

وكان ديك وحده قابضاً على الإنجيل بيده، وكان ينظر حوله كلما مشى نظرات الخائف، إلا أنه لم ير مشجعاً له على ذلك وكان سلفر نفسه يسخر منه لشدة احتراسه.

وقال له: «لقد أخبرتك أنك قد أتلفت إنجيلك، أما وقد صار غير صالح للحلف عليه، أفتظن بعد ذلك إن الأرواح تخشاه؟ لا إنها لا تخشاه» ثم قضم أصبعه الكبير وهو واقف لحظة مستنداً إلى عكازه.

ولكن ديك ما كان ليذهب عنه الكدر، وبالفعل ظهر لي أن الفتى على وشك الوقوع في المرض، وقد عجل شدة الحر وكثرة التعب، وتأثير الخوف من سريان الحمى التي أخبر بها الدكتور ليفزي، فصارت تزداد بسرعة مدهشة.

وكان المسيح فوق هذه القمة في غاية الجمال، وكان طريقنا تحت قمة التل بقليل، لأن الهضبة كانت تنحدر انحداراً متدرجاً من

الجهة الغربية، وكانت أشجار الصنوبر صغيرها وكبيرها ثابتة على مسافات بعيدة، وكانت هنالك مسافة طويلة تمتد من بين أشجار جوزة الطيب الملتفة الكثيفة، إلى أشجار الزعرور تشتد حرارة الشمس فيها، وبينما كنا نسير مقتربين إلى الجهة الشمالية الغربية من الجزيرة: كنا نقترب من جهة إلى كتف المنظار ومن الجهة الأخرى كنا نطل على الخليج الغربي الذي كنت أتخبط فيه بالقرقل.

ثم وصلنا إلى أول الأشجار العالية فظهر لنا خطأً الموضع، وهكذا كان الأمر مع الثانية والثالثة حيث كانت مرتفعة نحو مئتي قدم فوق ما جاورها من الأعشاب الكثيفة التي تنبت تحت أشجار الغابات، وكانت ثمة دوحة عالية جداً ذات لون أحمر في حجم البيت، وهي وارفة الظل حتى إنها لتظلل تحتها نحو المئة من الجند في مناورتهم، وكانت ظاهرة للعيان من ناحية البحر من الجهتين الشرقية والغربية، حتى كان يحسن أن تستعمل علامة للملاحة على الرسم البياني.

وما كانت ضخامتها لتهم زملائي في شيء، بقدر ما كان يهمهم يقينهم بوجود سبعمئة ألف جنيهاً مدفونة في موضع تحت ظلها، فكانوا كلما زادوا اقتراباً زادوا شجاعة وزال عنهم أثر الخوف والاضطراب الماضيين فكانت أعينهم تتقد في رؤوسهم، وأرجلهم تزداد سرعة وخفة، فكانت كل أرواحهم متعلقة بهذا المال، حيث كانوا يُمّنون أنفسهم بأن يعيشوا ما بقي من عمرهم في الترف والإسراف والسرور.

وكان سلفر يطفر فوق عكازه وهو يدمدم، وأنفه بارز مرتعش، وكان يسب ويلعن كالمجنون عندما تأتي ذبابة على وجهه الحار البراق، وكان يشد بغضب الحبل الذي كنت مربوطاً في طرفه، وينظر

إليّ شذرا من وقت لآخر نظرات ملؤها الغضب؛ ولا ريب في أنه لم يشأ أن يخفي ما يكنه ضميره من الأفكار التي كانت تجول في رأسه، وكنت أقرأ هذه الأفكار بكل وضوح كأنها خط بارز، وكأنما قد أنساهم اقترابهم من الذهب كل شيء، فزال من فكر سلفر كل ما كان من وعده للدكتور، وما كان من تحذير الطبيب له، وأصبح كل ذلك من الأشياء الماضية؛ وكنت لا أشك في أنه يأمل في العثور على كنز والبحث عن الهسبنيولا وركوبها في جناح الليل، بعد أن يذبح كل الأحياء في هذه الجزيرة ثم يقلعون بها كما قصدوا في البدء وهي مشحونة بالجرائم والغنى.

ونظراً لما حل بي من تأثير هذه المخاوف فقد كان من الصعب عليّ المثابرة على مجاراة الباحثين عن الكنز في سرعة سيرهم فكنت أتعثر بين آونة وأخرى، فكان سلفر يجذب الحبل إليه بقوة وخشونة، ويصوب إلّي نظراته القاتلة، وكان ديك الذي تخلف وراءنا وصار الآن في المؤخرة مستمراً في قراءة الصلاة بينما كانت درجة حرارة جسمه في ازدياد، وكان هذا مما يزيد في تعاستي، والذي زاد اضطرابي ما جال في فكري من سماعي للقصة المحزنة التي تُوليت فوق الهضبة حيث قتل ذلك القرصان الشرير ذو الوجه الأزرق فلنت – الذي مات في البطحاء(*) وهو يغني ويصيح طالباً الخمر – ستة رجال من رفاقه بيده، ولا بد أن هذا التل الهادئ قد ردد صيحاتهم الهائلة.

وكنت كلما تصورت هذه الفظائع، يخيل إليّ بأني لا أزال أسمع صوتهم يرن في أذني؛ وكنا قد صرنا الآن عند حافة الغابة.

---

* البطحاء: Savannah أرض جرداء بغير زرع وخاصة في فلوريدا. /المترجم/.

فصاح مري قائلاً: «هلموا يا رفاقي جميعاً» فجرى أسبقهم إليه.

وما ركضوا خطوات عشر، حتى وقفوا فجأة، ثم سمعنا صوتاً خافتاً وكان سلفر قد ضاعف سرعته وصار يحفر الأرض بطرف عكازه الأسفل كمن به مس من الجنون وفي اللحظة الثانية كان كلانا قد جمدنا في موضعنا بلا حراك.

فشهدنا أمامنا حفرة كبيرة، ليست بحديثة العهد جداً، حيث كانت بعض جوانبها قد انهارت شيئاً وقد نبتت في خربها بعض الحشائش، وقد ألفينا فيها مقبض معول كُسر شطرين، وانتشرت على جوانبها ألواح بعض صناديق البضائع، وقد رأيت إحداها موسوماً بحديد محمى، وقرأت عليه كلمة ولرس وكان هذا اسم سفينة فلنت.

والأمر واضح جلي، فقد احتفر الكنز محتفر وذهبت السبعمئة ألفاً من الجنيهات.

الفصل الثالث والثلاثون

سقوط زعيم

لم يكن ثمة رد فعل أشر من هذا في الوجود، فكأنما أصيب كل من هؤلاء الرجال الستة بصدمة قاتلة. بيد أن وقعها على سلفر ما لبث أن زال عنه في أقرب وقت، فكانت كل حواسه مضطربة على النقود، كأنه أحد المتبارين في السباق، ومع أنه سكن لحظة سكون الموتى، بيد أنه احتفظ بعقله، وتمالك وجدانه، وبدل خطته قبل أن يفطن الباقون إلى فشلهم.

فهمس في أذني: «خذ هذه يا جيم ولتساعدني عند الحاجة».

ثم أمر لي بمسدس مزدوج الأنبوب.

وفي الوقت نفسه جعل يتحرك بهدوء إلى جهة الشمال، وما إن خطا بعض خطوات حتى كانت الحفرة تتوسط بيننا وبين الخمسة الأخرين. ثم نظر إليّ وهز رأسه كأنما يقول: «إنا لفي موقف خطر يا بني». ولا شك عندي في أن الموقف كان أشد ما يكون خطورة؛ وكانت نظراته إليّ مملوءة عطفاً ومودة فأدركني لهذا التقلب الدائم نفور واشمئزاز لم أتمالك معهما من أن أهمس في أذنه قائلاً: «إذاً فأنت قد عدت إلى تغيير خطتك».

ولم يكن له من الوقت متسع للإجابة، فقد اندفع القراصنة صائحين مهددين وانحدروا إلى الفجوة متتابعين وجعلوا يحتفرون الثرى

بأصابعهم، وأخذوا يوسعون دائرتهم وهم يفعلون ذلك فعثر مورغان على قطعة من الذهب ورفعها بين أنامله، وانفجر مرجل غضبه، فأنشأ يقذف اللعنات والأقسام، فخرجت كالميزاب من فيه، وكانت تلك القطعة من ذات الجنيهين الذهبيين، فتلقفتها الأيدي مسرعة، وما هي إلا ربع دقيقة حتى كانوا جميعاً قد فرغوا من تقليبها.

ثم أمسك مري بالقطعة وجعل يهزها أمام وجه سلفر وهو يقول: «هل هذه القطعة هي السبعمئة ألف جنيهاً التي عللتنا بها؟ إنك لرجل خائن وقد مالأت أعداءنا علينا، ثم بعد ذلك تملأ ماضيك متبجحاً لأنك لا تخطئ في صغيرة ولا كبيرة، أيها الغبي الحمق!».

فأجاب سلفر بمنتهى السلاطة وقوة اللسان: «ألا امضوا في تنقيبكم يا صبية، فما أنا بمستبعد عليكم أن تظفروا إلا ببعض جذوع نباتات درنية».

فصاح به مري: «أن تقول يظفرون ببعض جذوع النباتات؟ هل سمعتم ما يقول يا إخوان؟ إلا أنني مؤكِد لكم بأن هذا الرجل سلفر إنما يعرف بكل ما كان من شأن الكنز، وما عليكم إلا التحديق بسحنته حتى تشهدوا الخيانة مكتوبة على جبهته بحروف بارزة».

فعاد سلفر إلى استئناف مركزه كقبطان فصاح بالرجل وهو يقول: «إلا أنك لفتى محرض يا مري».

بيد أن جميعهم كانوا في هذه المرة إلى جانب مري فأخذوا في التسلق صاعدين من الحفرة، وجعلوا ينظرون خلفهم نظرات سوداء من الغضب والحقد.

ولقد لاحظت أمراً واحداً أحسبه كان من حظنا، وذلك أن سائرهم وقف في الجهة المواجهة لسلفر.

وعلى ذلك وقف كلانا في جانب ووقف خمستهم في الجانب الآخر تفصلنا الحفرة، ولم يكن ثمة بينهم من يدفعه فرط هياجه لأن يبدأ بالضربة الأولى. أما سلفر فما كان ليتحرك، فقد جعل يراقبهم وهو مستقيم على عكازه، وقد ظهرت عليه منتهى علامات اللامبالاة. فيا له من موقف! ويا لها من شجاعة!

وأخيراً خُيل لمري أن يستفز أصحابه بخطاب.

فصاح بهم قائلاً: «أيها الإخوان، أمامكم اثنان منفردان، أحدهما ذلك المقعد العاطل الذي اقتادنا إلى هنا، والذي نزل بنا مزيد حمقه، وفرط حزقه إلى هذا الدرك. والآخر ذلك الجرو الذي وددت لو أنني انتزعت بيدي قلبه من صدره، فالآن يا إخوان».

قال ذلك وهو يرفع ذراعه، ويُعلي من نغمة صوته، وكان من الجلي أنه قصد أن يستهل الهجوم بنفسه، ولكن في هذه اللحظة الرهيبة الهائلة، اخترقت الأجمة ثلاث طلقات نارية فخر مري على رأسه في الحفرة، وجعل الرجل المربوط الرأس يدور كالدوامة ثم سقط على جنبه بعد أن تلوى قليلاً، بينما انثنى الثلاثة الباقون وولوا الأدبار لائذين بالفرار.

وفي أسرع من ارتداد الطرف، كان جون قد أطلق طلقتين من مسدسه على جثة مري وهو يحتضر، وبينما كان الرجل يقلب عينيه في سلفر وهو في آخر لحظاته، إذ صاح به سلفر وهو يقول : «أشهد أني قتلتك يا جورج».

وفي اللحظة نفسها كان الدكتور وغراي وبن جن قد وافونا من بين أشجار جوزة الطيب، وكان الدخان لا يزال ينبعث من غداراتهم.

فصاح بنا الدكتور قائلاً: «إلى الأمام! فلا بد لنا من مضاعفة السرعة يا صبية حتى لا نمكنهم من القوارب».

ثم أوسعنا الخطى وكنا نخوض في بعض الأحراج حتى الصدر.

بيد أنني مُخبرك بأن سلفر كان أشد ما يكون حرصاً على السير بجانبنا، وقد كان المجهود الذي بذله في سبيل مباراتنا، من الفظاعة بمكان يتعذر معه على أي رجل سليم الجسم أن يجاريه فيه، وذلك ما رآه الطبيب أيضاً، لأن عضلات صدره كانت على وشك التمزق. فلما أصبح منا على مسافة ثلاثين ياردة، وقد أوشك على السقوط مجندلاً، كنا قد أشرفنا على حافة المنحدر، فصاح بنا قائلاً: «لا ضرورة بعد للإسراع! انظر هناك يا دكتور».

ولا ريب في أنه لم يكن ثمة من حاجة للعجلة، فقد كان الثلاثة الباقون لا يزالون مستمرين في عدوهم في نفس الاتجاه الذي ولوا وجوههم شطره ساعة بدأوا بالفرار، وكان ذلك مقابل «مزن ماست» وكنا قد توسطنا السبيل بينه وبين القوارب، وعلى ذلك فقد جلس أربعتنا على الأرض لنستريح من السير، بينما جعل جون يتقدم نحونا متباطئاً وهو يمسح وجهه.

وقال: «أشكر لك عطفك يا دكتور فلقد وافيتنا في الوقت المناسب لإنقاذ هوكنز وإياي»، ثم أردف بقوله: «وهذا أنت يا بن جن، مرحى، مرحى، إنك لشخص ظريف بلا ريب».

فأجابه جن بقوله: «نعم أنا هو بن جن» وجعل يتلوى تلوي الحية الرقطاء، ويضطرب اضطراب السمكة حيل بينها وبين الماء، لفرط حيرته، وعظيم ارتباكه. ثم أردف بعد صمت طويل بقوله: «وكيف حال السيد سلفر؟».

ثم طلب الدكتور من غراي أحد المعاول التي خلفها الثائرون في أدبارهم، وأخذنا في المسير متئدين إلى المكان الذي فيه القوارب وأفضى إلينا الدكتور في بضع كلمات موجزة بمجمل ما حدث، فملكت حكايته على سلفر مشاعره، وقد كان بن جن الرجل المتروك الذي لا لب له، وهو بطل تلك الحكاية من أولها حتى آخرها.

وبيان ذلك أن بن جن قد وُفق في تجواله منفرداً على سطح الجزيرة لأن يهتدي إلى الهيكل العظمي، وهو الذي وجد الكنز واحتفره، وكانت يدُ معوله هي التي وجدناها في الحفرة، وقد نقل الذهب على ظهره في دفعات كثيرة، وحمله من جذع شجرة الصنوبر إلى كهف له على التل مزدوج القمة عند زاوية الجزيرة الشمالي الشرقي، وكان قد فرغ من عمله، واطمأن على الذهب قبل وصول الهسبنيولا بشهرين، بعد أن كلفه ذلك من التعب والجهد الشيء الكثير.

فلما نجح الدكتور في الظفر بانتزاع ذلك السر من صدره، وكان ذلك في أصيل اليوم الذي حدث فيه الهجوم ورأى في اليوم التالي بأن المرفأ قد هُجر، ذهب إلى سلفر فأعطاه الرسم البياني الذي أصبح بالطبع لا يساوي شيئاً، وقد أعطاه المؤونة أيضاً، اعتماداً منه على ما كان بن جن قد ملأ به كهفه من لحوم الماعز التي ملحها بنفسه،

وبالإجمال لم يترك الدكتور مرتخصاً ولا غال إلا بذله في سبيل الظفر بفرصة تمكنه من الانتقال من المنزل الخشبي إلى التل مزدوج القمة، حيث يصبح بمأمن من فتك الملاريا، ويتفرغ لحراسة العملة.

ثم أضاف الدكتور: «أما أنت يا جيم فقد كان ما عملته رغماً من أنفي، بيد أنني عملت ما ظننت فيه الخير لأولئك الذين وقفوا إلى جانب واجبهم، أما ولم تكن أنت بالضرورة أحد أولئك، فعلى من تقع تبعة التقصير إذاً؟».

فلما كان من صباح هذا اليوم، وقد أيقن الدكتور أني لا بد مورط في نتيجة ما عساه أن يسببه يأس القراصنة الفظيع الذي تسبب هو فيه، فأكون أنا هدفاً لسهام غيظهم وحنقهم؛ أخذ يعدو مسرعاً طول الطريق إلى الكهف، وترك السيد ترلوني لرعاية الكابتن، وأخذ غراي وبن جن وجعلوا يسيرون على قطر الجزيرة، ابتغاء الكمون خلف شجرة الصنوبر، حتى يمدوا إلينا يد المساعدة إذا مست الحاجة. بيد أنه ما لبث أن عرف بأن سلفر وجماعته لا بد سابقوه إلى موضع الكنز، ولما كان بن جن أسرع عدواً من غيره، فقد كلفه الدكتور ليتقدم ويؤدي ما عساه أن يستطيعه منفرداً، فخطر له الانتفاع بالخرافات التي يعتقدها معشر الملاحين من أصحابه، ولم يكن عمله بغير نتيجة، حيث أمكن الدكتور وغراي الوصول والاختفاء قبيل وصول القراصنة للبحث عن الكنز.

فقاطعه سلفر بقوله: «آه لقد كان من حسن حظي، وتوفيق جدي، أن معي هوكنز، فلولا وجوده معنا، لتركتم جون الهرم بين يدي

أعدائه يقطعونه إرباً، من غير أن تُعنوا بذلك مثقال ذرة، أليس كذلك يا دكتور؟».

فأجابه الدكتور متهللاً: «أي والله ما كان أمرك ليعنينا مثقال ذرة».

وكنا إذ ذاك قد وصلنا إلى القاربين، فحطم الدكتور أحدهما، ثم صعدنا جميعاً إلى القارب الثاني، وشخصنا للوصول إلى المرفأ الشمالي بطريق البحر.

وكانت المسافة نحو ثمانية أو تسعة أميال، وعلى الرغم من أن سلفر كان قد أضناه التعب، فقد أمسك بمجذاف كسائرنا، وللوقت كنا ننساب مسرعين على سطح بحر صقيل، وسُرعان ما تجاوزنا المضايق؛ وسرنا حول جانب الجزيرة الجنوبي الشرقي، حيث قطرنا الهسبنيولا منذ أربعة أيام.

وما أوشكنا على تجاوز التل مزدوج القمة حتى أمكننا أن نشهد فوهة كهف بن جن السوداء، وقد وقف عند مدخله شخص مستند إلى مسدسة، وكان ذلك الشخص السيد ترلوني فلوحنا منديلاً في الهواء، وهتفنا له ثلاثاً، وشاطرنا سلفر في هتافنا بكل حماس.

وقد شهدنا الهسبنيولا على مسافة ثلاثة أميال منا عند مرفأ المدخل الشمالي وهي تسير بنفسها، وكان الجزر الأخير قد اقتلعها من موضعها، ولو أن ريحاً شديدة عصفت بها، أو تيار مد وجزر عنيف أصابها، كما هو الحال في المرفأ الجنوبي، لما وُفقنا للعثور بها مرة أخرى، أو لوجدناها وقد شطت بمكان يتعذر معه علينا إنقاذُها.

ولم يكن قد مسها عظيم تلف، عدا ما كان من تحطيم شراعها الأكبر، وللوقت جهزنا مرساة أخرى، وألقينا بها عمق نحو عشرة أقدام من الماء، ثم رجعنا ثانية إلى كهف الروم وهو أقرب نقطة إلى المكان الذي أودعه بن جن الذهب ثم قفل غراي منفرداً إلى الهسبنيولا حيث أزمع أن يقضي المساء في حراستها.

وكان يصل من الساحل إلى مدخل الكهف طريق قليل الانحدار، فقابلنا في أعلاه السيد ترلوني، ولقد استقبلني متهللاً متعطفاً، ولم يذكر عن اختفائي شيئاً، سواء باللوم أو التقريع، أم على سبيل الإطراء والمديح، بيد أن الدم تصاعد إلى وجهه ساعة حيَّاه سلفر متأدباً.

وصاح به قائلاً: «أي جون سلفر، لأنك لأكبر ووغد دجال منافق، لقد طلبوا إليّ بألا أقتلك، وسوف لا أفعل بالضرورة، بيد أن أرواح الرجال الذين قتلتهم تتدلى من رقبتك كأحجار الرحى».

ثم عاد جون إلى تحيته وهو يقول: «شكراً لسيدي على عطفه».

فصاح به السيد قائلاً: «لست أصرح لك يا هذا بشكري، فإن ذلك ليَعُد إهمالاً مني فضيعاً لواجبي، ألا قف بعيداً».

وعلى ذلك دخلنا الكهف جميعاً، وقد كان موضعاً متسعاً، طلق الهواء، وفيه نبع صغير وحفرة ماء صافي. نبتت في النتوء خنشار، أما أرض الكهف فكانت رملية، وقد استلقى الكابتن سمولت إلى جوار نار كبيرة، وقد لمحت بصيصاً خافتاً من لمعان غير ظاهر التألق في ركن بعيد من الكهف، وشهدت أكواماً من الذهب، ومكعبات شيُدت

من قضبان الذهب، وكان هذا كنز فلنت الذي قطعنا المراحل، وأفنينا الرواحل، في سبيل الظفر به والذي كلفنا حتى الساعة 17 نفساً من رجال الهسبنيولا ولا يعلم إلا الله كم كلف العالم جمعُ هذه النقود، وكم من دماء أهرقت في سبيلها، وأحزان أورثت من أجلها، وسفن أغرقت في أعماق بسببها، وكم من رجل شجاع حكم عليه بالمسير على المرقاة مكفوف البصر مربوط اليدين في عرض البحر، فلم يلبث أن غدا للأسماك طعاماً، وكم من مدفع أطلق لاغتصابها من أصحابها، وكم من مخازي ارتكبت، وأكاذيب اختلقت، وفظائع مثلت لجمعها، ومع ذلك فقد تخلف ثلاثة على سطح الجزيرة ممن ضربوا بسهم في تلك الجرائم – سلفر ومورغان الهرم وبن جن – وقد أملوا عبثاً في الأخذ بنصيب من الغنيمة.

وهنا صاح بي الكابتن: «اقترب يا جيم، فقد قمت يا بني بواجبك خير قيام بيد أنني لا أحسب أني وإياك مسافران في البحر معاً بعد هذه المرة، فإن ما تحظى به من المحاباة والتدليل، لأكثر مما أطيق يا بني؛ وهل هذا أنت يا جون سلفر، ما الذي ساقك إلى هنا يا رجل؟».

فأجابه سلفر بقوله: «إنما جئت يا سيدي لاستأنف واجبي».

فلم يزد الكابتن في رده عن كلمة «آه!».

وما كان أطيب ذلك العشاء الذي تناولته تلك الليلة بين أصحابي، وما كان أشهى طعاماً تناولناه من ماعز بن جن المملحة، مع بعض الأطاييب، وزجاجة نبيذ عتيق من الهسبنيولا، ولست أحسب

أن السماء أظلت قبل اليوم قوماً هو أوفر منا سعادةً، أو أنعم بالاً. وقد جلس سلفر على كثب منا، وهو يكاد يكون بعيداً عن ضوء النار، بيد أنه كان يأكل بشهية زائدة، وقد أتم ما يكون استعداداً لأن يطفر من موضعه كلما احتاج منا أحد لشيء ما. حتى إنه كان يشاطرنا مرحنا بهدوء – وقد عاد فأصبح ذلك الرجل البحري الرصين الكثير الملق الذي لازمنا طوال الرحلة.

الفصل الرابع والثلاثون

النهاية

حين انبلج صباح اليوم التالي أقبلنا على عملنا مبكرين، حيث كان لا بد لنا من نقل هذا الكم الكبير من الذهب إلى الساحل، وقد كان منا على نحو ميل؛ ومن ثم نقطع به في البحر أميالاً ثلاثة حتى نودعه الهسبنيولا، ولا مشاحة في أن هذا العمل كان من المشقة بمكان على أفراد قلائل مثلنا. ولقد كان الحارس الفذ الذي أرصدناه على جانب التل، كافياً لتحذيرنا من أي خطر داهم، أضف إلى ذلك أننا ما توقعنا أن يعود الثلاثة الفارين لمناوءتنا، حيث كانت المعركة قد هدتهم فلم يبق لهم ثمة حاجة لمزيد.

وعلى ذلك فقد أقبلنا على عملنا بجد ونشاط، فكان غراي وبن جن يسيِّران القارب جيئتاً وذهاباً، بينما عملنا جميعاً بنقل الذهب أكواماً إلى الساحل أثناء الفترات التي كانا يتغيبانها. وكان الرجل القوي يحمل حمولته المؤلفة من حزمة بحبل رُبط به في طرفاه قضبان الذهب، حيث كان يسير متمهلاً بها. ولما كنت لا أستطيع أن أحمل شيئاً مذكوراً، فقد آثرت الانحباس في الكهف طول اليوم وجعلت أنسِّق النقود المسكوكة في حقائب الخبز.

وكان الذخر مكوناً من أخلاط متباينة من مختلف ضروب العملة، تكاد تحكي في اختلاطها ما وجدناه في صندوق القبطان بلي

بونز، بيد أنه يزيد عنه عِظَماً وتشكيلاً، حتى كان منتهى جذلي في تنظيم أنواعها المختلفة، فمن نقود إنكليزية وفرنسية، إلى إسبانيولية وبرتغالية، فجنيهات فرنسية وجنيهات برتغالية من ذات السبعة والعشرين شلناً، وجنيهات إيطالية من ذات التسعة شلنات وبعض الشلن وقد تباينت عصورها حتى كنت لا تكاد تعرف ملكاً تبوأ عرشاً في أوروبا منذ قرن مضى، ولا تجد له صورة على إحدى هذه النقود الذهبية، أضف إلى ذلك كله ضروباً عجيبة من عملة شرقية موسومة بما تخاله حزمة من الخيوط، أو قطعة من نسيج العناكب، وفيها المستدير والرباعي، والمثقوب الوسط الذي تحسبه ضرب ليُجعل في العنق قلائد. ومجمل القول إن ذلك الكنز لم يترك من مختلف أشكال النقود الذهبية شاردة ولا واردة إلا أحصاها، أما عدد القطع فكان كعدد أوراق الأشجار المتساقطة في الخريف لا تكاد تحصيها لكثرتها، حتى أن عضلات ظهري كان يمزقها طول انحنائي، وأوشكت أناملي أن يفنيها العبث بهذه الأكوام ابتغاء فصل أنواعها المختلفة وتنسيقها.

وقد مضّينا في عملنا هذا أياماً، فإذا كان من المساء ألفيتنا قد نقلنا إلى السفينة قدراً، وبقي علينا للغد قدر آخر، ولم نسمع في غضون هذه الأيام شيئاً من خبر الثلاثة الباقين من الثائرين، فلما كان من الليلة الثالثة على ما أظن، كنت والدكتور نتريضان على جانب التل حيث نشرف على المنخفض من أراضي الجزيرة الصغيرة. وأنا لكذلك إذ نقلت إلينا الريح من جوف الظلام دوننا، ضوضاء قد امتزجت فيها الصيحات بالأغاني، بيد أنه لم تنزل بآذاننا إلا نتفة لم نكد نتميزها حتى عاد السكون إلى نصابه.

فصاح الدكتور بقوله: «ألا سامحهم الله إنهم جماعة الثائرين».

فدوى صوت سلفر من خلفنا وهو يقول: «وكلهم أشد ما يكون سكراً يا سيدي».

وكنا قد منحناه منتهى الحرية فأضحى يعتبر نفسه مرة أخرى تابعاً وصديقاً ذا ميزة خاصة، بالرغم مما كان يوجه إليه في كل يوم من سهام اللوم والتعنيف، وشهادة لله، فقد كان حسن رياضته لنفسه على احتمال هذه الإهانات، وهذا شيء عظيم الإعجاب، فما كان أصبره في التأدب، وأحرصه على دوام التزلف والمحاسنة للجميع، بيد أنه لم يكن بيننا من يعامله بأحسن من معاملته لكلب، اللهم إلا بن جن الذي كان لا يزال يمسك في قرارة نفسه بقية من الخوف الهائل من ضابطه أمير الميرة، وكنت أنا أحسن معاملته أيضاً، بسبب ما كنت استشعره من الاعتراف بجميله، ولو أنه حُق لي حتى بهذه المناسبة أن أكون أسوأ الجميع ظناً به، وقد رأيته يفكر في خيانتي مرة أخرى على الهضبة، وعليه فقد أجابه الدكتور مغلظاً:

«سواء علينا أكان سكراً ما بهم أم هذيان».

فأجاب سلفر بقوله:

«لحق ما تقول يا سيدي فما كان ليعينك أمرهم، هو يعنيني مثقال ذرة».

فصاح به الدكتور مستنكراً متهكماً وقال: «لعلك بعد الساعة لا تجسر على مطالبتي بأن أسميك إنساناً، وإني مصرح لك رغم اعتقادي بأن شعوري سيكون مستغرباً لديك يا سيد سلفر بأنه لو أنني استوثقت من أنهم يهذون، – كما استنتج بأن الحمى لا بد أن تكون قد

صرعت ثلثهم على الأقل – فإني لا بد تارك هذا المكان، وطارح بنفسي مطرحاً خشناً من التغرير، ابتغاء أن أنفعهم بطبي».

فقاطعه سلفر: «إني مُستميح سيدي عذراً، في أن أؤكد له بأنه إن يفعل فهو يخطئ أيما خطأ؟ ولا ريبة عندي في أنك لا بد خاسر حياتك؛ أما وقد انضممتُ اليوم إلى جماعتك قلباً وقالباً، فإنه ليحزنني أن تنقص جماعتي اليوم أحد أفرادها، بغض الطرف عن كونك أنت ذلك الفرد، مع ما أنا مدين لك به من عظيم المعروف؛ فإن أولئك الرجال الذين تريد المخاطرة بمعونتهم، إنما هم قوم لا قدرة لهم على الاحتفاظ بمواثيقهم، حتى ولو أنهم أرادوا ذلك، أضف إلى هذا أنهم لا يثقون بأحد».

فأجاب الدكتور بقوله: «لا، لقد عرفنا جميعاً بأنك أنت الرجل الذي يحتفظ بوعده».

هذا وكانت تلك الصيحات آخر ما نمي إلينا من خبر القراصنة الثلاثة، اللهم إلا صوت طلق مدفع سمعناه على مسافة بعيدة منا، ولعل القوم كانوا يصيدون، ثم إننا عقدنا مجلساً، فقرمنا الرأي على تركهم مهجورين على سطح الجزيرة، فسُر بذلك بن جن أيما سرور، واستحسنه غراي كل الاستحسان، ولقد تركنا لهم كمية موفورة من البارود والرصاص، وغادرنا معظم ما كان لدينا من الماعز المملح، وبعض العقاقير الطبية، وطائفة من الضروريات، كبعض الآلات والملابس، وشراع متوفر، وقامة أو اثنين من الأمراس، ولفرط ولع الدكتور بالتدخين، فقد أصر على إهدائهم قدراً موفراً من الطباق.

ولعل هذا كان آخر ما عملناه على الجزيرة، وكنا قبل ذلك قد

نقلنا الكنز إلى السفينة وتزودنا بمقدار كاف من الماء، وبكل ما تخلف من لحم الماعز، تلافياً لما عساه أن يعرض لنا في طريقنا من التأخير.

فلما كان من صباح يوم رقت غلائل صحوه وهبت شمائل صفوه، رفعنا المرساة، فكان هذا كل ما أمكننا فعله، وقد خرجنا من المرفأ الشمالي رافعين العلم نفسه الذي رفعه الكابتن سمولت وحارب تحته في الحشيكة(*).

ولا بد أن الرجال الثلاثة كانوا لا يفترون عن مراقبتنا مراقبة دقيقة ما كنا لنتوقعها، وذلك أنه كان لا بد لنا إذا نحن اخترقنا المضايق أن نسير على مسافة قريبة جداً من الرأس الجنوبي، وهنالك شهدنا ثلاثتهم سجدوا على لسان من الرمل. وقد رفعوا سواعدهم ضارعين مبتهلين، ولا شك عندي في أن توسلهم نال من قلوبنا جميعاً، بيد أننا أشفقنا من حدوث عصيان آخر.

أضف إلى ذلك أننا إذا عدنا بهم، ثم تحسن سلمناهم للشنق، لكان ذلك حنوا موهوماً لا مسحة للشفقة عليه، بيد أن الدكتور حياهم، وأخبرهم بما خلفناه لهم من المؤن، ودلهم على موضعها، ولكنهم ظلوا يرددون أسماءنا مستنجدين وهم يتوسلون إلينا أن نشق عليهم ابتغاء مرضاة الله، ويناشدوننا الرحمة أن لا نتركهم يموتون في ذلك المكان القصي.

ولما تحققوا أخيراً أن السفينة لا تنفك آخذة في مجراها، وقد

---

* الحشيكة: Palisade دريئة أو سور يتخذ من أوتاد يلقى عليها الحشك. - (المترجم).

أوشكنا أن نصبح بحيث يتعذر علينا سماع صوتهم، انتصب واحد منهم لم أتميزه، واستقام على قدميه، ثم دلف إلى مسدسه وأسنده إلى كتفه، ثم أطلق طلقاً مرّ في الهواء فوق رأس سلفر مخترقاً الشراع الأكبر فلُذنا بعد ذلك بكنف الحواجز ولما رجعت بعد دقيقة إلى التطلع كانوا قد اختفوا من فوق اللسان وأوشك اللسان ذاته أن يصبح غير منضور، لابتعادنا عنه؛ ولا شك أن هذا كان خاتمة المشاكل والأذى. وما انتصف النهار، حتى غاصت أعلى تلال جزيرة الكنز في جوف البحر الأزرق.

بيد أن حاجتنا للرجال كانت شديدة، فكان لا بد لجمعنا من الاشتراك في العمل، اللهم إلا الكابتن سمولت الذي ظل راقداً على فراش في مؤخر السفينة وهو لا يفتر عن إصدار أوامره. ولو إنه كان قد تماثل للشفاء، إلا أنه كان في كبير حاجة إلى الراحة والسكون، وقد ولينا وجوهنا شطر أقرب ميناء في أمريكا الإسبانية حيث لم نستطع المجاذفة بالعودة إلى وطننا من غير أن نتزود برجال يعاونونا على تسيير السفينة، وقد عطل سيرنا هبوب بعض الرياح المضادة، والأنواء الشديدة، فما وصلنا الميناء حتى أشرفنا على الهلاك من شدة الإعياء.

وما أشرفت على طرح المرساة قبل الغروب حتى انتهينا إلى خليج محجوب عن الرياح داخل الأرض، وما إن رسينا فيه حتى أحاطت بنا مجموعات من الزنوج وهنود المكسيك، والمولدين، وهم يبيعون الفاكهة والخضار، ويطلبون إلينا أن نلقي في البعض بعض النقود لكي ينقضوا خلفها ويستخرجوها، ثم يحضون بها لأنفسهم جزاء مهارتهم، فكان مرأى هذا العدد المكتظ من الوجوه الباسمة (وخصوصاً

السود منهم) ومذاق الثمار الاستوائية، وبصيص مختلف الأنوار التي بدأ يتألق وميضها في المدينة، كل ذلك إذا قارناه بتلك الفترة الموحشة التي سلخناها في الجزيرة، بين سيلان الدماء، وتمزق الأشلاء، كان مجلبة للطرب، مدعاة للحبور. وقد استصحبني الدكتور والسيد ترلوني لقضاء الفترة الأولى من المساء على الشاطئ وهنالك قابلنا ربان سفينة حربية إنجليزية فتحدث معه السيدان، وصعدوا على ظهر سفينة، وعلى العموم فقد قضينا الوقت مسرورين، وما رجعنا إلى الهسبنيولا حتى كان اليوم قد انبلج وكنا قد غادرنا بن جن منفرداً على سطح السفينة فما رآنا حتى جعل يتلوى ويلوح لنا بسر تمهيداً للإفضاء إلينا بنبأ عنده، ذلك أن سلفر لاذ بالفرار في أحد القوارب مذ بضع ساعات، وقد أغضى عنه جن حرصاً منه على أرواحنا من ذلك البحار الأحادي الساق، وظناً منه أننا كنا لا نزال في خطر ما بقي بيننا. ولم يكن هذا كل ما في الأمر فإن الطاهي لم ينثن صفر اليدين، بيد أنه انساب من أحد الحواجز متسللاً، وظفر بحقيبة من حقائب الكنز قيمتها ثلاثمئة إلى أربعمئة جنيه، حتى يستعين بها على جولاته في المستقبل.

وأحسبنا جميعاً قد سرّنا تخلصنا منه بهذا الثمن البخس.

وقد ظفرنا ببعض الملاحين وأبحرنا إلى وطننا موفقين، فوصلت الهسبنيولا برستول في الوقت الذي أزمع فيه بلاندلي على تجهيز بعثة للبحث عنا ولم يرجع من الرجال الذين أبحروا بها إلا خمسة فقط، وبذا تحققت نبوة القبطان «اشرب وإبليس أهلك الباقي» ولو أن حالتنا لم تكن من الرداءة بحيث تنطبق عليها الأغنية التي معناها:

«السفينة أبحرت بخمسة وسبعين رجلاً
عادت وليس عليها إلا ملاح واحد».

وقد أخذ كل منا بنصيب وافر من الكنز، وكل أحسن الانتفاع بنصيبه أو هو أساء طبقاً لاختلاف طبائعنا. أما الكابتن سمولت فقد نبذ سفر البحر، ولم يقصر غراي سعيه على اقتصاد نقوده، بيد أن ميلاً فجائياً للرفعة نزع به لأن ينشط لدرس مهنته، وهو ربان سفينة، وشريك في مركب جميل مستكمل العدة، وقد تزوج وهو اليوم رب أسرة. أما بن جن فقد أعطيناه ألف جنيه لعله أنفقها أو هو أضاعها في ثلاثة أسابيع، أو بالحري في تسعة عشر يوماً، حيث عاد إلى التسول في اليوم العشرين، فلم يسعنا إلا أن نكل إليه أمر حراسة أحد الأبواب كما كان يخشى أن يؤول به الأمر وهو على سطح الجزيرة، وهو لا يزال محبوباً لدى صبيان القرية، ولو أنه معتبر كأنه أضحوكة، أضف إلى ذلك أنه من كبار مرتلي الكنيسة في أيام الآحاد وأعياد القديسين.

أما سلفر فلم ينمِ إلينا شيء من خبره، ولقد تخلصت من ذلك البحار الرهيب الأحادي الساق من غير أن ينالني منه عنت. بيد أنني أقول إنه لا بد صادف زوجه الزنجية، ولعله لا يزال يعيش منعماً معها، ومع ببغائه الكابتن فلنت، وإني لأرجو له ذلك، لأن راحته في الحياة الأخرى تكاد تكون معدومة.

أما قضبان الفضة والأسلحة فهي لا تزال في مكانها الذي أودعه فيه الكابتن فلنت، ولا نزاع في أنها سوف تظل كذلك. فما كانت الثيران وحبال مركبات نقل البضائع، لتقوى على ربطي وسحبي إلى

تلك الجزيرة الملعونة، وشر أحلامي ساعة أسمع الأمواج تضرب في أكناف الشواطئ، أو عندما أهب من الفراش مذعوراً، وصوت ببغاء سلفر لا يزال يدوي في مسمعي وهو يردد ألفاظه المعروفة: «قطع ذات الثمانية! قطع ذات الثمانية!».

تمت

المحتويات